

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ مَعَهُ

رُحُومَةُ إِبْرَاهِيمَ

عبد محمد بن حوزة النصار



## بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴿ ﴾

( قرآن كريم )

قال ﷺ :

( أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ) .

١

شمس تغيب ويقفوا إثرها قمر ، ونور صبح وبعده حلك ، والقوافل تنساب في معبد الكون إلى الشمال ، والرياح تهب من الجنوب ، والأرض وشى والنسيم معتبر ، قد صنع فصل الربيع الرياض عقودا ، وحلى الثرى بنجوم الثريا ، والتفت الغصون كتعانق الأحباب ، وانتشر النوار الأصفر على جبين الصحراء كناعج من الذهب النضار على رأس عروس ، ونبتت العيون بماء زلال ، وسالت الأودية بالحياة ، وراح كل ركب يلتمس الواحات في الطريق ليسعد بطيب ظل ظليل ، وترتاح الأرواح في الأجساد .

وكانت صوامع الرهبان علامات على الطريق ، اعتكف فيها أناس فروا من الحياة وضجيجها وانقطعوا للعبادة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ما دار بخلداهم أن الانعزال عن الناس انعزال عن الدين ، فالتقوى لا تعرف الأنانية ، بل هي أن يتجاوبوا مع أنفسهم ومع العالم كله في سبيل الخير الأسمى .

وانطلقت القوافل إلى دومة الجندل حيث سوقها السنوى ، وقد نسي الناس أن أول من نزلها كانوا أبناء دوما ابن إسماعيل وكان كل ما يذكرونه أن أكيدر غرس فيها الأشجار وأعاد بناءها ، وأن بنى كلب ينزلونها وأنهم يحكمون السوق إذا ما غاب عنها أكيدر ملكها .

وجاء أول يوم من ربيع الأول فاجتمع الناس للبيع والشراء والأخذ

والعطاء ، وكانت المبايعة بيع الحصاة ، يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم . أو يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبض من الشئ المبيع . أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم . أو يعترض قطع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصبتها فهى لك بكذا .

كانوا يقامرون بالنهار يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل . ويعكفون فى الليل على الخمر والميسر والنساء ويمضون الوقت فى اللهو واللعب ، فنقلت أرواحهم بأوزار الأجساد وصاروا مجرد أشياء ، آمالهم محدودة بالعالم الأرضى الذى يتنفسون فيه ، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تلالشى ولذة لا تدوم ، قد أوغلوا فى الحياة الحيوانية فانعدم انسجامهم مع إنسانية الإنسان .

أطلقوا عنان نزواتهم وعواطفهم فاتجهت شهواتهم ورجباتهم إلى غايات جسدية ، فأهبطت أجنحة ارواحهم وانجذبت إلى الأرض ، وسيطرت عليهم أنانية مدمرة طاغية استبدت بهم فتفككت الحياة الإنسانية ، بل صارت حياة ضارية لا تحترم . الخير الإنسانى العام . بل تقدس كل ما يجلب منافع ذاتية أو يشبع شهوة عارمة ، لا فرق بين تجارة أو مضاربة أو غارة وسلب ونهب أو سفك دم برىء أو ظلم أو دعارة ، لا تمييز بين الحلال والحرام ، قد ساد بينهم قانون الغاب .

وكانوا يتمسحون بأصنام الآلهة التماسا للرزق والعافية فى الدنيا ، وما كان محراب ربهم فى أغوار نفوسهم بل كان حجرا يحملونه معهم إذا خرجوا أو يلتقطونه من هنا أو هناك ، ومن سفاهة أحلامهم تعصبوا لتلك

الحجارة التي لم يكن لها عليهم سلطان .

وكانوا لا يؤمنون بيعث ولا حساب قد ذوى النور المقدس في قلوبهم وذبل ، وخفت الضوء الذهبي الذى يشرق بنور ربه بعد أن قدموا البطون والشهوات على العقول ونقاء النفوس والأرواح ، فلم يكن للأخلاق جلور في عين وجودهم ، وما كانت لهم سلطة مقدسة تتفجر منها قوانين الخير والمحبة وقواعد الأخلاق ، فسقطت كل القيم الإنسانية ، وظهر الفساد في البر والبحر وأصبحت حياتهم فراغا وأوقاتهم هباء .

قطعوا كل العلائق بالذات العلية ، وأغلقوا نوافذ قلوبهم دون النور الإلهي ، فلم يروا داخل نفوسهم ، ولم يعرفوا ذواتهم ليعرفوا ذات الله ، وعجزوا عن أن يسروا أغوار الكون ليرتقوا إلى ما فوق الطبيعة وإلى ما وراء عالمهم المادى ، فضلوا السبيل واستكانوا للشر واستجابوا لعواطفهم الجائعة ، وغنوا عصبيتهم وجاهليتهم بحطام أنبل المبادئ الإنسانية ، فهاموا في طرقات ملتوية لا تقود إلا إلى الظلام .

صار الإنسان مادة تافهة ، لا يؤمن إلا بما يلمسه بيده ويراه بعينه ويذوقه بلسانه ويشمه بأنفه ويسمعه بأذنه ، فاستكان لحدوده فلم يحاول أن يصرع الشر أو يواصل حياة ثانية بعد الموت ، فإن كان سيذا أسلم نفسه للشره في الأكل والشرب والعواطف ، وإن كان عبدا للذل والجوع والحرمان ؛ قد ظلموا أنفسهم سادة وعبيدا .

وكانت القبائل متشاحنة قد نزلت البغضاء قلوبهم ، فالعداوات مشبوبة ، والحروب دائرة ، والثارات لا يخبو أوارها ، والشعراء يهيمون في الأودية يؤججون نيران الكراهية ، وسوس الفساد ينخر في المجتمع ويشيع التحلل والانحطاط ؛ فصارت رحلة الحياة بلا هدف ، تشق طريقها في

شعاب القسوة ويبداء الضياع وعفن البشرية .  
ونسى البشر أرض الله ، فصارت في أشد الحاجة إلى غيث من السماء  
يظهرها لتستمر عليها الحياة الكريمة التي تليق بالإنسان الذي قبل أن يحمل  
الأمانة ؛ إلى رسول من عند الله مؤيد من عند الله يعيد البعث الروحي إلى  
الناس ، ويرتقي بالنظرة إلى الحياة فيقتلع الشرور من نفوس البشر ويحقق  
انتصار الإنسان .

وتقضت أيام سوق دومة الجندل بما فيها من مقامرة وهضم للحقوق  
وولوغ في الدنيا التي تحط من قدر البشر ، فانقلب بعض القبائل إلى  
منازها . وانطلق بعض التجار إلى الحيرة وبلاد فارس ، ويم بعض التجار  
إلى بلاد الشام وبلاد الروم ، وتوغل بعض تجار من كلب في البلاد الرومية  
حتى بلغوا عمورية .

كانت الثعالب السود ترح في شعاب الجبال ، والأرانب البيض تفر  
مذعورة إذا ما عكر سكون الفضاء وقع حوافر الخيل على الأرض الصلبة ،  
وفاحت روائح المسك واعتري العرب سرور لا يدرون مبعثه ، فقد كان  
كل من يفد إلى هذه البلاد ينعم بنشوة تملأ جوانحه .

وانساب تجار كلب في أسواق عمورية ، كانت المتاجر كثيرة والبضائع  
من طرف وحزير ومصنوعات مكدة هنا وهناك ، فراح التجار العرب  
يشتررون بما معهم من عملات قيصر ، ويبيعون الطيب والسيوف اليمنية ،  
ويستبدلون العملات لدى الصيارفة الذين انتشروا في كل مكان ليستفيدوا  
من فروق أسعارها .

وكان سلمان الفارسي يعيش في عمورية على أمل أن يجد من يحملونه إلى  
أرض العرب بعد أن سمع من صاحبه أن قد أظلم زمان نبي ، وهو مبعوث

بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مهاجرة إلى أرض بين حرتين . فلما مرَّ به التجار العرب هرع إليهم متفرحاً وراح يحدّثهم ، فعلم أنهم من كلب فقال لهم وهو ينظر إلى بقراته وغنيماته :

— احمّلوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنماتي هذه .

قالوا والطمع يسيل مع لعابهم والجشع يطل من عيونهم :

— نعم .

وساقوا بقرات سلمان وغنيماته إلى حيث أناخوا قافلته ، ثم حملوه معهم يكاد يطير من شدة الفرح وقد هان كل شيء في عيني الباحث عن الحقيقة ، فهو في طريقه إلى النور الذي ينشده ، النور الذي هجر الأهل والخلان في سبيله ، النور الذي يبدد القلق والحيرة والشكوك وينزل بالقلب أنوار اليقين .

انصرفت رغبته عن كل ما حصل من علم المجوس وعلم النصرانية ، وعن الاستقرار الذي ذاق طعمه في عمورية ، وعن البقرات والغنيمات التي اقتناها إلى الخير الأسمى الذي ينشده ، إلى جوهر الحقيقة التي صارت هدف حياته ، فقد زهد في الدنيا وفي كل ما تجلبه من مسرات رغبة في سرور روحى وحبا في انشراح الصدر الذي ينيره قلب مؤمن أشرق بنور ربه .

إنه زاهد مطلق لا يحب إلا الله ولا يريد إلا وجهه ، ترك حظ نفسه في أصبهان وفي نصيبين وفي الموصل وفي عمورية ، وزالت عنه كل رغبة في جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو سلطة أو سلطان . ولم تبق له إلا رغبة واحدة : أن يلتقى بذلك النبي العربي الذي بُشِّر به وبشرت به الأنبياء ليأخذ بيده إلى طريق الحق . وهل يقوده إلى الصراط المستقيم مثل نبي !



نبذ الدنيا ولم يتخذها ربا لكيلا تتخذه عبدا ، ونبذ الشهوة فرب شهوة  
أورثت حزنا طويلا ، وقطع كل علائقه بالماديات في سبيل غاية أسمى تجذبه  
إلى ملكوت السماء فأخرج من قلبه حب الدنيا وأدخل فيه حب الغاية التي  
ليس وراءها غاية ، فاختار جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على  
غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، وصبر على مكروهاها وصبر عن محبوبها  
طمعا في حياة روحية سامية تشبعه أبدا وتغنيه أبدا وتشرح صدره أبدا  
وتهون عليه مصائب الأيام ، فصار يرى بنور الله ويفكر بهدى رب العالمين  
الذى بات يحسه في عين ذاته ، وأصبحت كل آماله ومنتهى أمانيه أن يلتقى  
بذلك النبي ويؤمن به ويصدق له يعيش في شعاع شمس حواريا كحواري  
السيد المسيح عليه السلام .

إنه جرب الرهينة والعكوف في الكنائس ونمضية النهار والليل في  
المحاريب يردد ما لقن من ابتهالات ، غير أن طول السهر والقيام آتاء الليل  
وأطراف النهار والاجتهاد في الصلوات لم تشرح صدره ولم تكشف له عن  
لب الحقيقة ، فظلال الشك ترين على ما حاول أن يدخل قلبه من  
معتقدات ، وهو يريد ما حقيقة ناصعة نقية بلا ظلال من ريب . فما إن  
سمع عن قرب ظهور نبي يأتيه الخبر من السماء حتى زهد في الرهينة وفي  
الدين الذى وجده أفضل من دين قومه وإن لم يهده الطمأنينة الخالصة ،  
فهو راغب في الصفاء الذى لم تعكره أساطير الشعوب ولا أهواء الرهبان  
ولا مطاعم القياصرة الذين فرضوا إرادتهم على الجماع المسكونية التي  
شرعت في الدين ما يرضى أصحاب النفوذ والسلطان .

وانطلقت القافلة وسلمان بين الرجال وإن غاب عنهم بما في قواده من  
أشواق وما في رأسه من أفكار ، فلم يعد همهم زينة الحياة الدنيا بل صار يرى

بعين بصيرته جمال الجمال ، بعد أن أجرى الله بتاييع الحكمة في قلبه  
و أصبح همه جوهر الحقيقة ووجه الله .

وبلغت القافلة وادى القرى وقد غمرت السعادة سلمان ، فهو في  
أرض العرب مبعث ذلك النبي الذي خرج في طلبه . وزاد في سعادته أنه  
أحسن أن الله أراد له الرشد والهداية بعد طول التأمل والبحث والخيرة .  
سار سلمان مع تجار كلب في السوق يتلفت وإذا بالرجال الذين ما  
أعطاهم بقراته وغيماته ليحملوه معهم ينظر بعضهم إلى بعض وقد أطل  
الغنر من أعينهم ، فانقضوا عليه وأسروه بضاعة وعرضوه بين ما عرضوا  
من رقيق .

ولف سلمان حزن عميق ، فقد في لحظة حريره وهو الذي عاش طوال  
حياته حرا ينطلق من بلدة إلى بلدة كفراشة طليقة جريا وراء وجه  
الحقيقة ، وزاد في أساه أن هؤلاء العرب الذين سيخرج منهم ذلك النبي  
الذي سيبعث يدين إبراهيم عليه السلام قد ظلموه وباعوه لرجل يهودى  
عبدا ، ولم يستسلم لثورة عواطفه فما لبث أن ضاعت بصيرته حقيقة أن  
الأنبياء لا يعثون إلى أقوام صالحين ، فما رآه من هؤلاء النفر من تجار كلب  
مذ غادر معهم عمورية إلى أن باعوه في وادى القرى يؤكد حاجتهم إلى  
رسول يفرجهم من الظلمات إلى النور .

وانطلق سلمان خلف سيده اليهودى مطرق الرأس يفكر في حكمة  
أسره فلم يبتد عقله إلى السر الدفين ، فما كانت عنده مفاتيح الغيب ليطلع  
على ما يخبئه له العليم الخبير ، وكان الأسى يعتصر فؤاده ولكنه لم يدع اليأس  
يتسرب إلى قلبه ، وكيف يعرف اليأس طريقه إلى قلب أشرق بالنور ؟  
وراح سلمان يعمل في أرض ذلك اليهودى ، ورأى النخل فاستبشر ،  
فصاحبه قال له وهو يحدثه عن النبي العربى : يخرج بأرض العرب ،

مُهاجرة إلى أرض بين حرتين بينهما بخل ، به علامات لا تخفى . هرع سلمان يطوف بوادى القرى بحثا عن الحرتين : عن الأرض ذات الحجارة السود وقد امتلأت حوائجه بالأمل والرجاء ، ولكن فترت حماسته لما لم يجد الصفة التى حدثه بها صاحبه وإن لم يعرف اليأس إلى قسه ميلا .

ومرت الأيام وسلمان يعمل فى أرض سيده ، فيها هو عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فلما رأى سلمان أعجب به فابتاعه من سيده ، فلم يستشر سلمان أسي بل عمره شعور بالرضا ، فمن يدرى لعل الله قد بعث ذلك القرظي ليحمده إلى مبعث ذلك السبي الذى ينتظره أو إلى مهاجرة .

وخرج سلمان مع سيده الحديد وانطلقا إلى المدينة ، فراح سلمان يقلب وجهه فيها فإذا بشوه عارمة تغمره ، وإذا بمعث فى روعه يؤكد له أنها البلد الذى وصف له صاحبه . وما إذ استقر فى أرض بنى قريظة حتى هرع ليطوف بالمدينة فإذا بهرح فياض يتصحر يتابع من عين ذاته ، وإذا بسرور روحى عجيب يلفه . إنها أرض بين حرتين بينهما بخل ، إنها مهاجرة ، إنها هى ولا ريب . وارتفعت الأسجاف عن عين بصيرته فرأى حكمة عذر تجار كلب به ، فحر إمام الزاهدين ساحدا لله يروى بدموعه الأرض ، وبات يستظر فى صبر ذلك اليوم الأعر الذى يجتمع فيه بالسبي الذى أطل زمانه .

كان اليمنيون يرحلون إلى الشمال ، وكان أهل الحجار يرحلون إلى الجنوب إلى اليمن ، وقد كثرت هجرة اليمنيين إلى الحجار وشمال الجزيرة العربية عقب النشاط التجاري الذي قام به الرومان في البحر الأحمر ، وبعد انهيار سد مأرب . وعلى الرغم من الاتصال الدائم بين الشمال والجنوب ، واجتماع الشماليين بالجنوبيين في مواسم الحج وفي الأسواق ، فقد كان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى إن كلا منهما اتخذ لنفسه شعارا في الحرب يخالف شعار الآخر ، فالتحد المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر

وكان توالي الحوادث والوقائع الحربية يربد في العداء ويقوى روح انشر بينهم ، وقد كان العداء شديدا بين الأوس والخزرج الذين حاربوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب وبين العدنانيين سكان مكة ، وكان بين القوميين حزازات ومفاحرات كل يدعى أنه أشرف سببا وأعز نفرا ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما هم من حضارة قديمة وملث راسخ .

وكانت القبائل في عداء دائم ، وكان المثل الأعلى لنعري الكامل أن يتحلى بالشجاعة الشخصية ، والشهامة التي لا حدها ، والكرام إلى حد الإسراف ، وإخلاص التام بنقيته ، والقسوة في الانتقام والأحد بشار من اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته يقول أو فعل ، وما كان أحد يفكر في إخضاع مافقه الشخصية ومافع قبيلته للبحر العام

وكانت أسماء مشاهير العرب ترداد نالقا كلما رادت سفاهاتهم . وكلما زادت جرأتهم على حرمة الجار بالقول أو الفعل ، وكلما انتشرت في الأرض فواحشهم ، فكان الشعراء يتغنون بكرم لاعبى الميسر ، وشجاعة سافكى الدماء والذين يغيرون على القبائل الآمنة لسلب حرية الرجال والنساء والولدان . ويمتدحون شارى الخمر وكل عاهر يلعب بعقول الغواني ويطوف يدور البغاء .

وكانت بعض نحات من الجود ومكارم الأخلاق تومض في ذلك الطلام الخالد ، لا لفصية متأصلة في قلوب الناس بل طمعا في دموع الصيت وحسن الأحداث وإرضاء لغرور السادة الذين يريدون علوا في لأرض والارتقاء إلى قمم الأعماد .

كان الفساد يجرى في شرايين اجتماع العربى مجرى الدم ، وكانت غارات المعامرين على القبائل تعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكان الذين يتزعجون النساء من أحضان أرواجهن أو من كف أسره لا يتسترون على أفعاهم الكراء ، بل كانوا يتفاخرون في أشعارهم عما اقترفوا من آثام لتشيع بين الناس .

وكان في كل قبيلة فارس يمشى في الأسواق ويدعو الإماء والفتيات إلى نفسه ، أو يشق الغارة على قبيلة ليخطف منها امرأة أعجبه دون حياء . وقد جمع عروة الورد العيسى صعاليك قومه يعزو بهم القبائل من حوله ، فإذا أحققوا في عرواتهم كان يوم بأمرهم فلقب عروه الصعاليك .

وأصاب الناس سمة شديدة فتركوا في دارهم المريض والكبير والصغير . وخرج عروة في صعايكه وقد كتف على الناس الكُنف ( اتخذ لهم حظائر يأوون إليها ) فانطلق للغارة والشتاء شديد وعشيرته

تكاد تهلك من الجوع ، ويبسا هو وصعاليكه يحشون عن فريسة إذا بناقتين دهماوين ، فحرق لهم إحداهما وحمل متاعهم وصعفاءهم على الأخرى ، وجعل يتقل بهم من مكان إلى مكان . وإذا برجل صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه ، فقتله وأحد إبله وامرأته .

وكشفت المرأة عن وجهها فإذا بها من أحسن النساء ، فوقع حماها في قلب عروة وفي قلوب صعاليكه فانقلبوا بما معهم إلى أصحاب الكيف فحلبوا لهم الإبل وحملهم عروة عنها ، حتى إذا دبوا من عشيرتهم أقل يقسمها بينهم وأحد مثل نصيب أحدهم ، فقالوا :

— لا واللوات والعزى لا نرضى حتى نحمل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها .

فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم ويترع الإبل منهم ثم يذكر أنهم صبيغته وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، ففكر صويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحله يحمل عليها المرأة حتى يدحق بأهله

كانت المرأة اتى سباها من بى هلال بن عامر بن صعصعة . يقال لها ليلى بنت شعواء . فمكثت عنده رمانا وهي معحة له تريه أنه نجبه ، ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهاهم بها ، فلما أراد الرجوع أتت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم فأقبل عليها فقال لها :

— يا ليلى ، خبرى صواحبك عى كيف أنا .

— ما أرى لك عقلا ! أترأى قد احترت عليك وتقول خبرى عى !

وأحد بنو عامر امرأة من بى عيس ففكر عامر بن الصميل بذلك وذكر أحده إياها ، فراح عروة يعيرهم بأحده ليلى الهلالية . كانت مثل هذه الأشعار التي تصحر بسلب الخرائر تنتشر بين الناس فيتقمونها ليسمر بها

السمار في نواديهم ، فقد كان سبي النساء والعبث بهن أمرا مألوفا شاع في كل القبائل .

وسبي عروة سلمى من بني غفار ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا وكان شديد الحب لها . ودات يوم حملها معه إلى يثرب ونزل في بني النضير ، فلما رأى اليهود حس سلمى طمعوا في جمالها فقدموا إليه خمرًا معتقة فراح يشرب ، فلما انتشى معوه . وراح يطلب مزيدا من الخمر فاتمسوا به في رقة أد يدفع ثم ما يشرب ، وما كان معه شيء إلا زوجه هرنها ، ولم يزل يشرب حتى استحق اليهود الرهية . فلما أفاق قال لها : — انطلقى .

قالت في أسى :

— لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتني

وأحد اليهود سلمى العفارية لما لم يقدر عروة على اقتكاكها في الوقت المشروط ، فقال عروة في أسى :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب ورور

وراحت سلمى تثني عليه فقالت :

— والله إنك ما علمت لصحوك مقبلا ، كسوب مدبرا ، خفيف على

من الفرس ، ثقيل على العدو ، طويل العماد ، كثير الرماد ، راضى الأهل والجانب<sup>(١)</sup> ، فاستوص بينك خيرا .

وانصرف عروة الصعاليك حزينا ، ثم ما لبث أن عاد لحياة الصعلكة بهاجم القواهل ويورع ما يسلب على رجاله ، ويشد الشعر ويال إعجاب

(١) الغريب ويراد به الصيف .

اجتمع المريض ويفصله في الخود على حاتم الطائي .  
ولم يكن المجتمع في يثرب بأحسن حالا من اجتماعات العربية  
الأخرى ، فقد دب الشقاق بين اليهود واليهود ووقعت البغضاء في قلوب  
الأوس والخزرج وكثيرا ما كانت المنازعات تشب بين العرب واليهود ،  
وكثيرا ما كانت ثور الحروب ولا تحقر الدماء إلا لفترة وحيرة ، ثم سرعان  
ما تبدل العداوة بمرارة القتل لنحرق اليهود والعرب دون تمييز  
وفي ذلك الحو المشحون بالعداوات والقلاقل والخوف راح ابن الهيثبان  
يحود بآخر أنفاسه ، وقد التف به ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسيد بن  
عبيد ، وهم نمر من بني هذيل ليسوا من بني قريظة ولا البصير بسهم فوق  
ذلك هم بنو عم القوم ، وقد لاح في وجوه الرجال هم ثقيل . فابن الهيثبان  
رجل من يهود أهل الشام قدم عليهم ، حل بين أظهرهم ما رأوا قط رجلا  
أفضل منه .

كانوا إذا قحط عنهم المطر قالوا له :

— اخرج يا ابن الهيثبان فاستسق لنا .

فيقول :

— لا والله ، حتى تقدموا بين يدي محرركم صدقة

فيقولون له :

— كم ؟

فيقول :

— صاعا من تمر أو مدين من شعير .

فيخرجونها ثم يخرج بهم إلى ظاهر حرتهم فيستسقي الله فله ، فوالله

ما يرحلوا محلسه حتى يمر السحاب ويسقون .



وعرف ابن الهيثان أنه ميت، فانتفت بعيوب رائعة إلى من كانوا عنده وقال.  
— يا معشر يهود ، ما ترويه أحر حى من أرض الخمر والخمير إلى أرض  
اليؤس والجوع ؟

قالوا :

— إنك أعلم .

قال في صوت خافت :

— فإني إنما قدمت هذه السدة أتوكّف ( أنتظر ) خروج بنى قد أضل  
زمانه ، وهذه البلدة مُهاجرة ، فكب أرحر أن يبعث فأتبعه ، وقد أطلقكم  
زمانه فلا تسقن إليه يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى  
الدرارى والنساء ، فمن خالعه فلا يجمعكم ذلك منه .

ومات ابن الهيثان وحديثه يرن في أعماق قلوب الفتية ثعبنة بن سعية  
وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد بعد أن حصر في أعماق نفوسهم ، ثم قبر ابن  
الهيثان وما أسرع أن نسى الناس تلك العبرة المؤقتة التي يراها بالأفئدة رهبة  
الموت وجلاله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من سعى بلديا وكذب وهتان  
ورور ، وأكل الأموال بالباطل ، ومد العيون إلى نساء الآخرين ،  
والاحتيال بالخمر واليسر على سرقة الأموال وسلب الزوجات  
والحرثيات ، وإحالة السادة والحرائر إلى عبد .

واستمرت الشرور بين العرب من الأوس والخرح واليهود ، وذات  
يوم نال العرب من اليهود ما يكرهون ، فقال لهم اليهود :

— إنه قد تقارب زمان بنى يبعث الآن يقتلكم معه قتل عاد وإرم .  
وأحسن الأوس والخرح رهبة ، فكثيرا ما سمعوا ذلك من اليهود وهم  
أهل كتاب عندهم علم ليس عند أصحاب الأوثان ، ترى لو تحقق ذلك  
الوعيد وبعث ذلك النبی ، فماد يفعلون ؟!

( دعوة إبراهيم )

٣

كانت الدولة الرومانية تترخ تحت حكم الإمبراطور فوفاس ، وكانت تعيش في ظل كابوس رهيب من الموصى الهدامة والطمع الذى يش من وطأة سكان القسطنطينية وسكان الممالك الخاضعة للسر الرومانى على السواء ، فقيصر الإله يصارب في تجارة القمح لتكدس في حرائبه الأموال ، ورحاب الدولة يقتربون كل الموبقات في سبيل الثراء العاجل ، فسيطرت الأسر السبيلة على النشاط التجارى وعلى الملاهى ودور النعاء وعلى كل ما يحلب الذهب والفضة ، فقامت بعض الأسر سرية المدواجن واحتكرت تجارتها ، واحتكرت أسرات أخرى صناعة الأئسفة ، وسيطرت أسرات على حبات الخمر ودور الدعارة ، حتى اكسمة نفسها اهتمت باندائل المصرفية وإقراض الأباطرة بأموال تصرف على حروبهم للفرس لقاء فوائد باهظة . فلا عرو أن صار الناس جميعا في الإمبراطورية الرومانية عبيد المال .

وكانت مصر وسورية وبعض اممالك الأخرى لتى أوقعها سوء طالعها بين براثن الرومان ، تقاسى من ظلم جاة الضرائب المدين يتزعجون ثمرات الجهود المنصية ليحملوها إلى حرائث الإمبراطور الذى لا يتبع همه للذهب والفضة ، فلم يجد أهنها مفسا بشرة على الاصطهاد غير معارضة القسطنطينية في لاهوتها ، فكانت حركة وحدة طبيعة المسيح في مصر وسورية تستلهم وحيها من العناء الذى تكه لتحكاه الرومان أكثر مما

للعداء للمذهب .

وكانت عمادة الدولة والإمبراطور سائدة في الإمبراطورية التي كان سوس الفساد يحرق في عظامها ، وقد استشرى الانحلال لما أتت الضيقة الأرستقراطية أن تسبح مع تلك العادة والخصوع حصوعا مطلقا لقيصر ، فأصحاب الأراضي الواسعة يشكلون مشكلة خطيرة استعصى حلها على الدولة ، فهم أصحاب نفوذ وسلطان وقوة وسعة ، وقلماء كانوا يبيون للدولة وقوايها أو يحصعون لرعات الإمبراطور .

وزاد الأمر سوءا لما كثرت هجرات البرابرة إلى المقاطعات الرومانية ، فقد جنوا معهم المتاع وعاثوا في الأرض فسادا ، فقضى ذلك على قيمة الأرض وتمزقت الضياع الكبرى شر ممزق ، ووهت قوة أصحاب الأراضي الماويين لنزوات رأس الدولة فحلا للإمبراطور وجه الشعب يرهقه كما يشاء ، ويمتص دماءه يروى بها أراضيها لشمر مريدا من الذهب والأموال .

وصربت العوضى في جنابات عاصمة الإمبراطورية بعد أن صاق الشعب بأعباء الحروب الطاحنة الناشئة بين الإمبراطورين المتنافسين على سيادة العالم ، وقد أرهقت تكاليف هذه الحروب دفعي الضرائب ووصح أثرها في القسطنطينية ، فارتفعت الأسعار ، وزادت الضرائب وعاش فقراء العاصمة في ضئ شديد ، وراحت أحيائهم القدرة تراحم قصور الأعياء ، ولم يبق شيء بلائمن غير السيرك الذي فتح أبوابه للجميع ليشعل التعصب لأحد فريق السيرك قلوب الناس ، وكان الإمبراطور يحسب أن في ذلك انهو مبسا لما يعانى الشعب من حرمان وضيق ، وم يدر بخلده أن العن الدحية كانت تحد لها مرتعا حصيا بين الحشود التي تتقاطر على

السيرك كل ليلة .

وأعلق فوقاس جامعة القسطنطينية وهو يحسب أنه يحق بذلك صوت المثقفين الذين يرفعون أعلام العصيان في وجه سياسته الخرقاء لتي لا تشد إلا إشباع شهواته المادية ، وملء جزائنه بالذهب معمود العصر المحبوب ، ولم يحظر له على قلب أن السياتو : مجلس شيوخ الإمبراطورية قد تأمروا عليه وبعثوا إلى هرقل ابن حاكم إفريقية يحرصونه على أن يقبل بجيشه لتحلص البلاد من الإمبراطور الخشع الذي يشتري قمح أبلاد لحسابه ، ثم يبيعه بما يشاء من أسعار باهظة في زمن المجاعات .

وجعل هرقل جنوده في السمر وأقنع من إفريقيه إلى القسطنطينية ليقعد البلاد من التردى في هاربة الفساد ، وليرفع عن صدرها الكابوس الرهيب الذي حثم عليها مد تولى الحكم فوقاس المقتول بالمضام وجمع المال ، ودارت معارك بين حامية القسطنطينية التي لا تؤمن بما تحارب في سببه وبين جنود أسوا بأهم ما حاءوا إلا لإنقاذ بلادهم من الطاعية ، فدارت الدائرة على من كانت قلوبهم هواء ، ودخل هرقل القسطنطينية دحول الطاهرين وهافات الرحيب بالمنقد تتعالى من كل مكان .

وقتل فوقاس ويقتله امهارة أسرة يوسطيانوس ، وهرع شيوخ السياتو للترحيب بالرجل الذي احتاروه سرا لتحريض البلاد من برائس الإمبراطور الخشع الطماع ، وتاهت القسطنطينية لتتويع المنقد إمبراطورا على البلاد التي أنهكتها حروبها مع فارس ، ومزقت وحدتها اختلاهما في المسيح ووحدته وطبيعته وإرادته ، وإن كانت كل الممالئ الخاضعة لفسر الروماني تدبى بالديانة المسيحية .

واردان القصر وروعت الأعلام حفاقة فوق الدور والحوابيت وفي

الشوارع والميادين ، وليست كنيسة أيا صوفيا كنيسة لحكمة المقدسه أبهى حلها ، وماجت الجماهير في الطريق بين القصر والكنيسة ، وتسلق الشباب الأشجار والتمائيل ، وتدققت البغايا من حين قريب إلى طريق الموكب الإمبراطورى مشاركة منهم في أفراح الشعب .

ونفخ في الأبواق ، وسرعان ما فتح باب القصر وخرجت منه الموسيقىات والمشاة في ثيابهم المزركشة ، ودروعهم المعدنية تتألق في الشمس ، وفي أيديهم الرماح والخنابيس ، وقد تدلت على جنوبهم السيوف . ومن خلفهم الفرسان على ظهور الجياد كأنهم في حصون ، ثم خرجت عربات رجال القصر والدولة ، ثم عربة الإمبراطور تحف بها كوكبة من حيرة فرسان الإمبراطورية . وما إن وقعت أعين الجماهير على هرقل حتى تعالت الهتافات مدوية بحياة المنقذ ، ابن السماء .

وبلغ الركب الفحم ميدان أيا صوفيا ، وقد اصططف فيه الخند ، ووقف عند باب الكنيسة رجال السناتو ورجال الدين وكبار الضباط والقضاة وكبار رجال الدولة في ثيابهم المزركشة ، وهبط الإمبراطور من عربته بين ترحيب المستقبلين الذين علا وجوههم بشر واستبشار بفاخرة عهد جديد في حياة الإمبراطورية الرومانية الخالدة .

وسار هرقل يعلوه الوقار في الكنيسة التي كانت آية من آيات الفن البيزنطى ، وتقدم بين الصفوف إلى حيث وقف البابا هيبوريوس الأول ومن خلفه كبار رجال الدين حتى إذا ما بلغ المخراب أدى صلاة شكر لله ، ثم دوى في جنبات الكنيسة الهادئة الصامتة صوت البابا يعلن تنويع هرقل إمبراطورا على الدولة الرومانية بكل ما في حوزتها من بلاد .

ودخل هرقل قاعة العرش وفتحت الأبواب لوفود المهتئين ، وما انتهت

مراسيم الاحتفال حتى بعث في طلب المسجون والعرايين ليروا ما يحيته القدر ، فراح المسجون يرصدون الهجوم ثم عادوا إليه مطأطئي الرؤوس بأسرى الوجوه ، فالأسرار التي كشفت عنها الهجوم كانت رهبة لا يجرؤ أحد منهم على أن يلقي بها في وجه هرقل أمل الإمبراطورية ومقدها العظيم .

ودخل المسجون والعرايون على الإمبراطور وقد ملأت الشوة جوانحه وتأهب لسمع ما يثلح الصدور وما يشرق عليه من بهجة من وراء العيب ، وراح المسجون يحاولون أن تتم أسارىهم عن الطمأنينة والهدوء وإن كانت أفقدتهم تدوى بين صووعهم في فرع وحوف ، وتقدموا وهم يترعوب حتى إذا ما وقعت أعينهم على الإمبراطور حرّاله ساحدين وقد أرهمت حواسهم وتموالو يطول السجود حتى لا يرى هرقل ما يكره في وجوههم .

وأمرهم بالنوص رفعا رعوهم وقد راعت الأبصار وانقيصت الصدور وطهر في لفتاتهم وحرّكاتهم خوف شديد ، وأحس هرقل ما هم فيه من قلق واضطراب فأوجس خيفة وقال في صوت متهدج :  
— ماذا قالت الهجوم ؟

فتقدم كبير محمي القصر في خطوات وجلة وقال في صوت بدا كأنما قد أتى من أغوار سحيفة :

— نفس ما قالته من قبل يا مولاي .

— وما الذي قالته من قبل ؟

— سيدمر الإمبراطورية شعب مختون .

فهب هرقل في ثورة وقال في حق شديد :

— ومتى هذا البلاء إن كنتم صادقين ؟

وصمت كبير المجمين وإن كان يرتجف من الرأس إلى القدم ، وسرت في أبدان العرافين رعدة شديدة خوفا من بطش الإمبراطور الغاضب الذى غاض إشراقه لما مست النبوة المشفومة أدنيه . وتقدم هرقل من كبير النجمين خطوات وهو يقول :

— تكلم .

— الأمان يا مولاي .

— لك الأمان .

فراح الرجل يروى على مسامع الإمبراطور نبوة تقلص ظل النسر الرومانى عن الأرض التى يرفرف عليها ويؤكد اندحار الجيوش الرومانية أمام جحافل جيش الشعب المختون ، وأن ذلك البلاء ليس قريبا وليس بعيدا<sup>(١)</sup> . فزفر هرقل في عيظ وراح يصر على أبيه يكاد أن ينفجر حنقا ، وما إن غادر المجموع والعرايون قاعة العرش مطأطئي الرؤوس حتى راح الإمبراطور يصكر في التنكيل باليهود ، مهم في وهمه الشعب المختون الذى تقول النبوة إن صرح الإمبراطورية سبتقوص بسيف بنه .

كان اليهود يعيشون في عزلة في الإمبراطورية الرومانية لا يختلطون بغيرهم ترفعا ، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم حتى لا يضيع الدم الطاهر في الأثم ، مهم يؤمنون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم كلاب البشرية ، وأن الإله إنما هو إله إسرائيل وحدهم وأنه فصلهم على العالمين ، ولما كانوا

---

(١) تولى هرقل المثلث سنة ٦١٠ م وكانت معركة ايرموك التى انتصر فيها خالد

ابن الوليد على جيوش الروم ٦٣٦ .

متشبهين بتلك العرلة كان التكيل بهم سهلا ميسورا ، فراح هرقل يسوقهم  
رمرا إلى الملاعب الرومانية يلقي بزعمائهم إلى الأسود أمام شعبه المفتون  
بإراقة الدماء ، ويفرض عليهم المجاهدة والقتال حتى الموت على أعين فانتات  
الإمبراطورية وشبابها الما جس وشيوخها الدين قدت قلوبهم من فولاذ ،  
والهتافات تتجاوب في جيبات الملاعب التي كانت منقسا لكل الشرور .  
واستمر هرقل في تعذيب اليهود وإلهاب ظهورهم بسوط عذاب ، وما  
دار بخلده أن الشعب المختون الذي سيدمر إمبراطوريته تدميرا هم أتباع  
النبي الأمل الذي بشر به السيد المسيح ، الفارقليط الذي سيرل عليه  
الكتاب المنير الذي سيمكث مع الناس إلى الأبد .



٤

برارى سهلة كثرت فيها المزارع وقامت عليها أشجار النخيل  
كالأبراج ، وانتشرت ها وهناك بساتين خضراء وعيون جارية وثمرات  
مختلفة الألوان كأنها العقيق والزمرد والمرجان ، ومراعى ممتدة فى الوديان  
وعلى سفوح الجبال ، وجبال وعرة وصحراء واسعة مترامية وحصون  
مرتفعة ومعقل منيعة وبحر يخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وقصور عجيبة  
وأبىة عظيمة ومدن عامرة ، وتجارة ممدودة فى الدر والياقوت والمسك  
والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفل والحديد والحريز القصب  
والتحف والسجاجيد والسيوف ، إنها أرض اليمن أرض الخير والبركات .  
وفى قبيلة دوس فى أرض اليمن كان الناس يطوفون بصمم ذى الكفين  
وكان لعمر بن حنمة الدوسى ، وكان الإله العظيم الذى تقدم إليه القرابين  
والصلوات وترفع إليه الالبتهالات والدعوات ، وكان بين الطائفتين العليل  
ابن عمرو الشاعر الشريف الغنى الذى فتح أبواب داره للضيغان ، وأبو  
أزهر الدوسى الذى خطب ابنة الوليد بن المغيرة أخت هاشم بن الوليد  
وخالد بن الوليد والذى ربط بهذه المصاهرة الأسباب بين دوس وبين حمى  
من أعظم أحياء قريش ، فبوا محزوم قد تساوى على الركب مع بنى هاشم  
وبنى أمية ، وقد اشتعلت بين تلك الأحياء المنافسة على شرف زعامة أهل  
الحرم ، وإنه نجد عظيم قد جلبه أبو أزهر لقبيلته بتلك المصاهرة الكريمة التى  
تتوق إلى مثلها كل قبائل العرب .

وكان إلى جوار أنى أزهر صديقه الحميم سعد بن صبيح بن الحارث بن سالى بن أنى صعب بن هُبة ، وقد تعلقت عيون الناس بالطفيل وأنى أزهر وابن هُبة أشراف دوس وساداتها وأصحاب الأموال وأهل الذكر من بنينا .

وكان بين الطائفتين شاب فقير آدم بعيد ما بين المكبين دو صغيرتين أفرق الثنتين لا يلتفت إليه أحد ، إنه عبد شمس ابن أخت ابن هُبة ، ولو قال كل العرافين والمنجمين للناس إن ذلك الشاب الفقير الذى يرعى غم أهله والذى يقاسى شطط العيش سيصبح أشهر أهل دوس ، بل أشهر أهل اليمن جميعا لما صدقوهم .

إن عبد شمس وجد هرة وحشية لما كان صبيا فأحد أولادها وعاد إلى البيت ووضع أولاد الهرة فى حجره وراح يداعبها ويخو عليها ويطعمها ، ومر أبوه به فقال له :

— ما هذه فى حرك ؟

فقال عبد شمس فى فرح :

— أولاد هرة وحشية .

ووقف أبوه ينظر إلى حذب ابنه على الهريات الصغيرة وعنايته بها وصبره عليها ، فقال له وهو مطلق إلى حجرته :

— أنت أبو هرة .

وغست كنيته على اسمه فعرف فى دوس كلها بأبى هرة ، وراح أبو هرة يمضى وقته فى رعى النعم مع أخيه كُريم ، ويلعب أحيانا مع ابن عمه أنى عبد الله الأغر ، حتى مات أبوه وهو صغير مشب يتيم لينصهر فى بوتقة الحزن ويعتزل الناس ويعود إلى نفسه ، استجماعا لشتات ذاته وامتلاكا

نرمام أمره لكي يريد في خصب حياته الباطنية وبصاعف من ثراء عالمه الداحلي ، حتى إذا ما بلغت أذنيه الدعوة إلى الله كان معدا إعدادا نفسيا للتصديق والهجرة إلى الله ليرغمي بكل كيانه في أحضان الدعوة الجديدة . وأتم الطفيل بن عمرو سيد دوس وشاعرها ، وأبو أريهر صهر بني مخروم ، وابن هنية صديق أبي أزيهر الحميم مناسكهم ، فابتعدوا عن بيت ذي الكفئ وهم يتحدثون في أمر دينهم ، فما كان الدين في أعماق ضمائرهم فهم يمارسون ما وجنوا عليه آباءهم عاكفين .

كان الحديث يدور حول سفر أبي أزيهر إلى مكة لزيارة بيت الوليد بن المعيرة ، وكان الطفيل سعيدا بخطبة أبي أزيهر لبنت الوليد فأحوجها خالد هو فائد فرسان قريش له الأعنة وله القبة التي يضربونها إذا ما تأججت بيران الحرب ليجمعوا إليها ما يجهزون به الحيش ، فمصاهرة دوس لبني مخزوم سترفع من شأن دوس بين قبائل اليمن . وكان ابن هنية متهلل الأسارير فراح صديقه من قرشية سيمتحن له بيوت سادات أهل الحرم وأشراهم ، فراح يتحدث عن تلك الريجة في انفعال وحماس لا يقل عن حماس الطفيل ، بينما كان أبو أريهر صامتا يتظاهر بالإصغاء إلى الصديقين العزيزين وإن كان مشغولا عهما بالأفكار التي استولت على رأسه واستبدت به .

واطلق أبو أزيهر إلى مكة فلما بلغها راح يطوف بالحرم . ثم اتخذ سبيله إلى دار الوليد بن المعيرة فألقى هناك الوليد وهاشم بن الوليد وخاند بن الوليد وأبا الحكم بن هشام بن المعيرة ( أبا جهل ) وسادات بني المعيرة وبني مخزوم . فما إن وقعت أعين القوم عليه حتى خفوا إليه يرحبون به أجهل ترحيب .

وانتقل إلى حيث كان النسوة مجتمعات في الدار خبر وفود أبي أزيهر

فأشرقت الوجوه واتجهت الأبصار إلى العروس بنت الوليد فأطرقت  
حياء ، فقامت إليها أسماء بنت مخزوم أم أبي الحكم بن هشام تطيبها بأفضل  
ما عندها من أنواع الطيب ، وتحدثها حديثاً رقيقاً عن الدوسى القادم من  
اليمن بأموال قومه ليدفع مهر العروس الحميمة سيلة بى المعيرة الأجماد .  
ومر الوقت وطال السمر ولم يفتح أبو أزيهر فمه بكلمة عن المهر الذى  
وعده بدفعه لبنت الوليد فرأى على المجلس قلق ، وبلغ ذلك القلق عايته لما  
هبط أبو أزيهر مستأذناً إلى الانصراف دون أن يرد ذكر المهر على لسانه ،  
فاستشعر بنو المعيرة بطعم الإهانة إلا أنهم تحموا على مصص .

وبعيداً عن أهل البيت خلا هاشم بأبيه وقال فى ثورة وعصب ، إن  
مما طلة أبى أزيهر فى دفع مهر أخته إهانة لهم ، ولو ذاع ذلك الخبر بين الناس  
سال من كرامتهم ، وإن الأمر أصبح يستدعى وضع حد لهذه المهانة . هراح  
الوليد يعمل جاهداً على إخماد ثورة ابنه ، وإن كانت نر العضب تدلع فى  
صدره وتوسع أفكاره .

وتصرمت أيام وأبو أزيهر يعلن ويروح بين دور بى محزوم والحرم  
ومجالس سادات قريش ، وبنو المعيرة يسألونه أن يدفع المهر الذى اتفقوا  
عليه وهو يعد ولا يعمد شيئاً مما يعد به ، فيرداد هاشم بن الوليد حقاً على  
حق ، وهمس الناس فى مكة أن أبى أزيهر الدوسى يماطل فى دفع مهر بنت  
الوليد بن المعيرة ، وارتفع الهمس حتى صار حديث الوادى والسمار ،  
وترامى ما يتندر به القوم إلى مسامع هاشم فرأى اعصب على قلبه  
وانسندت أسجاف الحقد على بصيرته ، فانطلق كالعاصفة إلى حيث كان  
ذلك لدوسى الذى جعلهم سحرية فى أهواء الناس .

واحتدم النقاش العاصب بين أبى أزيهر وهاشم ، وملاً الحق قواد هاشم

فأعشى بصره وعقله واستولت عليه فكرة واحدة . إن ما لحقهم من إهانة لا يفسله إلا دم من دفعه طيشه إلى الحرأة عليهم ، فاستل سيفه وطعن به أبا أزيهر فأرداه قتيلًا ، وفي مثل لمح البصر ذاع في مكة خبر مقتل هاشم لأبي أزيهر الدوسي ، وفي لحظات كان سادات قريش يدرون قداح الرأي بينهم ليروا لهم رأيا في تلك العداوة التي شبت فجأة بين قريش ودوس بعد أن أصبح بين القبيلتين ثأر .

كان تجار قريش في السراة ، وهي صقع بالشام بين دمشق وثرثب . لا علم لهم بالثأر الحديد الذي سيجعل كل قرشي مطبوعا لدوسي ولو لم يشترك في دم أبي أزيهر ، فكان على أشراف قريش أن يبعثوا أوطاة بن سيحان حليف حرب بن أمية ، وأن يعجنوا بذلك وأن يحثوه على الإسراع ليلعلمهم الرسالة ليأخذوا حذرهم قبل أن يصل السأ إلى الدوسيين فيعمسوا حناجرهم في قلوب القرشيين العافيين .

ورأى حاجر الأزدي ما نزل بسيد من سادات قومه فراح يسابق الريح ليحبر أهله بالرزء الفادح . وكان سباقا رهيبا بين أوطاة الذي كان مع أبي أمية كواحد منهم وبين الأزدي . سباقا بين الحياة والموت ، وقد أحس أوطاة أن أرواحا بريفة معلقة بأرجل راحلته فراح يستحثها على العدو دون رحمة أو شفقة .

وبلع أوطاة السراة وقد نال منه الجهد وكادت راحلته تموت من التعب ، وما أسرع ما انطلق إلى تجار قريش يقص عليهم قتل هشام بن الوليد أبا أزيهر ويحذرهم عذر الدوسيين أخذا بثأر من قتله هشام لمطله إياه بمهر أخته .

ونجا تجار قريش الذي كانوا في السراة ولكن ابن هنية صديق أبي أزيهر

كان لا يأخذ أحدا من قريش إلا قتله بأبي أزيهر الدوسى ، ورأى أبو هريرة  
مقت خاله للقرشيين فنزل في قبه بغضهم ، وقد قر في صميره أن هذه  
البعضاء قد سكنت سويداء قلبه وأن الزم يعجز عن أن يغسل ذلك اغل  
الذى يملأ صدره ، ولم يخطر له على بال أن قرشيا أو شك أن يصطفيه الله  
ويبعثه رحمة للقبائل بن للناس جميعا ليظهر القلوب من البغضاء ويؤلف  
بينها ، وأن أبا هريرة الخاقد سيكون بعسل من الله من أتباعه المقربين الذين  
يحدون في قربه غذاء للروح وبراسا للعلم الصادق والحكمة العالية .

ألفان ومخمسمائة بعير أناخت حارح الحرم والرجال يغدون ويروحون بين دورهم ودار أئى سفيان ، فمكة كلها تتأهب لرحلة الصيف التى ستطلق إلى الشام وعلى رأسها سيد بنى أمية ، وقد جاء إلى أم القرى تجار ثقيف يقودهم أمية بن أئى الصلت صديق أئى سفيان الحميم ورفيقه فى السفر .

وراح معاوية بن أئى سفيان يمشى إلى حيث جلس أبوه بين سادات قومه وأمه هددت عتبة ترقبه وقد رقت على شفتيها ابتسامة رضا ، وسرعان ما شردهنها لترى نفسها فى دار الفاكه بن المغيرة زوجها الأول لذى جرح كبرياءها جرحا لا تساه .

كان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت للضيافة بارز يعيشه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهدد فيه ثم هض لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كانوا يغشون البيت فولحه فلما رأى هندا رجع هاربا ، وأبصره الفاكه فأقبل إليها فركلها برجله وقال :

— من هذا الذى خرج من عندك ؟

— ما رأيت أحدا ولا انتهت حتى أنبهتني .

— ارجعى إلى أمك .

وارتحفت هند وهى فى مكانها فى بيت أئى سفيان من الرأس إلى القدم ، فذلك الذكرى كلما هاجت تخزها وحزأ إليها . وحاولت أن تطردها عن

رأسها وبكتها ألحت عليها وفرضت نفسها فرضاً ، وراح كلام الناس يدوى في أذنيها دويًا مفرعًا يكاد يمزق أعصابها وإن مضى على ذلك ثمان سنين . وعلا صوت أبيها حتى عطى على كل صوت :

— يا بنية ، إن الناس أكثروا فيك فأبشئ بنبك ، فإن يكن الرجل عليك صادقاً دسست عليه من يقتله فتقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن .

— لا والله ما هو على صادق .

— يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم ، محاكمتني إلى بعض كهان اليمن .

ورأت هند نفسها في نسوة والماكة في جماعة من بني مخزوم وعتبة في جماعة من عبد مناف ، والقافلة تنطلق إلى اليمن حتى إذا شارفوا البلاد قالوا :

— غدا نرد على الرجل .

ورن في أذنيها صوت أبيها وقد سمع عن الريية :

— إني أرى ما حل بك من تنكر الحال وما ذاك إلا لمكروه عندك .

— لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه ، ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً

يعطى ويصيب ولا آمه أن يسمى ميسماً يكون على سبة .

— إني سوف أختره .

فصفر عتبة بن ربيعة بهرسه حتى أدلى . ثم أدخل في إحليله حبه بر وأوكأ عليها بسير ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم وحر لهم ، مما قعدوا قال له عتبة :

— جئتاك في أمر وقد خبأت لك شيئاً أحترق به ، فانظر ما هو ؟



— ثمرة في كمره .

— إلى أريد أبين من هذا .

— حبة في إحليل مهر .

— صدقت . انظر في أمر هؤلاء النسوة .

فجعل يذبو من حذاهن فيصرب بيده على كتفها ويقول :

— انهضى .

حتى دنا من هند فإذا بها تكاد تموت رعبا ، فشرها قد بات معلقا  
بكلمة تخرج من بين شفتيه فقال لها :

— انهضى غير رائية ، ولتلدن ملك يقال له معاوية .

وتهللت أساريرها وهي في مكانها تنبو إلى معاوية ، ورأت في وضوح  
على صفحة دهنها الفاكه وهو ينهض إليها فيأخذ بيدها وهي تشر يدها من  
يده وتقول :

— إليك عنى ، هو الله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك

كانت لحظة قاسية لكأنها دهر سرمد ، ترى ماذا كان مآلها لو أن الرجل  
أخطأ . وانتهت من ذلك الكابوس الذى ران عليها على أصوات الرجال  
المقبلين المدبرين ، فألفت رجلا يتعمرس في وجه معاوية فصوبت إليهما  
بصرها وكل حواسها ، فالتقطت أذناها قول الرجل :

— إن هذا الفتى سيسود قومه .

فردت هند على الرجل في حدة :

— نكلته أمه إن لم يسد إلا قومه .

كانت أحلام هند عريضة ، وكانت ترجو لابها ملكا كملك كسرى  
أو قيصر ، فراحت تث فيه التطلع إلى السيادة وتوسع آفاق حبه  
( دعوة إبراهيم )

للسيطرة ، وما كانت هند بدعا بين سيدات قريش ، فأمر الفضل بنت الحارث الهلالية زوج العباس كانت ترقص وبدها عبد الله بن عباس قائلة .

ثكلت نفسي وثكلت بكسرى

إن لم يسد فهسرا وغير فهسر

بالحسب العد وببدل الوفير

حتى يوارى في ضريح القبر

وجاء الليل وماج الناس بعضهم في بعض ، وجلست صاحبات الرايات الحمر لاستقبال الرجال : سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وعناق صديقة دلدل ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عيط جارية صفوان ابن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ، ومريه جارية مالك بن عميلة ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخرومي ، وقرينا جارية هلال بن أنس بن جابر ، وعاص المكان بتجار المساد وجند الشيطان والباحثات عن الذهب .

وأقبل أبو سفيان وإلى جواره صديقه العزيز أمية بن أبي الصلت الطامع في النبوة ، يحف بهما سادات قريش ، فلما وقعت أعين الناس على سيد بني أمية ساد المكان سكون وأرهفت الآذان ، فإذا بصوت أبي سفيان يجلجل إيذاناً بالرحيل ، فكثر العاق واشتد وجيب القنوب في الصدور وانهمرت الدموع من العيون ، وتحركت آلاف الرواحل وراح الفرسان يجرسون قافلة أبي سفيان فبدأ كأن مكة كلها قد خرجت إلى الشام .

وانطلقت القافلة في معبد الله وأبو سفيان يصدر أوامره ، وأميه بن أبي الصلت هائم في الوجود يقلب وجهه في ملكوت السموات والأرض ويحتد في الوصال بالددت العلية التي يطمع في أن تبعثه هاديا ومبشرا

ونديرا . ونزلت القافلة منزلا فلم يعتزل أمية قومه ليأس بربه ويأخذ في ذكره ليسعد بجلاء قلبه فتكشف له أكثر الحقائق بكشف الهى ، بل أخذ سمراله يقرؤه على أصحابه فقد كان أمية يحصل العلوم من الكتب ، فصار محجوبا عن الله باعتقادات تقليدية جمدت في نفسه ورسحت في قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فلم يورثه الله عدم ما لم يعلم . واستأنفت القافلة رحلتها وأميه يفكر فيما قرأه في الكتب ، فلم يتصل بالله ولم يفتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وحجبت عن قلبه أوار العلوم ولم تتجل فيه حقيقة الحق في كل الأمور ، فرعبته الجائحة في السبوة لبيته بها على الناس حالت بينه وبين أن يصفو قلبه لله وحده ، فمنعه الله من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته والتعرض لفحاته المذولة بحكم حوده وكرمه ، فالقلب مقبول من الله إذا سلم من غير الله ، فمن كان لله كان الله له .

واستمر أمية يقرأ الأسفار على أصحابه كلما نزلوا منزلا في الطريق حتى نزلوا قرية من قرى الصارى ، فجاء بعض الرهبان إلى أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، ثم التفت إلى أبي سفيان وقال :

— هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتأهى علم الكتاب تسأله ؟

لم يكن أبو سفيان مهتما بالتبوعات التي شعلت أذهان المترقيين للبعثة ، وما كان من المهتمين بالإرهاصات الدالة على قرب ظهور النبي المنتظر فقال في عدم اكتراث :

— لا إرب لى فيه . والله لى حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولكن حدثنى

بما أكره لأجدن منه .

فذهب أمية في مسوح الرهبان ليسأل ذلك العالم عما شغفه ، وليعبد الله مع الرهبان لعل الله يستجيب لدعائه ويبعثه هاديا إلى قومه ويحقق رجاءه ، وخالفه شيخ من النصارى فدخل على أنى سفيان فقال :

— ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

— لست على دينه .

— لكن ذهبت إليه لتسمعن عجبا !!

وصمت قليلا ثم قال لأنى سفيان :

— أثقنى أنت ؟

— لا ، ولكن قرشى .

— فما يمنعك من الشيخ ؟! فوالله إنه ليحييكم ويوصي بكم .

وخرج النصارى من عند أنى سفيان ، ومكث أمية عند أصدقائه النصارى حتى جاء قومه بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم اجدل على فراشه ما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حريبا . ترى ماذا قال له العالم الذى تناهى إليه علم الكتاب حتى راد عليه ذلك الحزن وتلك الكآبة ؟

وانقصى الليل وما يكتم أمية أصحابه ولا يكلمونه ، ثم التفت إلى أنى سفيان وقال في نهرم :

— ألا نرحل ؟

— وهل بك من رحيل ؟

— نعم .

فرحلوا فصاروا ليلتين وأمية صامت لا ييس بكلمة ، وظل شارد تفكر حتى إذا ما كانت الليلة الثالثة التفت إلى أنى سفيان وقال :

— ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

— وهل بك من حديث ، والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك .

— أما إن ذلك لشيء لست فيه ، إنما ذلك لشيء وجلت منه من مقلى .

— وهل لك من منقلب ؟

— إى والله لأموتن ثم لأحيين .

فالتفت إليه أبو سفيان وقال فى سحرية :

— هل أنت قابل أمانتى ؟

فقال أمية دور أن يقطن إلى رنة الهرء البادية فى صوت أبى سفيان :

— على ماذا ؟

— على أنك لا تبعث ولا تخاسب .

فضحك أمية ضحكة مريرة ثم قال :

— بلى والله يا أبا سفيان لبعثن ثم لحاسن وليدخل فريق الجنة وفريق

فى النار .

— ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

— لا عزم لصاحبى بذلك لا فى ولا فى نفسه .

ومضت ليلتان والحوار دائر بين الصديقين ، أمية يعجب من أبى سفيان

الذى ينكر البعث والحساب وأبو سفيان يضحك منه ، حتى قدمت

القافلة عوطة دمشق فباعوا متاعهم ، وأقاموا بها شهرين فارتحلوا حتى رلوا

قرية من قرى النصارى . فلما رأى الرهبان أمية بن أبى الصلت جاعوه وأهدوا

له وذهب معهم إلى بيعهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبين

وذهب إليهم حتى جاء بعد هداة من الليل فطرح ثوبه ورمى بنفسه على فراشه فما نام ولا قام وأصبح حزينا كئيبا لا يكلم أصحابه ولا يكلمونه .  
وعجب أبو سفيان فظالما خرج مع أمية ولكنه لم يجده مهموما مثل ما وجده في هذه الرحلة ، ترى ماذا يقول له أصحابه الرهبان وفيهم يتحدثون وما الذي يجعله يعود من عندهم حزينا كئيبا ؟

وقال أمية لأبي سفيان :

— ألا نرحل ؟

— بلى إن شئت .

فرحلوا وأمие شارد حزين بضيق صدره بما سمع من الرهبان ، فلما انقضت ليالي لم يستطع صبرا على الأفكار التي تدور في نفسه فقال :

— يا أبا سفيان هل لك في المسير لتتقدم أصحابنا ؟

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا حتى برزا من أصحابهما ساعة ثم قال أمية :

— هيا صخر .

— ما تشاء ؟

— حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

وأحسن أبو سفيان أن ذلك الحديث تنفيس عن الأفكار التي تدور في رأس أمية والتي ولدتها خلوته مع أصدقائه النصارى الذين كان على دينهم ، فقال :

— إى والله .

— وكريم الطرفين وسط فى المشيرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أعوج هو ؟

— لا بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد زاد على المائة .

فقال أمية فى أسمى :

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

فقال أبو سفيان فى عجب :

— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يريد خيرا .

فقال أمية فى ثقة :

— هو ذاك .

وصمت قليلا ثم قال :

— هل لك فى الميت ؟

— لى فيه .

ونزلوا منزلا وباتوا فيه ، وأبو سفيان يفكر فيما قال أمية ويحاول أن يحيط اللثام عن حديث صديقه دون جدوى فما كان بقادر على أن يفهم أن الشرف والسن والمال تزرى بإنسان ، حتى إذا ما لاحت الشمس فى الأفق الشرقى ارتحلوا ، فلما كان الليل قال أمية :

— يا أبا سفيان .

— ما تشاء ؟

— هل لك في مثل البارحة ؟

كان أمية متلهفا على أن يخلو بصديقه يناجيه ويثبته حزنه ويفصح عن بعض ما يجول في خاطره لعله يقضي على ذلك القلق الذي استبد به مد سمع من الرهبان ما سمع ، فقال أبو سفيان :

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا على ناقتين نجيبتين حتى إذا برزا قال أمية :

— هيا صحر . هيه عن عتبة بن ربيعة ؟

— هيا فيه .

— أيجنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

واتسعت عينا أبي سفيان دهشة ، فما بال صديقه يكرر ما قاله من قبل ؟ إن في رأسه أشياء لا يريد أن يفصح عنها ولا يقوى على كتابتها ، أشياء أقلقته وأطارت الطمأنينة من فؤاده ، بل لعلها حطمت أملا عظيمًا من آماله ، وقال في انتباه :

— إى والله إنه ليفعل .

— وذو مال ؟

فقال أبو سفيان وهو يحاول أن يستشف ما وراء ذلك الخديث :

— وذو مال .

— أتعلم قرشيا أسود منه ؟

— لا والله ما أعلم .



— كم أتى له من السن ؟

وزاد عجب ألى سفيان فقد أنبأه بذلك من قبل ، ولكنه رأى من الخير أن يجاريه حتى يكشف عن خواطره فقال :  
— قد زاد على المائة .

— فإن السن والشرف والمال أزرين به .

— كلا والله ما أررى به ذلك ، وأنت قاتل شيئا فقله .

فقال أمية في شرود :

— لا تذكر حديثي يأتي منه ما هو آت .

وأطرق برهة ثم قال :

— فإن الذي رأيت أصابني أتى حجت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم

قلت : أخبرني عن هذا البهي الذي ينتظر ، قال : هو رحل من العرب .

قلت : قد علمت أنه من العرب ، فمن أي العرب هو ؟ قال : من أهل

بيت تحجه العرب . قلت : وفيما بيت تحجه العرب . قال : هو من

إخوانكم من قريش .

وأحس أمية أن صوته يتهدج وأن مرارة ملأت فمه ، عصمت قلبا ثم

قال :

— فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط ، وخرج من يدي فوز الدنيا

والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه ... قلت لعالم : فإذا كان ما كان

فصمه لي . قال : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بُلُو أمره يجتنب

اعظام والمخارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين

متوسط في العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟

قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة

كلها فيها مصائب ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

فقال أبو سفيان في حدة :

— هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مستأ شريفا .

— والذي حلفت به إن هذا لكذا يا أبا سفيان تقول إن قول النصراني

حق ، هل لك في البيت ؟

— نعم . لي فيه .

فباتوا ثم خرجت قافلة أبي سفيان قاصدة مكة ، حتى إذا كان بينهم وبينها

مرحلتان ليلتان ، أدركهم راكب من خلفهم فسأله فإذا هو يقول :

— أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها ، وأصابهم فيها

مصائب عظيمة .

فأقبل أمية على أبي سفيان فقال :

— كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان ؟

فقال أبو سفيان وقد نظر في شروء :

— أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق .

وخرج أهل مكة لاستقبال القافلة العائدة من الشام ، وكثر العناق

واشد وجيب القلوب في الصدور وانهمرت الدموع من العيون . والتقى

أبو سفيان وأمية بن أبي الصلت بمحمد بن عبد الله ، ولم يخطر لهما على قلب

أن ذلك الرجل الشاب حين دخل في الكهولة ، الذي يجنب المظالم

والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، هو النبي المنتظر .

كان البيت غارقاً في الصمت وخديجة وفاطمة وعلى لاذوا بالسكوت ،  
فرب البيت محمد بن عبد الله في غرفته يناجي ربه ، وأم أيمن في الطبقة  
الأولى من الدار ترعى شئونها ، وخرج زيد بن محمد إلى الحرم ، وانطلق  
هند بن أبي هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش إلى بعض شئونه .

وكانت خديجة في سرور روحي فياض ، فهي ترى بعين بصيرتها أن  
أنواراً تفيض في دارها كأنما تنسكب من السماء ، أنواراً تتألق في الليل  
والنهار تبهر أنوار الشمس التي رأتها في منامها تبهط من السماء لتستقر في  
دارها قبل أن تتزوج أبا القاسم ، وقد صارت تشم روائح زكية يفوق  
أريجها كل ما في الأرض من طيب وعطر ، إنها عطر بعش الروح وينزل  
بالنفس نشوة صافية سرمدية تشرح الصدر وتملأ الجوانح بالرحمة .

وكانت تحس أن شيئاً غامضاً مثيراً يفت في روعها أنها مقبلة على أروع  
أهم حياتها ، وأن أنوار اليقين تشرق في قلبها فتبدد عن سمائه كل السحب  
التي كانت تربطها بالدنيا حتى لتكاد أكثر الحقائق أن تنكشف لها ،  
وكانت تفعم بمشاعر نبيلة كلها روحانية تتطفر الدموع من مقلتها شكراً لله  
على أن خصها بلطفه ورحمته .

ووقعت عينا خديجة على ما في دارها من فاخر الرياش ولتحف النادرة  
التي استوردت من الشام ومصر والعراق وفارس فلم تحمل بالطرف الغالية  
والعرف الذي ران على المكان ، بل زهدت في كل متاع بعد أن تعلمت في

مدرسة أى القاسم أن المال يأكل نفسه وأنه لا يفرح به وأن قيمته فى قدر الحاجة إليه ، وأن الكنز الحق هو كنز صالح الأعمال ، وأن التفرح فى الله هو نبع السعادة الذى لا ينضب بل يربو ويرداد كلما نهل منه لناهلون . كانت أموالها ممدودة ولكنها كانت زاهدة فيها ، فأبو القاسم قد غرس فيها حب الإنفاق وأن تكون كل حرركاتها وسكناتها لله لا تريد بها إلا وجهه ، فقادها إلى ينبوع الفرح الصافى فصلحت نيتها فى الأخذ والترك والإنفاق ، وعرفت السعادة الحقبة بالقرب من الله وتعريض قلبها لصفحات رحمته .

لقد مضت خمس عشرة سنة وهى فى كنف أى القاسم تبدلت فيها نظرتها إلى الحياة والكون وما وراء الطبيعة ، فبعد أن كانت تتهلل بالفرح كلما عادت قوافلها بالأرباح رهدت فى هذه المادية ابطاغية بعد أن ذاقَت حلاوة رغبة الروح فى الملكوت ، والفرح الفياض فى الجهاد المجتصح للاتصال بذات النوات ، والاستبشار بصفاء القلب وتركيبته وجلالته وإشراق أنوار المعرفة فيه .

كانت فى حيرة فى عاداتها قبل أن يعرف النور طريقه إلى دارها ، فقد تفتحت عينها أول ما تفتحت على عبادة الأصنام وتقديس اللات والعزى ومناة وهبل وممات التماثيل المكدسة فى الكعبة ومن حولها ، ثم لما تزوجت من هند ابن أبى هالة بن زرارة التميمي عرفت الشيء الكثير عن عبادة تميم وكانوا يدينون بالجهومية ويعبدون النار ، ولما كفر ابن عمها ورقة بن نوفل بدين قومه واعتنق النصرانية كانت تلقى إليه سمعها وهو يحدثها عن إله بنى إسرائيل ورب المسيحيين فكانت مشتتة الفكر ليس لها قرار . حتى إذا ما جاء ابن عبد الله إليها بدد كل الشكوك وبذر فى عين ذاتها بذور الإرادة

والإخلاص ، وراح يدرّبها على السير في طريق الله والتماس بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل فيه وأمن لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكال لا نقصان فيه ، فأصبحت تستشعر أن عالمها أوسع من العالم الأرضي ، وأن مملكتها أعظم من كل الممالك . وأن استدراج لطائف المعارف من خزائن الملكوت خير وأبقى من الأموال المكنوزة و رينة الحياة الدنيا .

وسمعت خديجة وهى فى مكانها صرير باب فانتهت فقد انتهى أبو القاسم من صلاته ، وعرفت فاطمة الرهراء أن أباهما الحبيب قادم فأشرق وجهها بالبشر ، ولاح على وجهه على بن أبى طالب الانشراح فقد كانت أسعد الأوقات تلك الساعات التى يمضيها رب البيت مع من فى البيت يفيض عليهم من حنايه وعلمه وحكمته .

وأقبل محمد على أهل بيته وهو يتسم ، فرأت خديجة فيه هالة من نور تزداد تألقا على مر الأيام حتى لتكاد أن تفيض على مكة وتملأ الآفاق . ورأت فيه فاطمة جوهر الختان وينبوع الحب فهرعت إليه رقيقة كالنسيم طاهرة كالندى متفحة كزهرة الربيع ، ففتح لها دراعيه فارتمت فى أحضانها فرفعها بين يديه وقبلها قبله رقيقة لكأنها دوب نفس لطيفة لبها الرحمة والصفاء . ورأى فيه على الوالد الحنون والقُدوة الصالحة والأسوة الحسنة ومدينة العلم التى ينهل منها ما يشاء كيفما يشاء وأنى يشاء ، ففتح نفسه وقلبه وعقله لأنوار المعرفة والحكمة المتدفقة من بين شفتى ابن عمه الكريم .

وحلسوا ترفرف عليهم البركات وترعاهم عناية السماء ، فهم فى حرّ كاتمهم وسكّاتهم يجاهدون فى الله ليهدىهم الله سبيله ، يعيشون مع الله آناء الليل وأطراف النهار حتى صارت قلوبهم تخفق بذكر الله ، فقد صبروا فى

الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وذكروا الله فذكرهم الله .

كانت دار حديجة في صاهارها إحدى دور مكة التي تحيط بالحرم ، ولكها كانت في حقيقتها دارا تختلف عن كل ما حولها . فدور أم القرى مشدودة إلى الأرض عارية في العلومات وإن استسكنت من موافقها أنوار النهار ، بينما كانت هي محددة إلى السماء تشرق فيها أنوار تهر الوجدان ونير الأقدسة على الدوام .

وحص أبو القاسم يدور على دور بني هاشم وبني رهرة ويזור بناته قبل أن يعتكف في عار حراء طوال شهر رمضان يتحسب ويأنس بربه ، فهو يصل رحمه ويعرف للقرابة حقها ، وهو يحب أن يشب ابن عمه الذي ينرى في رعايته على صمد لأرحامه . فأخذ عليا معه وانطلق إلى دار أبي طالب .

واستقبل محمد في الدار التي تكلمت به صبيبا أحسن استقبال ، وأقبل على عمه وامرأة عمه فاطمة بنت أسد وبهاء عمه عقيل وجعفر وطالب بكل عواطفه فهو بطبعه لا يسي فصلا لدوى العصل ، وقد وجد في أهل ذلك البيت من العطف والرعاية ما عوصه من موت أمة وفقد عيسد المطلب .

واستأذن محمد في الاصراف فالتفت فاطمة بنت أسد من على أن يمضي بهاره عندها مع إخوانه ، فأبى الصبي أن يفترق عن ابن عمه ولو ساعات فأبعد الأوقات ومنعها لروحه تلك الفترات التي يعيش فيها مع أبي القاسم يستأثر وحده بعدد حديثه وعرارة علمه وفيض حكيمته .

واطلقا إلى دار عمهما أبي هب فإدرا بامرأة عمهما أم جميل بنت حرب ابن أمية ترحب بهما وتشت هما ، وإذا بأبي هب يقبل عليهما

وقد أشرق وجهه بابتسامة صادقة ، فقد كان أبو لبب يحب محمدا حبا صادقا وكان حريصا على أن يزوج ابنه عنة ومعتب لرقية وأم كلثوم ابنتي ابن أخيه الأمين .

وهرعت جارية إلى حيث كانت رقية وأم كلثوم وقالت لهما : إن أباهما قد جاء لزيارتكما . فطارتا بجناح الشوق إلى حيث كان الوالد الحنون فصحبهما إليه في حب شديد ، وما لبث أن جاء عنة ومعتب ليسلما على أبي القاسم .

ودار حديث رقيق ورغفت السعادة على الجميع ، وكان محمد أكثرهم انشراحا واستبشارا فابنتاه العزيزتان تعيشان في دار عمه أبي لبب عيشة راضية ، وقد راد في سروره أن قرأ في عيسى ابني عمه حبهما لرقية وأم كلثوم .

وخرج أبو القاسم وعلى لزيارة رينب ، وقد داع في مكة خبر حب أبي العاص بن الربيع بن عبد العري بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي لابة حالته رينب بنت محمد ، فأبو العاص كان كثير السفر في تجارته ، وكان إذا هزه الشوق إلى امرأته راح يشد الشعر شوقا إليها ، وقد ردد الرواة قوله فيها :

ذكرت زينب لما وركت أر ما

فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله سالحة

وكل بعل سيئنى بالذى علما

وبينا كان محمد وعلى في طريقهما إلى دار أبي العاص إذا بفثى قصير دحذاح في السابعة عشرة من عمره قد جلس يبرى الليل ووقف عبد رأسه

حمزة بن عبد المطلب ، فالتقى محمد على عمه حمزة نخية طيبة ثم حدث الفتى حديثاً بترقرق بالحمية ، ولا عجب فقد كان الفتى سعد بن أبي وقاص ، وأبو وقاص هو مالك بن وهيب عم آمنة بنت وهب ، فكان محمد ينظر إلى سعد على أنه خاله ، فكل بسى حمزة أخواله .

وفى دار أبي العاص بن الربيع سعدت زينب بزيارة أبيها ، وسعد محمد بابتها وراده غبطه أن روح ابنته قد عرف في مكة بالأمين كما عرف هو نفسه بذلك من قبل . وراحت هالة بنت خويلد تسأل عن أختها خديجة وعن فاطمة الزهراء وعن الأعمام زينب ورقية وأم كلثوم ومحمد يمين وقد انفردت شعثاه عن الرقة ولاح في عينيه المحمرتين صفاء النفس .

وفيما كان محمد وأبو العاص وهالة وزينب وعلى آخذين بأطراف الحديث إذ أقبل نوفل بن حويلد ليزور أخته ، وسرعان ما جاءت صفية بنت عبد المطلب ومعها ابنها الزبير بن العوام بن خويلد لرؤية هالة بنت خويلد ففاضت القلوب بالرحمة ، وأحس نوفل بعطف صفية على ابها فتذكر يوم أن رأى صفية تضرب ولدها الزبير وهو صغير بعد أن قتل أبوه في حرب الفجار وتعلظ عليه ، فعاتبها في ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضيه . فمس أذنيه وهو في مجلسه قو لها له في ذلك اليوم :

من قال إلى أبغضه فقد كذب وإنما أضربه لكى يسلب ويهرم الحيش ويأق بالسلب ولا يكن لئاله خبء مخب  
ياكل ما في الظل من تمر وحب

كان حبل الوداد موصولاً بين محمد وقومه فهو يرور كل من كان بينه وبين بني هاشم صلة قرنى ، فإذا مرض أحد من بسى مخروم عادة فهو يذكّر أن حدثه أم أبيه عبد الله مهم ، ويفتح قلبه لآل عمان وبنيه فعمان تروج



أروى بنت عامر بن كزير ابنة عمته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب توم  
أبيه ، وقد قرب عثمان بن عفان إليه لدمائة حلقه وأماته التي اشتهر بها فصلا  
عن أنه ابن بنت عمته .

ولما مات عثمان تزوجت أروى عقبة بن أبى معيط فولدت له الوليد  
وعماره وحالدا وأم كلثوم ، فاتصلت الأسباب بييه وبين عقبة وآله .  
وكانت الصلات وطيدة بييه وبين بى هلال لأن أم الفضل بنت الحارث  
اهلالية روح عمه العباس منهم ، وبينه وبين بى كندة فى الطائف والحارث  
ابن كندة طبيب العرب كان روج حالته ، وقد مرض سعد بن أبى وقاص  
دات يوم مرضا فعاده أبو القاسم فقال : ادعوا له الحارث بن كندة فإنه  
رجل يتطب . فلما عاده الحارث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس ، اتخذوا  
له فريقة<sup>(١)</sup> بشيء من تمر عجوة وحلبة يطبخان . فتحساها فرى .

كان قلب محمد بن عبد الله كبير ايسع كل من كان بييه وييه صلة رحم مهما  
كانت تلك الصلة بعيدة ، وكل من أسدى إليه معروفا مهما كان ضئيلا ، فهو  
لا يسى أبدا حليمة السعدية التي أرصعته ، ولا ثوبية التي بشرت عمه أبا لهب  
بمولده ، ولا مرضعات بانه ولا حواصنهن ، ولا أى ممن اتصل به بسبب ، وكان  
عطفه سابعا عليهم جميعا فلا غرو أن أحبه كل من عرفه . ولو شاء أن يعيش فى  
سويداء قلوب قومه ناعم الببال يعم برغد العيش لوجد فى أموال حديجة ما يعنيه  
أبدا وما يرفعه إلى السؤدد والجاه والسلطان ، وفى حب الناس ما يرضى نفسه .  
وبكنه ما حلق للحياة الناعمة فقد اصطفاه الله ليجهد فى سبيل تبليغ رسالة  
ربه ، ويتحمل الألم والعذاب والاصطهاد وعداوات الدين كانت قلوبهم محقق  
بجه حتى يم الله نوره ولو كره الكافرون .

(١) تمر يطبخ بحلبة .

٧

أحدثت الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية وضع رعايا الدولتين من فداحة الضرائب ، فقد ذابت الأموال في الحروب الناشئة بين الرومان والفرس وكان على الناس أن يغذوا خزانتي الدولتين اللتين أصبحتا العدوة بينهما سمة العصر وحديث الدنيا .

ورفعت إشعاعات الثقافة الرومانية والثقافة الفارسية فلم يجد العرب ما ينهلون منه إلا قشور المعرفة ، وحسبوا أن الرقي موائد تمد وشراب وترف وهو غناء وقيان ورقص وقمار ، فراح سادات الغرب وأشرافهم يحاولون أن يقلدوا ما في البلاط الفارسي من ترف وما في قصور القسطنطينية وحوران وبصرى من الضلال ، فسرت الجهالة في مكة وفي كل القبائل في شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، وظهر الفساد في البر والبحر .

وبدا أن القبائل كلها تقاسى من طور المراهقة ، فلا سلطان لأحد على أحد محاولات دائبة للتححرر الاجتماعي والسياسي والديني من قيود شريعة القبيلة ، فكانت المجتمعات العربية تكابد انهيارا معمويا قد مهدت فيه النوازع والنواهي ، فمات الإحساس بالندم لا سخط على فعل سيئ ولا شعور بهار ، بل زهو بإتيان الفواحش وإهدار الكرامة الإنسانية وسفك الدماء البريئة ، وما بقيت بعض الفضائل إلا للزهو والتماخر .

وكانت حاسة الشرف تزجر بين صدورهم كالوحش الصارى وإن كانت كل فعالهم لا تمت للشرف ، فقد كانوا جميعا كالذئاب العادية

والوحوش النافرة يأكل بعضهم بعضا : السلب فضيلة ، والرجال  
الأحرار موثوقون في حلق الأسر ، والنساء الحرائر ينتزعن من أحضان  
بعولهن ليلهن بهن اللاهون ويتنقى بما وقع عليهن من اعتداء المغنون ويفخر  
بذلك المفتحرون ، فاعتصاب امرأة صار حديث السمار فهو يعد صربا  
من ضروب البطولة والزهو .

وكان الشعراء يفخرون بسى رجال قبائلهم لنساء أعدائهم ، فقد قال  
جرير يعير بى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :  
وبرحرحان غداة كُبل معبد

نكحت نساؤكم بغير مهـور  
وكانوا يعيرون نساءهم بأن الرجال لهم إليهن وسيلة ، فقد قال فارس  
الفوارس عترة لامرأته :

إن الرجال لهم إليك وسيلة  
أد يأخذوك تكسحل وتخصبى  
وأنا امرؤ إن يأخذوه عنوة  
أقرن إلى شد الركاب وأجسب  
ويكون مركبك القعود ورحلة

وابن النعمانة عند ذلك مركبى  
وكانوا يحاولون أن يفتخروا حتى بما فيه مهانة ، فقد حاول شاعر أن  
يزهو بأنه يجد في أثر السبايا المردفات على حقائب الإبل ليستقذهن  
بالعشى ، فقال :

وأوثق عند المردفات عشية  
لحاقا إذا ما جرى السيف مانع

فقيل له :

— ويحك ! وأى فخر أن تلحق النساء بالعشى وقد نكحن وامتهن ؟  
فلا عراية أن أصر أطلاطون على استبعاد الشعراء من جمهوريته .  
وكان الرواة يحدون لذة في سرد بوادر ما كان بين السبايا من نساء  
الأشراف وبين من سلبوهن ، وكانت قصة هند زوجة الحارث بن عمرو  
الكندى أكثر القصص ترديدا في المجالس والنوادي ، ففى كل سامر كان  
راوية يقول :

— سبى ابن هبلولة العسائى امرأة الحارث بن عمرو الكندى ، فلحقه  
الحارث فقتله وارجع المرأة وقد كان نال منها ، فقال لها : هل كان  
أصابك ؟ قالت : نعم ، والله فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين  
فرسين ، ثم استحضرهما حتى قطعها . وقال فى ذلك :

كل أنثى وإن بدا لك منها

آية السود حبها خيتعور<sup>(١)</sup>

إن من غره النساء بـود

بعد همد لحاهل مـرور

وكانوا يعمون بحرية شخصية ولا يعرفون الحرية الاجتماعية ، تلعب عليهم  
الفطرة والطبع . وما كان منهم من يفكر كيف يرر هذا العالم الذى يعيش فيه  
إلى الوجود ، وما الخير وما الشر ، وما العدالة وما الظلم ، وما جراء العدالة وما  
الذى يردع الناس عن المعاصى ، وما الحمال وما الحب ، وما الغنى وما الفقر ،  
وما الحكمة وما الشجاعة ، وما العفاف وهل من مصلحة المجتمع أن ينظم

---

(١) الخيتعور : سيئة الخلق وكل ما لا يدوم على حالة

الخنس ، وما حقوق النساء على الرجال ، بل قبلوا حياتهم وسلموا بها سواء أكانوا أحرارا أم عبيدا ، أغنياء أم فقراء ، وإن لم يستمرثوها .  
وقد ألغوا الرئاسة العامة وعدوها لغوا ، وكل ما أخذته مكة من نظم الحكم في الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم أن جعلت لها مجلسا لشورى أشبه بالسياتو مجلس الشيوخ الرومانى عرف بشيوخ دار الندوة ، ولم يدخل تلك الدار إلا من بلغت سه أربعين عاما واستثنى من هذا الشرط بعض النوابغ من قريش كحكيم بن حزام وعمر بن هشام (أبى جهل) ، ومن عجب أن محمد بن عبد الله لم يكن من المرشحين ذات يوم ليكون من حكماء دار الندوة فقد حببت إليه العزلة ليسأى الله به عن شرورجمعه ، ولبس حرا طليقا من معتقدات قومه فى طريق رسالته .

وورع شرف الرئاسة على بيوتات قريش ، فكانت الرفادة والسقاية فى قريش وكان صاحبها العباس بن عبد المطلب ، وكانت راية قريش « العقاب » فى بيت من بيوت شرفهم العشرة فإذا وقعت حرب أخرجوها ، فإن اتفقوا على أحد منهم أعطوه الراية ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ، وكانت هذه الوظيفة من حصائص بنى أمية وكان صاحبها أبو سفيان بن حرب .

ولم تقف آمال أبى سفيان عند شرف حمل راية قريش عند الحروب بل كانت أطماعه تمتد إلى أن يصبح سيد مكة غير مزرع ، بل حاكما على كل العرب كحليفه كسرى إن واته الطر وف ، فهو يرى بعينه الفاحصة أن مجد بنى هاشم فى أفول بعد أن وهن عظم أبى طالب واشتعل رأسه شيبا ، وثقل لسان الزبير بن عبد المطلب الذى كانت كل قائل العرب ترتجف فرقا من هجوه .

وكانت السدانة والحجابة وظيفه دينية وعلى من يتولاها أن يقوم بخدمة

بيت الله وحفظ مفتاحه ، وكانت في بني عبد الدار وكان صاحبها عثمان بن طلحة ، فكان عليه وعلى عشيرته تدبير كل الشؤون الاجتماعية داخل الحرم ، وكان عليهم أن يشرفوا على دار الندوة فهي في الحرم في دائرة اختصاصهم .

وكانت لمشورة أشبه برئاسة المجلس وكانت في بني أسد رهط خديجة بت خويلد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة بن الأسود . وما كان رؤساء قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فإن أعجبهم وافقهم عليه ولا تخير وكانوا له أعوانا .

وكان أبو بكر صاحب الأشراف وهي الدييات والمغارم ، وكان القرشيون يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أو دية ، وكان الهوض مع صاحب الحرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم ، فكان أبو بكر إذا نهض مع أحد ليجمع له صدقة الناس أعانوا من نهض معه وإن نهض غيره خذلوه ، فقد اشتهر أبو بكر بالصدق ومائة الخلق .

وأما القبة فهي أشبه بورارة الحرب وما كانوا يعمدون إليها إلا وقت الحرب ، فكانوا يضربون قبة يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم رهط خالد بن الوليد ، وكان خالد صاحبها وصاحب الأعة وهي رئاسة الفرسان .

وكانت السفارة في بني عدي وهي أن يمشي السفير للصالح بين حينين شبت بينهما بيران الحرب وتعاطم أوارها ، أو إذا نافر قريش حسي للمفاخرة ، وكان صاحبها عمر بن الخطاب الذي استطاع أن يمشق طريقه وأن يفرض نفسه على مجتمعه وهو لا يزال في شرح الشباب وربع عمره . وكانت الأيسار في بني جمح وهي الأرقام والقداح يصربون بها إذا

أرادوا أمرا ، وكانوا يؤمنون إيمانا صادقا بأن ما يخرج من الأرام أو القداح إن هو إلا رعه الإله ومشيتته ، فإذا جاء على غير هواهم قدموا القرايين للإله واستمروا في صرب القداح حتى يرضى ، وكانت آية رضاه أن يخرج القدح موافقا لهواهم ! وكان صمعون بن أمية صاحب الأيسار .

وكانت الأموال المحيرة وهي التي سموها لآلهم في بني سهم وهي أشبه بالأوقاف الخيرية ، وكان صاحب تولى الطر في هذه الأموال الحارث ابن قيس

كان هذا هو حال مكة ، قسم المخد في بيوت شرفهم العشرة ، قد آوى كل من أساء هذه البيوتات إلى ركن شديد من رهنه . فما كانت هناك شريعة مكتوبة ولا سلطة تأخذ الحق من القوى للضعيف وما كانت العدالة تصبغ على الجميع ، إذا سرق من لا حول له ولا قوة قطعوه وإذا سرق شريف تركوه ، وما كان للضعفاء من ملجأ إلا أن يرتفوا في أحضان بيت من بيوت القوة ينتمسون منه الحماية خشية أن يتحطمهم الناس ويهضموا حقوقهم ، وكان على من يقبل إحارثهم أن يعلن على الملأ أنهم في جواره وحمايته .

وكانت دار الندوة هي مركز السلطة في مكة ولكنها عجزت عن إبداع التنظيمات التي تستهدف مصلحة المكين جميعا سادة وعبيدا . وكان هم راحه الأوجد ألا يقوى بيت على حساب بيت من بيوت الشرف حتى لا يستأثر بالقوة وحده ويستبد بالسلطان ، وكانت بيوت الشرف جميعا راصية ما دامت أموال التجارة تتدفق إلى مكة ، وحمور الشام ترد في ركاب قوافل ، والخسد من مصر والشام والقسططبية والحيرة وفارس مردود على حقائب الإبل ، وعرق البغايا يدر على السادة المترفين الذهب

والفضة ونقود كسرى وقبصر .

كان الفساد قد ران على مكة بعد قرون طويلة من الغصب والدماء وقسوة القلب وتمريق أوامر الأخوة الإنسانية ، فدا أن ذلك المجتمع يحدر إلى الفناء لا أمل في انتعاضة ثقيله من سقطته ، ولا إرهابا بعودة الربيع إليه بعد أن أطبق عليه خريف عمره ووهى عظمه ، وقد رفع حنجر الضلالة ليطعن به قلبه .

وكان الناس يتدفقون من الدور ومن الدروب إلى دار أبنى سفيا لا يمكرون إلا في الأرباح التي تعود عليهم من بضاعتهم التي سيشترون بها في رحلة الشتاء ، فقد كانت قريش تنأهب للخروج إلى اليمن ، وكان أبو سفيا زعيم القافلة يأخذ ما عند الناس من سلع وأموال لقاء عمولة يتقاضاها مقابل ما يؤدي لهم من خدمات .

وكان الناس يمرون بدار خديجة ويعجبون ، ففي مثل هذه الأيام كان ميسرة يفتح أبواب مخارن خديجة يستقبل ما يأتي به المكيون من تجارة يبا يكتب الكتاب صكوكا بما تسلموا ، ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح وابتسامته الآسرة تشرق في وجهه ، والإبل تتقاطر من كل صوب وحده إلى در الظاهرة سيده نساء قريش ، مما بال السكون يحيم على المكان ؟ وما الذي رهد أهل البيت في البيع والتجارة بعد أن كانت قوافل الظاهرة تعدل قوافل مكة كلها ؟

حسب أناس أن خديجة بعد أن تزوجت ابن عبد الله وأنجبت منه ركت هي وزوجها إلى الدعة وآثرا السلامة فماتت فيها روح المغامرة ، وأنهما اكتفيا بما هما فيه من نعم . وقال أناس إن الشبحوحة قد دبت في ميسرة وإن خديجة لم تجد من تأتمه على أمواها بعده ، وإياها وإن كانت تزوج أمين



قريش فهمى لم تعد تطيق هراقه بعد أن صار السور الذى ترى به وعقل العقل وروح الروح . ولم يكن يدرك بحقيقة ما يدور فى ذلك البيت المبارك إلا نفر قليل ممن يعيشون فيه ، ومن صحابة أنى القاسم ومن صفوة أقرباء الطاهرة الذين كانت تفضى إليهم بما ترى من أمور روحها وما تسمع من روائع حكمته .

غرس محمد فى قلبه حديجة أن الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر فى الأموال والأولاد ، وأن كل ما لله فليس من الدنيا ، وراح يرفعهما من عالمها الأرضى إلى ملكوت السماء ، ويصمى فؤادها ويجلوه ليسعد بإشراق أنوار المعرفة فيه ، ويتذوق لذات روحية تفوق اللذات المادية التى يجلبها اللهو والتجارة ، فإذا بالحقيقة تتلألأ فى عين ذاتها ، وإذا بتجارتهما وأموالهما تهون فى سبيل نفحة من نفحات ربها أو جذبة من جذباته تمحص عليها سعادة لا تدوب ولا تنقشع ، بل تستقر حنوة سائغة فى أغوار نفسها وفى صميم وجدانها .

وباتت حديجة تنتظر حادثاً جديلاً بشرت به الأنبياء وفاضت به الكتب السماوية وتنبا به الرهبان والأخبار والكهان ، فكانت ترقب فى لفحة إشراق أنوار اليقين من دارها وتعد نفسها ويهيئها ربها لتكون حاضنة دعوته وناصرة رسوله وأول المؤمنين به المؤثرين له بأموالها وروحها بل وبفلذات أكبادها .

إنها أصبحت متفرحة فى الله تحب الله لذاته وتحب زوجها لأنه قادها إلى طريق الله وفجر فى قلبها كنوزاً من اللذات الروحية ما كان لها بها من علم . لذة المعرفة ولذة الإعناق لوجه الله وبذل كل بدل فى سبيل سعادة البشرية والتماس الكمال إرضاء لكمال الكمال .

كان البيت الذى يبدو لنا ظريفاً هادئاً ساكناً يسعد برعد العيش ويعم  
بكنور الأموال ، يبص بالجهد فى سبيل التحيق إلى ما وراء الكون وما  
هوى المادة ليهل من خزائن المنكوت بركات ورحمة ، ويتعرض لتفحات  
ربه فيرفرف فى عوالم المرح الفياض والسعادة الحقة .

وفتحت در خديجة وخرج منها رب البيت محمد بن عبد الله ، فانطلق  
يحمل تجارته إلى أنى سفياں سيد بنى أمية الخارج فى تجارة قريش إلى الشام  
لعل الله يجعل فيها حيزاً ، فأبو القاسم كانت له تجارته الخاصة ، فكان يرسل  
بصاعه إلى الأسواق ليعيش من حر ماله ويسد حاجاته — وما أقلها — مما  
يكسب ، على الرغم من أموال خديجة الطائلة .

٨

كان الظلام يلف الطائف وقد لاذ بوثقيف بدورهم ، وكان أمية بن  
أبى الصلت يقلب صفحات التوراة والإنجيل في فتور بعد أن سمحت نار  
حماسته لما قال له علماء النصارى إن السبي المنتظر من قريش ، وأنه يبعث  
في الأربعين .

إنه منذ ذلك اليوم وهو كتيب حزين ، فيا طالما جلس إلى نساء ثقيف  
وقال لمن سيرسل الله رسولا وهو يحس في أعماقه أنه ذلك الموعود  
والمنتظر ، وقد بات لا يدرى ماذا يقول لمن لو تحققت نبوءة علماء  
النصارى الذين انقطعوا للعبادة في صوامعهم وبيعهم وجاء نبي الأميين من  
قريش !

وراحت نار الغيرة والحسد تأكل صدره ويستشعر لسعها ألما في  
فؤاده ، فهو لا يجد في قريش كلها من يصلح في زعمه للرسالة إلا عتبة بن  
ربيعة ، ولكن نبوءة علماء النصارى تؤكد أن ذلك السبي فقير وعتبة عنى .  
وأنه في الأربعين وقد زاد عتبة على المائة . واشتد صيقه لما راح يقارن بين  
علمه وصفاته وبين علم كل من أشرفوا على الأربعين من القرشيين وأهليتهم  
للنبوة ، فلم يجد فيهم من أوتي الحكمة أو من يتمتع منهم بمثل ما يتصف به  
من مكارم الأخلاق وحسن الخلق .

كان حليف بنى أمية وكان رفيق أى سفيان في كل رحلاته ، وكان  
يعرف عن أى سفيان بخله وعهره . ولو لم يكن أبو سفيان قد جاوز

الأربعين لما خطر له على قلب ، فهو على الرغم من غناه ماجن لا يتجنب المحارم والمظالم ، وقد عجم أعواد كل رجال بنى أمية السائرين إلى الكهولة فلم يجد فيهم محوجا كريم الطرفين متوسطا في العشيرة يختب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

ومكر في بى هاشم فراح يزن شبابهم الداخلين في الكهولة بموازينته ، وجد أن عنى العباس قد أررى به وأن الدنيا قد شعلته عن الدين فراح يقرص الناس بالربا ويأكل أموال الناس بالباطل ، وإن كان له شرف سقاية ححيح بيت الله . ولم يقف طويلا عند حمرة بن عبد المطلب فهو فارس وهو كريم وهو شريف وسط في عشيرته ، وهو يتجنب المظالم ولكنه لا يتجنب المحارم ، فهو يكثر من الشراب ويقبل على اللهو إذا ما لعت الخمر برأسه .

وطاف بذمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعر بى هاشم وصديق ابن عمه محمد بن عبد الله الذي لا يفارقه ، هن في ضميره بعض هجوه لأعداء قومه ، ولم يجد في شعره ما يدل على اهتمامه بأمر السماء فأشاح بتفكيره عنه . وراح يستأنف الفحص عن رجال بى هاشم حتى إذا ما بلغ أبا القاسم أمعن الفكر طويلا . فهو طاهر القلب نقى الضمير يتحنت طوال شهر رمضان في غار حراء ، وقد اشتهر بين قومه بالأمين ، وهو يتجنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ، وهو كريم الطرفين وسط في العشيرة ، وهو فقير ويقف على أعتاب الأربعين ، واشتدت ضربات قلب أمية وانبهرت أنفاسه ولكنه راح يحاول أن يعيد الطمأنينة إلى قواده ، فجعل يؤكد لنفسه أن محمدا لا يدري ما الكتب السماوية وما الإيمان ، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وما كان الله في وهمه يبعث من

كان مثل ابن عبد الله لتبليغ رسالته !

وفكر في سادات بني مخزوم فلم يجد فيهم رجلا يصلح للرسالة غير الوليد بن النخيلة ، إلا أن الوليد كان كعنتية بن ربيعة قد أررى به المال والنس ، فأموال الوليد ممدودة حتى إنه يكسو الكعنة سنة وتكسوها قريش سنة ، فهو عدل قريش كلها وقد فات الأربعين بسنين .

وراح يعصم أعواد بني تيم فلم يجد فيهم من هو خير من أبي بكر ، فهو دمث الأخلاق طيب القلب متواضع لين الجانب ، يُكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، يصون عرضه ويحفظ مروءته ، وإنه ليذكر له أن رجلا دعاه أن يستصحه لحاجة يعينه عليها فرآه يمر في طريق غير التي يمر بها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! قال الرجل : إن فيها أناسا نستحي منهم أن يمر عليهم قال : تدعون إلى طريق يستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

إن أبا بكر رجل سمح ودود يألف الناس ويألفه الناس ، وهو يتلئ بشوة الإعجاب برحال الإصلاح ، ولكنه ليس من أصحاب الرسالات وإن كان مؤمنا بالعيب يحيد تأويل الأحلام ، فلا بد له من قدوة حسنة يعجب بها ويتعصب لها ويصنع نفسه وماله في سبيل تأييدها وبصرتها .

واستمر أمة بن أبي الصلت يقيس مواهبه وصفاته بمواهب رجالات بيوت شرف قريش العشرة التي تؤهدهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من يصلح لمنافسته على شرف الرسالة . فكان يضيق ببوعة علماء الصباري التي أكدت له أن السلي المرتقب من قريش ، رجل شاب حين دخل في الكهولة يُدو أمره ، يحتب المطالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصنتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة ، أكثر جوده من الملائكة !

وكان الخارث بن كلدة طبيب العرب يقرأ ما وصل إلى يديه من علم أطباء فارس والروم ، وكان ابنه الضر بن الخارث يروى على مسامع والده قشور العلوم التي حصلها من المرس وبعض أحرار الحكمة التي متصها من الكتب ، وقد انتفخت أوداحه غرورا فقد وقر في ضميره أنه حكيم العرب وعالمها وأنه من الظلم له أن يقارن بحكام القبائل الذين تجرى على ألسنتهم أحيانا بعض احكم والخطرات الفلسفية .

وكان عروة بن مسعود سيد بني ثقيف في داره ومن حوله أشرف الناس يتحاورون ويتجادلون ، ويلقى الرواة ما حفظوا من الأشعار التي أنشدت في الأسواق ، والمواد التي كانت تسلية السمار ، والأخبار التي التقطوها في أثناء رحلاتهم إلى حديد يسابور أو الحيرة أو بصرى أو غرة أو منف أو يكسوم أو صعاء . وبما كانت الطائف تحيا حياتها الليلية المأثوفة ، إذا بأصوات فرع وهلع جعلت الناس يهرعون إلى خارج الدور ليروا ماذا جرى .

وتعلقت العيون بالسماء فإذا برهبة تنزل بالصدور ، وإذا بحفقات القلوب تشتد وقد راعت الأبصار ، فالشهب تساقط من السماء . وبقي الناس في دهول لحظات ، ثم راحت صيحات الطلع ترلزل الطائف فقد أشرف العالم على الفناء .

وماج الناس بعضهم في بعض ، وراح السادة يعتقدون رقيقهم وسيروا أنعامهم وانطلقوا إلى الغضاء لا يلبون على شيء يحسون أن سيتحطفهم الموت ، قد ذهل الأب عن بنه ، والروح عن زوجه ، والأم عن وليدها . واستمرت النجوم تبوى لكأثما كان من في السماء يرجم أهل الأرض ، مبلعت القلوب الحناجر وكاد الرعب أن يقضى على الموس قبل أن تشق الأرض

وسدك الخيال على الرعوس ، وظل الناس يحرون ها وهناك ولكن أين المفر ؟!

وفرعت ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان رجلا مهم وكان أدهى العرب وكان يحبرهم بالحوادث وكان صريحا ، فقالوا له :

— يا عمرو ، ألم تر ما حدث في السماء من الرمي هذه المحوم ؟  
فقال في قلق :

— بلى ، فانظروا فإن كانت معالم المحوم التي يبتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هي التي يرمى بها فهو والله على هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها ، وإن كانت محوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق .

ورأى أهل مكة الرجم بالشهب والجوم تهوى من عليائها فاخلعت القلوب وران الفرع الأكبر على الوجوه وارتجفت الأوصال وزلزلت الأرض تحت الأقدام ، والناس ينتظرون الهول والدمار ويتربصون أن تحر عليهم السماء وتنهار عليهم الجبال . وياتوا في رعب من أن تأخذهم الرجفة فيصيحوا في دارهم جاثمين ، أو تحسف بهم الأرض فيكونوا من المهالكين ، فزعوا إلى الحرم يطوفون به ويقدمون القرابين ويتمسحون بالأصنام ويتهلون إلى رهبهم والدموع تبلل اللحى والحدود ، ويسألونه في صدق أن يرفع عنهم مقته وغضبه .

وحاول الكهان أن يكشفوا عن سر السماء فساءوا بالإحراق ، فجزع الناس وقالوا في يأمن مرير :

— هلك من في السماء .

فجعل صاحب الإبل يبحر كل يوم بعيرا ، وصاحب النقر ينحر كل

يوم بكرة ، وصاحب العم ينحر كل يوم شاة ، حتى أسرعوا في إتلاف  
أموالهم واستبد بهم الخوف والقلق فركبوا إلى عبد ياليل الثقفى ، فقالوا :  
— إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم .

فقال لهم :

— انظروا البروج لاثني عشر ، فإن انقض منها شيء فهي ذهاب  
الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم .

وقالت ثقيف لقريش :

— أيها الناس أمسكوا على أموالكم فإنه لم يمض من في السماء ، ألسم  
ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر ؟

ورأى الناس في ثرب السجوم يرمى بها فقالوا :

— ولد مولود .. مات ملك .. مات مولود .

وكان عمرو بن عبسة السلمي يدخل تبعا وكان قد رغب عن آلهة  
قومه ، فلما حط الرجال لقي رجلا من أهل الكتاب فقال له :

— إني امرؤ ممن يعد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله . فيخرج  
الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فيعين ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها  
يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرحل فيتركه ويأخذ  
غيره ، وإذا نزل منزلا سواء ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك ،  
فرايت أنه إله باطل لا يرفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا .

فقال الرجل وهو ينمرس في وجه عمرو بن عبسة :

— يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فإذا  
رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين .

فاطلق عمرو إلى مكة وسأل :



— هل حدث حدث ؟

فقيل له :

— لا .

فلم يعد له هم إلا مكة باقى فيسأل :

— هل حدث حدث ؟

وراح الكهان يعوذون برجال من الجن ليسترقوا السمع فى مقاعد لهم ويلقوا ما يسمعون إليهم ، فإذا بمن يحاول أن يستمع يجد له شهابا لا يخطئه ، فقد معت الشياطين من خبر السماء تطهيرا للأرض من الكهانة وتمهيدا لنزول الوحي الكريم بالنور الذى سيشرق باليقين فى قلوب البشر .

وصاح صائح من الكهان :

— قد منع السمع عتاة الجن .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ وأنهم ظنوا كما ظنتم أن لن يبعث الله أحدا \* وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا \* وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا \* وأنا لا ندرى أشترأريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴿ (١) .

---

(١) سورة الجن الآيات ٦ — ١٠ .

كانت نار العداوة متأججة بين الأوس والخزرج ما إن يطعنها عاقل من عقلائهم حتى يشعلها سفيه من سفائهم ، فيمشي الرجال إلى الرجال وتتقارع السيوف فتسيل الدماء وتزهق الأرواح وتتلعلل العداوات في سويداء القلوب .

وكانت المعارك الحربية تهدأ بين الحين والحين ، ولكن معارك الشعراء من الحاسين ما كان ليعتربها الفتور ، شعراء الأوس وعلى رأسهم قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت كانوا يفتخرون بقومهم ويذكرون مشالب أعدائهم ، وكان شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبي رراحه يمتدحون رهطهم ويهجون كل من انتسب إلى الأوس بسبب . وأصبحت العداوة بين قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت علامة من علامات الحياة في يثرب ، فقيس بن الخطيم يشب بعمره زوج حسان ، وحسان يشب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم ، والرواة من الحاسين يمشون بذلك التشبيب بين القبائل ليكون مادة للسمر في مندياتهم .

وصار حديث الحرائر مضعة في الأفواه ، فقبل إن حولة أخت حسان أُنشدت متعشقة عمارة بن الوليد المخزومي :

يا حليلي بابي سهدي	لم نسّم عيى ولم تكـد
فشرابى ما أسيغ وما	أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تنحونى على رجل	أس تنسده كـدى
مثل صوء البدر صورته	ليس بالرميلة النكد

ممسس سى آل المعيرة لا حامل كس ولا جحد  
 طرت يوما فلا نظرت بعده عيسى على أحد  
 وكان حسان يهجو قيسا ويهجو الأوس هجاء مرا ، وكانت القبائل  
 تحشى لسابه الذى قال فيه : والله لو وضعت على شعر حلقة أو على صخر  
 لفلقه وقد وضعه على قيس والأوس فتألم منه شر عظيم ، فالشعر يكد  
 يقوى فى الشر ويسهل .

وشحر قتال بين الأوس والخرج فوضعوا أبناءهم وساءهم فى  
 الحصون ، واشتدت الخصومة بين الحين حتى إن الرجل لم يعد يأمن أن  
 يخرج من حصنه إلى عمل يقضيه خوفا من القتل ، وجلس حسان فى  
 حصنه وقد أسدل ناصيته بين عيبيه وأطلق لخياله العنان ، فتذكر تلك الأيام  
 التى ذهب فيها إلى الحيرة وعاش فى قصر الخورنق يلقي قصائد المديح بين  
 يدى النعمان بن المنذر . فما لبث أن أحس حسرة على زوال ملك  
 انذاره ، بعد أن قتل كسرى النعمان وولى فارسا على إمارة اللخمين .  
 وفى مثل لمح البصر انتقل خياله إلى بلاط القساسنة فأنفجرت  
 أساريه ، فحيلة بن الأيهم صديقه . فما من مرة ذهب فيها إلى قصره إلا  
 وحلج عليه ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيره من جلسائه .

ورن فى ضميره أصوات الغناء التى سمعها فى مجلس جبلة ، ورأى بعين  
 خياله ما فى ذلك المجلس من جلال وعظمة وبهاء . عشر قيان . خمس  
 روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وجبلة  
 جلس للشراب وفرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب  
 له العبر والمسلك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى إن  
 كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطئ بالثلج وأنى هو وأصحابه بكساء صيفية ،

يمتاز هو وأصحابه بها .

واقترنت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع<sup>(١)</sup> ، وبقي حسان في حصه لا يطلق مع الرجال للقتال فقد قطع أكحله<sup>(٢)</sup> فلم يكن يصرب يده ، وراح يقول في حسرة وألم :

أصر بجسمى مر الدهسور

وحان قراع يدي الأكحل

وقد كنت أشهد وقع الحروب

ويجمر في كفى المصل

وما كان حسان جبا ، فلو عرف عنه الحس لغيره به غريمه قيس بن الخطيم الذي يتصيد سقطاته ومثاله .

ومثت الأوس لإقرار الصلح بين الحيين العربيين خشية أن يقوى اليهود ويعود بعودهم في يثرب ويشند سلطانهم ، فأتى بنو النجار من الخزرج وحالوا بين الفريقين وبين السلام حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض وإن بقوا على عداوتهم وتشاحنهم .

ووضعت السيوف في قرىها ، وعادت السهام إلى جمعها . ولكن ألسنة الشعراء استمرت في الانطلاق ، قال حسان معددا أمجاد الخزرج .

ويثرب تعلم أنا بها إذا لتبس الحق ميزانها

ويثرب تعلم أنا بها إذا فحط القطر بدمانها

ويثرب تعلم أنا بها إذا حسفت الأوس جيرانها

(١) اسم مكان

(٢) الأكحل : عرق في اليد .

ويثرب تعلم أن النبي — ست عند المراهرة (١) دلاها  
سبت بالنبييت وأشياءها من أن أوعدت قط أرطابها  
فكيف إذا بارئتها ما ليوث عريف (٢) وشبلاها  
متى ترنا الأوس في ييصا هز انقضا تحب نراها  
وتعط المقاد على رغمها ويرل من الهام عصياها  
ويثرب تعلم أن النبي — ست لبست بشيء وأعواها  
فلا تفخرون والتمس مدجا فقد عاد للأوس أدياها  
ونحن إذا حاربت عامر أمام الكتيبة أعياها

ولا يسكت بالطبع قيس بن الخطيم بل يقول فيما يقول .

نحن القوارس يسوم الربيع مع قد علموا كيف مراسها  
جبنا الحراب وراء الصريع مع حتى تقصف مراسها (٣)  
فلما استقل كليث العريف زان الكتيبة أعواها  
تراهن يخلجن خلج الدلاء تحتلج الرع أشطباها  
ويثرب تعلم أن النبييت رأس بسيثرب ميسراها  
حسان الوجوه حداد السيوف ف يتذر المحد شباها  
وبالشوط من يثرب أعسد ستهلك في الخمر أئماها  
يهون على الأوس أئمانهم إذا راح يحطبر نشوانها

وما كان السلام يدوم طويلا بين القبيلتين فالاستمرارات مستمرة ،  
وتعائيد الجاهلية مهيمنة على العقول ، والعداوة تظل يحطمها تهليل أية

(١) الشدائد . (٢) العريف : الأكمة وكل شجر مثقف

(٣) المران : الرماح .

مساعدة لشير القتال . وقد حدث أن برل مخاطب بن قيس الأوسى رجل من  
ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل إلى سوق بني قيس ع  
فرآه أحد بني الحارث بن الخزرج فقال لرجل يهودى  
— لك ردائى إن كسعت هذا الذيبانى .

ففعّل اليهودى فنادى الذيبانى :

— يا مخاطب ! كسع صيفك وفضح !

فجاء مخاطب فقتل اليهودى ، فقتل الخزرجى رجلا من الأوس لا ذنب  
له بذلك اليهودى ، وثار الحرب بين الحيين ، وكان على الخزرج عمرو  
ابن النعمان البياضى وعلى الأوس خضير بن سمالك الأشهل .

وعلم عبيدة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك المزاريان  
بالأمر ، فقدماء يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن  
يتحملا الديات ، فأبوا وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

كانت يثرب تموج بالعداوات وتبيض بالخطايا . ففيها أشهر سقيفة  
لصاحبات الرايات الحمر من البغايا ، فكان شباب القبائل يقصدون إليها ،  
وكانت منزلا للفسقة من سادات الأسرات وأوشابها ، فكانت الخمر  
تجرى فيها جريان الأنهار ، وكان اليهود تجار الشوة واللذة يجمعون الأموال  
من الربا ويقترفون كل منكر لسلب العرب وكنز الذهب والفضة ، فقد  
وقر فى ضميرهم أن ليس عليهم فى الأمين سبيل مادام دم غير اليهود وشرفه  
وماله حلالا لهم .

وكان اليهود يعملون على توسيع رقعة الخلاف بين الأوس والخزرج  
لتشغل كل قبيلة بثاراتها ، وعلى الرغم من اشتعال الحين بعداوتها عهم  
فلم يكن اليهود جميعا بل كانت قلوبهم شتى بأسهم بينهم شديد . وكان

يقع أحيانا بين العرب واليهود شيء من النفور فإذا ما قاتلوا الكفار قالوا : سألك بالبي الذي وعدتنا أن ترسله ، وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا ، فكانوا يصرون ، وإذا ما بطش العرب بهم قالوا لهم :

— إن نبيا مبعوثا قد أظلم زمانه نبيعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .  
و ذات يوم بينا كان أناس من اليربيين العرب جالسين وبينهم سلمة بن سلامة ، إذ يهودى من بى عبد الأشهل يقف على رأسهم ويذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له :

— ويحك ، أو ترى هذا كائنا أن الناس يعشون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟

— نعم والذى يخلف به . وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تور بحمونه ثم يدخلونه بياه فيطبقونه عليه ، بأن ينحو من تلك النار غدا .

— ويحك وما آية ذلك ؟

— بى يعث من نحو هذه البلاد .

وأشار بيده إلى مكة واليمن ، وقالوا :

— ومن يراه ؟

فطر إلى سلمة بن سلامة وهو أحدثهم سنا وقال :

— إن يستقذ ( يستكمل ) هذا الغلام عمره يدركه .

وساد الصمت وإن كان يدور في صميم الوجود صوت اليهودى الذى

وقف على جبل من أربعين سنة يصيح :

— طلع الليلة نجم أحمد .

وإن كانت الشهب يرمى بها لتطهير السماء نزول الوحي على خاتم

الرسل ، ليشرق النور على العالمين .

١٠

كان بنو جمح مجتمعين في ناديهم حول الكعبة ، وكان فيهم أمية بن حلف بن وهب بن حذافة بن جمح وصفوان بن أمية صاحب الأيسار ، فما كان أحد يضرب القداح والأرلام عند هل قل أن يلتمس الإذن منه . وكان بلال بن رباح واقفا يصغى إلى أحاديث القوم ، وسرعان ما مشى إليه واستشعر رغبة في أن ينطلق إلى أبي بكر بن أبي فحافة يسعد بالأس به وإرواء النفس من نبعه الصافي .

كان بلال مولى لبعض بني جمح مولدا من مولديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وقد شب فيهم أمينا ذا خلق قوي فكانوا يخرجونه في تجارتهم فكان يعود بالأرباح الوفيرة ، وزادت الثقة فيه على مر الأيام فكان لى جمح كما كان ميسرة لخديجة أمين القافلة وصاحب الأمر فيها

وفي رحلات الشتاء والصيف عرف بلال أبا بكر فعرف فيه التواضع ولين الجانب والسجدة والكرم والسخاء ، يغار عن مروءته ويتجنب ما يريب ، فلم يشرب الخمر حتى لا يحدث وقاره ، وما كان يكذب وما أنخلف وعدا قط ففتحت نفس بلال له . فكانت أسعد ساعات حياته تلك التي يقضيها في صحبته يلقي إليه سمعه لتستمع روحه بحكمته وعذب حديثه .

كان بنو جمح يرفلون في العر . فكانت دار أمية بن خلف تزدان بالتحف المجلوبة من فارس وبلاد الشام ومصر ، وكانت دار صفوان بن



أمية مموح بعثيات من كل الأجناس ، وكانت الدهوف تصرب والراقصات يرقصن للرجال والشراب يراق في البطون لقلب الشوة ، والرواة يروون أباطيل الشعراء ، والظرفاء يلقون النوادر المكشوفة دون حياء ، وأدرع السادة تلتف حول حصور الغواي ، والضحكات الماحجة الآثمة تعبو على أصوات القيان المعليات ، فقد أطلق للجنس عناءه وتفجرت في النفوس شهوات وقتية حكم عليها أن تموت عند قمة نشوتها .

وكان بلال يعاين كل ما يجري في دور بى جمع من فساد به في كل دور شرفاء قريش ، ولكنه لم يكن يستكر شيئا فقد شب وروع في قوم يقفرون بإنفاق الأموال في شرب الخمر وفي لعب الميسر وفي حض فتيانهم على البغاء ، وينترعون النساء من أحضان الأرواح ويعتصمون البيات من الآباء والأمهات ، وتتعزل حرائرهم في الرجال ويمشى الرواة بدلك العزل في القبائل . وكان الرجال يعنون بسائلهم عن طيب خاطر إلى أشرافهم وإلى أقوياء الأيدان والأدهان يستبضع منهم ويحبس ذرية من الناهين الأقوياء .

وما كان لمرأة وزن فالأرواح يخلعون النساء في يسر كما يخلعون العال ، وما من امرأة في قبائل العرب إلا وقد طافت على أرواح كثيرين مما كانت أكثر من متاع .

وكانت المتع المادية طابع بيوت اشرف في مكة ، وما كانت العبادات إلا نوعا من تقديس تقاليد الآباء ، وما كانت تمارس إلا طمعا في نعيم الدنيا ودفعا لأذى الآهة الذى يصيب الناس في الأرض ، فما كان للدين مكان في أعماق النفوس وسويداء القلوب إن هو إلا عصبية من عصبية الجاهلية .

وكان بلال يخرج مع الخارجين إلى الحرم يطوف بالبيت العتيق ويقدم القرايين للأرباب ويدين بالولاء للات والعزى وإن كان يحترم الآلهة الأخرى ، مثله في ذلك مثل قريش الدين ولد فيهم . وكان يعيش في دنيا الشر وإن كانت في أعماقه كنور مطمورة راخرة بالخير لم تجد من يكشف عنها العطاء ، وكانت تلك الكنوز تسفر عن معدنها كلما ألقى سمعه إلى بعض من ارتفعوا بإسائتهم عن مادية العصر وفجوره .

وكان يجد راحة نفسية كلما جلس إلى أبي بكر وكان معجبا بوقاره واعتداله وسماحة خلقه وكرمه ، فلو أن أبا بكر لم يلع بعد الثامنة والثلاثين من عمره إلا أنه كان أكثر وقارا من شيوخ قريش وساداتها ، وكانت أمتع لحظات حياته تلك التي يذهب فيها لزيارة أبي بكر ويجد عنده صديقه محمد ابن عبد الله ويصطحب إلى سحر حديثه ، فقد كان يحس بشوة عارمة تملأ جوانحه وكأنما يرتفع إلى السماء .

وملأت صورة محمد أقطار رأسه واستولت على ليه ، إنه متواصل الأحران دائم الفكرة ليس له راحة ، طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعم وإن دنت لا يذم منها شيئا ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يكر لعصيه شيء حتى ينتصر له ولا يعضب لنفسه ولا ينتصر لها .

إنه حافص الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ولا يطوى عن أحد من الناس بشر ، قد وسع الناس بسطة وحلقة ، وهو أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه ، لا يؤيس راجيه ومن سأله حاجة لم يرده

إلا بها أو بميسور من القول ، أجدد الناس بالحير .  
 واستمر بلال يفكر في ابن عبد الله ، إنه يحس كلما أعاره سمعه أنه  
 يصفى إلى ترانيم آتية من وراء عالم شفاف رقيق طاهر ليس من هذه الدنيا  
 لتى تموح بالعلطة والقسوة والشرور . وأن أحاديثه صادقة نابضة بالإيمان  
 تنفذ إلى القلب وتمنؤه بالبور . وأن كل فعالة تؤكد أنه إنما خلق للناس لا  
 نفسه ، فهو يعين الملهوف ، ويذل كل ما يصل إليه للفقراء والمساكين  
 وابن السبيل ويتحمل المتاعب في سبيل راحة الآخرين وأنه مشرق على  
 الدوام لكأنه منارة في بحر لجي جعم عليه ظلام ثقیل . فقد تمثل فيه الكمال  
 الإنساني .

واستولى على بلال شعور عامض بالإعجاب بأبي القاسم ، إعجابا  
 ليس له حدود . وإن عجز عن أن يفسر ذلك الشعور فمن أين له أن يفتن  
 إلى أن ذلك الإنسان الكامل قد خلق ليكون بداية خير زمن في تاريخ  
 البشرية جمعاء !

وضاق بلال بأحاديث سادات بني جمح وبأشعار الشعراء الماجنين  
 فانسل من نادى القوم وغادر الكعبة واطلق إلى أبي بكر ، وهو يحس النفس  
 بلقاء أبي القاسم ليفسل أدران الروح ويصمى القلب من شواغل الدنيا  
 ويهيم معه في ملكوت كريم يبيض بمشاعر تسمو بإنسانية الإنسان .

\* \* \*

وكان سعد بن أبي وقاص في ذلك الوقت يلقي تحية طيبة على أمه التي  
 يحبها بكل جراحة من جوارحه قبل أن يعادر الدار ، وسرعان ما خرج من  
 دور بنى زهرة وانطلق في الطريق الذي كانت حوايت العطارين على حانيهه ،  
 وكانت دكان أبي طالب تكاد تكون حالية من الطيب والمسك والعنبر

بما كانت دكان أسماء بنت محربة أم بى المعيرة وحدة أبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) عاصية بأفحز أنواع اعود والمذل والأطياب المحبوبة من اليمن وأرض البخور .

وأمام دار خديجة التقى بعمار بن ياسر فوقف الشاب يحدث عمار الذى كان رفيق محمد بن عبد الله فى رحلاته ، وقد قال عمار إنه داهب لزيارة أبى القاسم قبل أن يهل هلال رمضان ويصعد محمد إلى غار حراء ليتحدث كما اعتاد أن يفعل فى كل عام . واعتذر سعد بأن محمدا قد رآه بالأمس وأنه مطلق إلى دار أبى بكر ليسأله عن تأويل رؤيا رآها ، ولم يعجب عمار لذلك فقد عرف عن أبى بكر براعته فى تفسير الأحلام .

وجلبت ضحككات من دار أبى سفيان المقابلة لدار خديجة فالتفت سعد وعمار وى أعينهما دهش ، فأبو سفيان قد خرج على رأس قافلة قريش إلى اليمن ، فإذا بمحطلة بن أبى سفيان ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان ومعاوية بن أبى سفيان مقبلين ومن حولهم رجال من بى أمية وقد أخذوا طريقهم إلى المسجد الحرام .

وعرج عمار إلى دار خديجة ، وانساب سعد إلى الكعبة فصاف بها ثم خرج من باب بى مخزوم ومر بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ثم سار غربا إلى المسفلة حيث دار أبى بكر ، فألقى عبد الرحمن بن أبى بكر حارحا للقصص وقد ركب فرسه وتنكب قوسه ، ودار حديث رقيق بين بارى السبل القصير الدحداح وبين ابن أبى بكر الذى يشب فارسا شاعرا ككل أبناء بيوتات قريش ، ثم دلف سعد إلى الدار .

كان أبو بكر جالسا وعمده حكيم بن حزام بن خويلد — وقد صارت دار الندوة إليه بعد أن كانت لى عبد الدار ، اشتراها لتكون مكرمة له

ولأبائهم من بعده — وعثمان بن عفان والربيع بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وبعض شباب قريش . وكانوا جميعاً من الشباب القرشي — باستثناء حكيم — المتطلعين إلى حياة جديدة غير حياة مكة العارقة في الأساطير والحرافات والأوهام ، وقد وجدوا في أبي بكر أسوة حسنة فكانوا يهرعون إليه ليقبضوا منه الطهارة والصدق ومكارم الأخلاق ، فقد كانت صمائرهم نقية لم تغفل فيها بعد وثنية الآباء ولا التعصب الأعمى لأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئاً .

ودخل سعد على القوم وألقى عليهم التحية ، ثم سار وجلس إلى جوار عبد الرحمن بن عوف فهو منله من سبي رهرة أحوال محمد بن عبد الله ، ودار الحديث حول التجارة والرحلات فراح عبد الرحمن بن عوف يقص بعض قصصه في الأسواق ، فقد داع صيت أماته في القائل فكانت التجارة ترسل إليه من كل حذب وصوب إلى مكان الصفق ، فما كان يبدأ في الصفق معلناً بدء البيع حتى يحف الناس إليه ولا يفضون من حوله حتى يأتي على ما معه من تجارة ، فيأخذ نصيبه بلا زيادة ولا نقصان ويعيد إلى أصحاب التجارة حقوقهم .

وقص عثمان قصة خروجه مع عمرو بن العاص إلى الحبشة ، وراح يصف ركوب البحر وأسواق الحبشة وبلاط الجاشي وعدادات الناس وما عادت القافلة به من أرباح مادية وصلات طيبة ، فقد توطدت صداقه بين عمرو والجاشي واستطاع عمرو بدهائه أن يستولي على إعجاب أهل البلاد .

وتحدث حكيم بن حرام عن أسواق الشام واليمن والحيرة وبصرى .

وأسهب في الحديث عن قصر هرقل لإمبراطور الروم الذي يمشي ألعاب أوقاته في ناصري ، وكثيرا ما يبعث إلى أشرف الأنعام الذين يؤمون أسواقها ليعدوا عليه فيكرمهم ويسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم ، ويحاول أن يستشف من أحاديثهم حقيقة ميولهم ، وأن يعرف عواطفهم معه أو مع الفرس أعدائه وأعداء بلاده ؟

وتحدث الزبير بن العوام عن الفروسية و لفرسان وابن عمه حكيم بن حرام يرمقه في إعجاب ، واشترك في الحديث أبو عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبي وقاص ، وكان انفعال الشباب يترقق في الوجه ويجرى على الألسنة ، وكان الحديث يدور حول بعض ماوشات دارت بين بعض الفرس أو بعض الأحياء ، ولم يحظر على قلب أحد من الحاضرين أن هؤلاء الشأن المعمورين سرفعهم دين قوم إلى مصاف أشهر قواد الأرض ، وأهم سيقوضون بسيف الله المسلولة جيوش أعظم إمبراطوريتين : إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم .

وتحدث طلحة بن عبيد الله عن قوافل بني تميم فهو من رهط أبي بكر ، وذكر الرهبان البازلين في صوامعهم على طريق القوافل فيصح بخديته ذكريات أبي بكر . فرأى نفسه وهو طفل صغير يخرج مع أبيه في قافلة قريش التي كان سيدها أبو طالب في ذلك اليوم الذي نشئت فيه محمد بن عبد الله بعمه وخرج معه إلى الشام .

واحتلت رأس الصديق أحداث ذلك اليوم الذي نزلت فيه قافلة قريش إلى جوار صومعة نحيار الراهب ، ورد في صميره ذلك الحوار الذي دار بين نحيار وأبي طالب ، وانتالت على فكره صورة نحيار وهو يكشف عن طهر محمد ويقل الخاتم الذي بين كتفيه ، وسرعان ما رأى محمدا يخرج في تجارة

حديجة وهو إلى حوره يصمى إلى عذب حديثه ويسعد برفقته ، حتى إذا ما برئت القافلة بالقرب من صومعة الراهب سطورا ورأى الراهب الشاب القرشي الوسيم انطلق إليه كالسحور وراح يحادثه في اهتمام وبسأله عن بعض شأنه في يقطه ومسامه ، ثم يطلب منه أن يكشف عن طهره ليرى الخاتم الذى بين كتفيه فلما وقعت عليه عياه مال وقبله في تقديس واحترام .

قال بحير الأنى طالب : ارجع باين أحيك إلى بلدك واحذر عليه اليهود ، فوالله لمن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغته بشر . فإنه كائن لابن أحيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . وقال سطورا أن سيكون لمحمد شأن ، وكان أبو بكر في عين ذاته يؤمن بصديقه أعمق الإيمان ، ويرى أن ليس للعرب من معلم ولا هاد غير أنى القاسم فهو صاحب نفسية عظيمة وإرادة قوية ، اتصل بالطبيعة وبما وراء الطبيعة وكاد أن يخطئ اللثام عن سر الوجود ، إنه إنسان عظيم وإنه لشرف لأعظم الرجال أن يكونوا مرادين لصاحب هذه العظمة الخارقة .

وأدار أبو بكر عينيه في وجوه سعد بن أنى وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وأنى عبدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله وعثمان ابن عفان ، وإذا بهامس يهمس في جوفه يقول : يا لحسن طالع هذا الحيل ، لو أن هؤلاء الأشبال تعلموا الحكمة من محمد بن عبد الله ! .

بين مكة ويثرب تقع قرية ودان ، وهى على بعد ثمانية أميال من الأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب ، وهى لقبائل ضمرة وعفار وكنانة ، وكان رجال عفار يعيشون على مهاجمة القوافل وسلبها ، وكانوا علاظ الأكباد تترحمف منهم قلوب الدين يرون بالقرب من ديارهم ويوسعون الخطو وهم يترقبون حشية أن يقصص عندهم فرسان الليل فيسلبوهم أرواحهم أو أموالهم أو حرياتهم .

وكان جدب بن جادة ( أبو در ) يقطع الطرق ويشس العارة على القوافل وحده ، وكان يعود إلى القبية بما سلب فيمد الشباب أعينهم إلى ما معه وقد لاح فيها الحسد ، دون أن يجرؤ أحد على أن يسأله القسمة أو المشاركة فقد كان قويا ذا سلطان بطشه شديد .

واشتهرت عفار فى القبائل بالسطو وقطع الطرق هوقر فى العقول أن عفارا لا يأتي منها شيء طيب ، فإذا ما نزل رجل من عفار على قوم من الأقبام نظروا إليه فى رية وعاملوه فى حذر وراقوه حتى يرحل عنهم .

وعلى الرغم من أن عفارا كانت تعيش على السلب والهب وزهق الأرواح البريعة فما كانت بغادرة على أن تعيش بلا إله ، فكانت تتعدى للآلات والعربى وسهم وآله العرب الأخرى إلا أن مائة كانت إلتهم المفصلة يحجون إليها قبل أن يطلقوا إلى الحرم ، ويخلقون رعو سهم عندها إذا ما انقلوا إلى أهلهم بعد تأدية مناسك الحج فى مكة . وكان أبو در يقدم إليها



نصيباً من عثامته ويسوق إليها النحائر ويتقرب إليها بالقرايين .

كان أبو ذر شجاعاً ورث عن محتمعه عاداته فما كان يرى في السطو عيباً ، إلا أن الله أعطاه بصيرة نافذة فكان كلما سرى في الليل ورأى السحوم والكواكب والقمر ، فكر في آيات السماء وفي الأصنام التي يقدها فيتدسس الشك في آفته إلى وجدانه ، وتهمس هوائف الإيمان في ضميره مؤكدة أنها أهول من أن ترفع سموات وأن تزيتها بمصاييح برشد الساريين بالليل ، حتى وإن كانوا قطاع طرق مثله !

واستمر أبو ذر يفكر في ملكوت السماء والأرض فإذا به يستشعر بإشراق البور في قلبه ، وتكشف الحجب عن عين داته ، وتتلألأ في فؤاده حقائق الأمور الإلهية فينتدى إلى أن لهذا الكون رباً غير اللات والعزى ومناة وكل آلهة العرب ، إنها عطيماً قادراً لا مطمع في أن يرقى إليه ان عقل أو يتناول به بالدرس والبحث . فأحب أبو ذر ربه وراح يجاهد نفسه ليرضى إلهه ويصلي له ويتوجه حيث يوجهه الله .

وداق أبو ذر لذة الأنس بالله ، وهت عليه نسائم الألفاظ فلمعت في قفه من وراء ستر العيب أشياء من غرائب العلم كالبرق الخاطف راحت تمحو من نفسه كل صفاته المدمومة وتقطع كل العلائق التي كانت بينه وبين السطو والسلب وسفك دماء الأبرياء .

وعرف أبو ذر جوهر الحقيقة ووضع قدميه على الصراط المستقيم ، ولكنه وهو صاحب السطوة والنفوذ في قبيلته لم يفكر في أن يسفّه أحلام قومه أو يسب آلهتهم ، فإنه لشئ رهيب تقشعر منه الخلود أن يقف إنسان وحده في وجه الناس يعيب دينهم ويأمرهم أن يعبدوا إلهاً غير آلهة آبائهم الأولين .

( دعوة إبراهيم )

وقعدت همه ألى در عن أن يدعو إلى الحقيقة التى رآها بعين بصيرته ،  
ورصى بأن اهتدى وحده ، وفرح بأنه يتوجه فى دعائه وصلاته إلى الله ،  
حتى أمه وأخوه أنيس وعشيرته الأقربين لم يفكر فى أن يدعوهم إلى  
الحسنى ، فقد كان على ثقة من أنه أعجز من أن يقدر على أن يقنع أحدا  
بتدليل عقيدته ، وإن كانت تلك العقيدة وإيمه يمر بها كل ذى عقل  
سليم .

أثر أبو در السلامة واكتفى بوصول الحقيقة إلى قلبه وهو المغامر  
الشجاع الذى لا يرهب الرجال ، ولكن حرب العقائد تحتاج إلى شجاعة  
تفوق شجاعة الفرسان ومقارعة الخطوب ، والدعوة إلى دين تحتاج إلى  
تأييد من الله ونصر من عبده وإلقاء أنوار اليقين فى القلوب .

ومحس العيث عن غمار وأجذبت الأرض وحق بالناس الضيق ،  
ويما كان أبو ذر وأخوه أنيس جالسين يتلويان من الجوع إذ دخلت عليهما  
أمهما وفى وجهها رهق قد انتقع لونها وغارت عيناها وعلاها ذبول ،  
وقالت :

— أرى أن نزل على حالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال .

ونزل أبو در وأنيس وأمهما على خالهما مرحب الرجل بهم وأكرم  
وفادتهم ، فلما رأى الناس عطف الخال عليهم تحرك الحسد فى نفوسهم  
ووسوس لهم الشيطان أن يكيدوا للوافدين عليهم ، فذهب رجل منهم  
وقال للخال :

— إذا ما خرجت جلس أنيس إلى نسائك .

وطوى الرجل نفسه عن ابنى أخته ، وأحس أبو در بإعراض خاله عنهم  
فقال له :

— ما حطبتك ؟ إلى أنكرت مد أيام . أراك معرضا عما قليل الحديث طويل التذكير .

فقال الخال والغصب يملاً جوانحه :

— قال لي قومي : إذا حرحت عن أهلي حلفي إليهم أنيس .

فقال له أبو ذر في أسى :

— أما ما مضى من معروفك فقد كدرتة ، ولا جماع لنا فيما بعد  
وعاد أبو ذر وأنيس وأمهما إلى عفار ، ليصلي أبو ذر لله ويتوجه حيث  
وجهه الله ، ينتظر ما يأتي به العبد لا يدرى ما يحبه له القدر .

## ١٢

راحت حديجة تعد زاد أبى القاسم وكان من كعك وزيت . وكانت تستشعر بشوة واستشارا فقد عرفت لذة الخلوة بالله والأس به والفرح الفياض الذى يعمر العواد كلما أشرق فيه نور اليقين . فمحمد الحبيب كان يأخذها معه فى السنوات الأخيرة لتتعبد طوال شهر رمضان فى حراء مع اخفاء من قريش ، فكانت تسعد بصفاء القلب وتهلل بانبش لسائم الرحمة التى تهب عليها من حرائن الملكوت ؛ ولكن ذلك الحين الذى تحرك فى أحشائها قد حبسها هذا العام عن أن ترق لتعتكف مع المعتكفين ، وتهيم بروحها رهافة فى عالم الشوة والنور تهل من يبايع الكمال والسعادة السرمدية التى لا تعرف الذبول ولا الفتور .

وكانت حديجة ترحون أن يكون ذلك الذى فى بطها عوصاها ولروحها الكريم عن القاسم الذى مات فى عمر الورود ، فالأمين قد حزن عليه حزنا كشف عن بطن قلبه الكبير بانه العرير ، فلعل ذلك الآتى بعد حين يكون قرة عينه وعصب رطيبا من شجرته الزكية المباركة .

وحاء أبى القاسم يتألق وجهه بالنور تعلوه هالة من المهابة فأحست حديجة إجلالا كأنها كانت بين يدي ملك كريم ، ورادى روعة مشاعرهما ذلك الإشراق الذى عمر الدار وذلك الأريج الطيب الذى أفعم به المكان وانتشت به الأرواح كأنه انتشر من عالم مسحور .

ومال محمد إلى عن س أنى طالب وقلة ، ثم حمل فاطمة الرهراء بين يديه وضمها إلى صدره الحنون وراح يشمها في حب عميق ، وودع حديجة وزيد بن محمد وأم أيمن وكل من في الدار ، ثم حمل راده وحرّح قاصدا وجه الله معترفا أن يمضى شهرا في صحة مولاه ورعايته راحيا أن يتعرض لنفحاته ورحمته ، فسعادته الحقّة في أن تشف روحه وتسمو فوق سموها لتعم بغاية غاياته : بالوصال بروح الوجود .

وانطلق يتكأ في مشيته في الطريق الموصل إلى الصفا حيث دور يسى مخروم ، ومر على حوايت العطارين فكان يلقي على الناس أطيب تحية فيحيونه بأحسن ما يستقلونه بأشبه متطلقى الوجوه ، فهو حبيب إلى كل النفوس لما عرف عنه من حميل السمائل والخلق العظيم .

ودخل المسجد من باب إبراهيم فإذا الحرم يموج باليسر ، أناس ينحرون الذبائح بين إساف ونائلة ويطوفون بما يدحون ، وأناس يتزاحمون عند زمزم ، وأناس يتمسحون بالأصنام وينهدون إليها ، وكان تمثال مريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل آله القبائل التى كانت على هيئة رجل أو امرأة أو فرس أو أسد أو سر ، قد جلب ذلك التمثال من بلاد الشام أو الروم العرب المنتصرين ، فالكعبة بيت العرب جميعا وثنيين ومجوس وصابئين ويهود ونصارى وحنفاء موحدين .

وكان أشراف القوم في دار الندوة يحكمون بين الناس ويشرفون على ختان الصبيان وصرب الحجاب على السات اللاقى بلغض الحلم وتحرير واثاق الرواج أو ترجية الوقت بالإصغاء إلى رواية السوء وانتشرت بوادى القوم حول أول بيت وصع للناس : فكان أبو هاشم

محتمعين في ظل الكعبة حيث كان يمد فراش عبد المطلب ، وكان أبو أمية وبنو مخروم وبنو تيم وبنو حمح وبنو أسد وبنو سهم وبنو عدي وبنو عبد شمس ملتصقين في حلقات حول سيدهم ، لا هم لهم إلا حديث الدنيا وجمع المال وملء البطون وإشباع الشهوات والاستحابة للسروات والفخر بكل ما يحظ من شأن الإنسان .

وتقدم محمد إلى الكعبة وكان أمامه مقام إبراهيم وقد التصق بالبيت وبئر أبيه إسماعيل صادق الوعد الأمين والناس يمجج بعضهم في بعض ، ولكنه شغل عن العادين والرائحين والطائفين والحالسين بالمشاعر السيلة التي ملأت جوانحه بعد أن قطع كل علائقه بالدنيا وتوجه بكل كيانه ووجدانه إلى الله رب العالمين .

وراح يطوف بالبيت سبعا وهو مستغرق في ابتلالاته إلى ربه لا يسمع الأصوات الهادرة من حوله ولا صوت أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت ويدعوان في حرارة : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويركهم إنك أنت العزيز الحكيم . ولا الأهازيج التي كانت في السماء ولا تسييحات الملائكة التي كانت مفعمة بالحرارة تأهباً لنيلة مباركة ترل الملائكة والروح فيها يادد ربه من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر .

وراح محمد يعادر الكعبة وقد أشرق قلبه بنور ربه ووحى الله إلى موسى الكليم يرن في ضمير الوجود : « وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوانهم وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء آمره به . وأبما رجل لم يقطع من تكلم باسمي فأبى أنقيم منه » .

وسار محمد إلى العار وقد وسع من خطوه بحس تعطشا تاما إلى الأنس  
بربه ، ومرامير داود في سريرة الكون تشد : « .. فاصت الرحمة على  
شميتك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد ، فتقد السيف فإن بهاءك  
وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة  
بهية يمينك والأمم يخرون تحتك » وبوعة إشعيا تتألق بالأنوار في التوراة :  
عدي الذي سرت به نفسي ، أنزل عليه وحبي ، فيظهر في الأمم عدلى ،  
ويوصيهم بالوصايا ، لا يصحك ولا يسمع صوته في الأسواق ، يفتح  
العيون العور والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف وما أعطيه لا أعطى  
أحدا . مُشَقَّع<sup>(١)</sup> يحمد الله حمدا جديدا ، يأتي من أقصى الأرض ، تفرح  
البرية وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكرزونه على كل رابية .  
ولا يصعب ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى ، ولا يُبدل الصالحين الدين هم  
كالقصة الضعيفة بل بقوى الصديقين وهو ركن المتواضعين ، وهو نور  
الله الذي لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه .

واستمر محمد في سيره وقد انكشف الحقائق كلها في قلبه بإلهام من  
ربه . وغمرته سعادة لما فتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، ورادت  
غبطته لما أحس أنه على نور من ربه .

وظل يمشى على الأرض هونا مغلخا دور مكة وراعه ، وخطاب إشعيا  
لمكة العاقر التي لم يبعث الله بها نبيا بعد يرون في جوف الزم : « أيتها  
العاقر ! افرحي واهترى وانطلقى بالتسميح فإن أهلك يكونون أكثر من

(١) راهى وفي خير البشر لابس ظفر « محمد » .

## أهلى .

وراح محمد يشتد في جبال فاران « مكة » وقد هجر الناس والدسا في حب الله ، وخرج عن نفسه إلى الله وصبر مع الله ابتغاء بقاء لا هاء فيه ، وعز لا دل فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وعسى لا فقر فيه ، وكال لا نقصان فيه ، وعالم أوسع من عالم الأرض .

ورجع صوت شمعون نبي بني إسرائيل يدوى في أغوار أورشليم : جاء الله بالبيات من جبال فاران ، وامتألت السموات والأرض من تسييحه ونسييح أمته .

وطفق صدى صوت ررادشت يتجاوب في وديان فارس وسهولها وجبالها « استمسكوا بما جفتكم به حتى يحيى صاحب الحمل لأحرر من بلاد العرب .. إن أمة زرادشت حين يبنذون دينهم يتعضضعون ، وينهض رجل من بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع المرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويؤمنون يصبحون وهم أتناع للبنى رحمة للعالمين ، وسادة لفارس ومديان وطلوس وبلخ ، وأن سهم ليكوس فصيحاً يتحدث بالمعجرات . واستمر محمد يعرج في الحمل والأنوار التي تشرق في قلبه نهر كل الأنوار ، والفرح الفياض الذي يستشعر به في عين دانه لقربه من الله قرب حقيقي يفوق كل أفراح الدنيا ، بعد أن صار حمال المدركات بالبيضاء أكمل عنده من حمال المبصرات ، ولدة النظر إلى الله أمتع من كل اللذات الحية التي ما إن تفور حتى تعور . وكان عائناً عن كل ما حوله إلا عن ربه ، يبا كان ملايين المتعبدين في الهند يصرعون في السماقيدا : « تنفى



أحمد الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة ، وقد قست منه النور كما يقس من الشمس .

كان وهو يشتد في الحال هائما في محبة الله يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، تأججت في وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، فراح يغذ السير في حماس ليمرد بربه ويخلو بحبيبه ، ويستغرق في عدوبة الذكر ويستمتع بحلاوة الأنس ويستحوذ على مفاتيح السعادة التي تمل الرحمة على قلبه ، وبشارات الأنبياء تحقق بذكره في الكتب المقدسة ، فحقيق يقول : إذا جاءت الأمة الآخرة يسبحهم صاحب الحمل تسبيحا جديدا في الكائنات الجديدة ، فاحر حواسروا إلى صهيون بقنوب آمة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التي أعطاكم الله في الأيام الآخرة ، آمة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شهرتين ، فيتقمون من الأمم الكافرة في جميع الأقطار .

ويوحنا الإنجيلي يقول في رؤياه : ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا صادقا وبالعدل يحكم ويوحنا اللاهوتي يقول : ومن فمه يخرج سيف لكي يصرب به الأمم .. وهو يدوس معصرة خمر .

واستمر في صعوده وقد تواضع لله وهو يعم بجيشان العواطف البينة في وجدانه ، تلك العواطف التي تتجه إلى الله وتستمد حبوبتها منه وتتألق وتشرق بوره ، يحس في صميم ذاته لا يخوارحه أنه يسير معه ، وأن قلبه يخفق بذكره ، وأن روحه ترفرف بحمده ، وأن أنفاسه تسبح له ، وأن السموات والجبال والوديان تترنم بحمده .

ورن صوت يحيى بن زكريا في قاعة الشريعة مبشرا بقرب ملكوت الله قائلا : توبوا فقد اقترب الملكوت ، وصوت المسيح تتجاوب به الحبال والوديان والسهول والبرية . الحمر الذي رفضه البساءون هو قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا وهو عجب في أعينا ، لذلك أقول لكم ، إن ملكوت الله يزعم منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره .

إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي وأنا أطلب إلى أبي فيعطىكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله ... إن هذا الكلام الذي سمعتموه ليس هو لي ، بل للآب الذي أرسلني ، كلمكم هذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذي يُرسل أبي باسمي ، فهو معكم كل شيء ويذكركم جميع ما أقول لكم .

إن انطلاقي حير لكم ، لأني إن لم أنطق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلم به ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والعيوب .

وسرى في الوجود ابتهالات المسيح في صلواته : « فليأت ملكوتك » وحواره لحوارييه لما ضرب لهم مثل الزرع وازرع ولما سألوه ماذا أراد هذا المثل وقوله لهم : لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، الزرع هو كلام الله .

وبلع محمد مدخل الغار فالتفت حلقه يلقى نظرة على الكون ، فإذا بمرملاً ما بين المشرق والمغرب ، وإذا بالسيم يهب رحاء له تسيححات تشرح الصدر ، وإذا بغطايا نورانية توهب به من جود الله وكرمه فترفعه إلى دروة انتصاره الروحي وتقدم ليدخل العار على بركة الله وكانت

بشارة السيد المسيح تفرع الآذان العافية : ﴿ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (١).

ودخل غار حراء ليربط مع الله ويتدبر ويتفكر ويسعد غاية السعادة بلدة الحاجة ويفتح نفسه لتلقى كسور السماء .. فصفا قلبه من شوائع الدنيا . وركاه بالطير إلى ملاحضة جمال الله وجلاله وجلاله بالترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليه من الرحمة ، وأقبل على ربه بإرادة صادقة فيذر الله في أعواره الاحلاص وهو سر من أسره يستودعه قلب من أحب من عباده . ليظهر به يبايع الحكمة من القلب على السان .

وأقبل بكه المهمة على الله فأرشد إلى الطريق ، وقويت بصيرته على مشاهدة ما وراء حواسه الخمس وأشرق سراح عقده فإذا يعلم من عند الله يقش في بياض لوح قلبه . وإذا بالصور الباطنية انتي لا تدرك بالأبصار بل بالبصائر حقيقة ساطعة ناصعة أمام عين صميره ، فعمره استسار وعرح فياخذ لذلك اليقين الذي استولى على قواده .

وأحسن أنه دنا فتدل من المفرد بالملك والملكوت والعزة والخيروت الواحد القهار ، وأنه يفرع أبواب السماء وأن الأبواب جميعا فتحت له ، وأن كل الخجب ارتفعت عن سر العيب ، فشعر بخصب وجوده وامتلائه بالحكمة ، وبأن كلاما كريما نزه عن معاني الحروف والأصوات يفت في روعه ، فألقى سمعه وهو شهيد وقد تهلل بالفرح لما يرحى إليه وأضاء زيتة الدى في مشكاة قلبه وازداد اشتعالا فأصبح نورا على نور ،

(١) سورة الصف آية ٦ .

والتمت في العار فإذا برز نهر قد تألق بالمكان ، نور يهر نور الشمس ،  
فامتلاً دهشة وقبل أن يبق من دهشته سمع صوتاً ينادي .

— يا محمد ! يا محمد !

فانزع قلبه وخرج من العار مرعوباً ، وانطلق إلى دار خديجة لا يلوى  
على شيء وهو يضطرب من الخوف على الرعم من الرؤيا الصادقة التي كان  
يراهها تأنيساً له ولكي يهدأ فؤاده .

ولما رأته خديجة والرع في وجهه هرعت إليه تسأله ما به ، فقال لها :  
— أرى نوراً وأسمع صوتاً وأخشى أن يكون بي جنون .  
فضمته إليها في حب شديد وقالت في إيمان :

— كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، هو الله إنك لتؤدى  
الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث .

وسمع أبو بكر أن صديقه أبا القاسم قد عاد حائفاً من حراء فانطلق إلى  
دار خديجة ليرى ما الخبر ، وبلغ الدار ودخل على خديجة وليس عندها أبو  
القاسم فسأها عن الخبر فقضت عليه حديث روحها ثم قالت له :

— يا عتيق اذهب بمحمد إلى ورقة .

ودخل أبو القاسم فأخذ أبو بكر بيده فقال :

— انطلق بنا إلى ورقة .

وذهب به إلى ورقة فقال محمد :

— إذا خلوت وحدي سمعت بدء حلقى : يا محمد ! يا محمد ! فانطلق

هارباً إلى الأرض .

فقال ورقة له :

— لا تفعل ، إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول ثم انسى .

وعاد محمد إن عار حراء ولا يزال أثر الخوف في قلبه ، وسرعان ما ردت نفسه إلى طبيعتها لما عاود النظر إلى الله وحرك النظر القنب إلى ذكر الله فاطمأن فؤاده وانشرح صدره بالأس بالله ومشاهدته ومراقبته ومآحاته . وجاءت ليلة القدر أعظم ليلة في تاريخ الوجود ، وحلت اللحظة التي بشر بها كل الأنبياء ، وأتى ملكوت الله الشريعة البيضاء كلام الله على الأرض ، فإذا الملائكة تنزل والروح فيها يادب بهم من كل أمر ، وإذا بأنوار تشرق في العار ومحمد قائم يدعو ربه ، جاءه الملك فقال :  
— اقرأ .

فقال محمد في خوف :

— ما اقرأ .

فحبس نفسه حتى طس محمد أنه الموت ، ثم أرسنه فقال :

— اقرأ .

— ما اقرأ .

فحبس نفسه حتى طس محمد أنه الموت ، ثم أرسنه فقال :

— اقرأ .

— ما اقرأ .

فحبس نفسه حتى طس محمد أنه الموت ، ثم أرسنه فقال :

— اقرأ .

— ما اقرأ .

— ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خلق الإنسان من علق ﴾ اقرأ وربك

الأكرم \* الذى علم بالقسم \* علم الإنسان ما لم يعلم ﴿١﴾ .

فقرأها محمد فانصرف عنه فخرج محمد مرعوباً من العار ، حتى إذا ما كان  
فى وسط من الحبل سمع صوتاً من السماء يقول :

— يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفع رأسه إلى السماء بنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق  
السماء يقول :

— يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقف ينظر إليه فما يتقدم وما يتأخر ، وجعل يصرف وجهه عنه فى آفاق  
السماء فلا ينظر فى ناحية منها إلا رآه كذلك ، فما يراى واقفاً ما يتقدم أمامه وما  
يرجع وراءه .

وصعدت حديجة طعاماً ثم أرسلته لآبى القاسم فحاء رسلها إلى الغار فلم  
يجدوا محمداً به ، فعادوا إليها وقالوا فى حوف :

— لم نجده بخراء .

وخفق قلب حديجة رهبة ودهت بمسها شعاعاً خشية أن يكون قد حاق  
بالغيب مكروه ، ولم تستطع صبراً فأرسلت فى طلبه إلى بيت أعمامه وأحواله  
فلم تحده ، فشق ذلك عديها حتى أنها تترنح بوادره فجلس إلى محدها ملتصقا  
بها ، فقالت فى وجد :

— يا أبأ القاسم أين كنت ؟ فوالله بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة  
ورجعوا لى .

فقال لها :

— لقد أشفقت على نفسي .

وراح يخبرها الخبر وخديجة تصعى إليه في اهتمام وقد تذكرت تلك الليلة التي رأت فيها الشمس تهبط إلى سماء دارها لتشرق بنورها على المشارق والمغارب . وتذكرت قول اليهود يوم اجتمعت نساء قريش في الحرم : قد أطل رمان ببي فمس استطاعت أن تكون له فراشا فلنفعل . وطعا على سطح دهما كل النبوءات التي كانت تشير إلى أن محمد بن عبد الله هو المنتظر والمرقب ، مما كاد ينتهي من حديثه حتى قالت في حماس :

— أبشر يا بن عم واثبت ، فوالدى نفس خديجة بيده إلى لأرجو أن تكون ببي هذه الأمة .

فوالله لا يخريك الله أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ! وملا حديث خديجة قلب زوجها ثقة ولم تطق الصبر على الانفعالات التي راحت تمور بين جسيها فقامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، فأحترته بما أخبرها به أبو القاسم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة :

— قدوس قدوس<sup>(١)</sup> ! والذى نفس ورقة بيده لقى كنت صدقتى يا خديجة لقد جاءه الياقوت الأكبر الذى كان يأتي موسى ، وإبه لسي هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

(١) قدوس قدوس أى طاهر طاهر وأصمه من التقديس وهو التطهير

وحرّح أبو القاسم وراح يطوف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل فقال :  
— يا بن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت .  
فأخبره فقال له ورقة :

— والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الساموس  
الأكبر الذي جاء موسى ولتكدُّبُهُ<sup>(١)</sup> ولتؤدِّبُهُ ولتُخْرِجُهُ ولتفانلنهُ ، وإن  
أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرون الله نصرًا يعلمه .  
ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه .

---

(١) الهاء في هذه الأفعال للسكت .



## ١٣

تهللت خديجة بالمرح حتى إنها راحت تناجي الله والدموع تملأ عينها والافعال الشديده يستحوذ عليها ، كانت تشكره بلسانها وبكل جوارحها على أن اصطفى محمد بن عبد الله لرسالته ، وزاد في غبطتها صدق ما نفتت في روعها وما رأت في أحلامها بعد أن عاد ميسرة من الشام يقص عنها أنباء الأيمن وما كان بينه وبين الرهبان والتجار والسادة والعبيد . فقد ألقى في عين ذاتها مد تلك الأيام أن ابن عبد الله هو البى المرتقب ، وقد دفعها إيمانها بما قرى ضميرها أن تعرض نفسها على محمد بعد أن دست عليه من يزين له زواجها ، وهى الطاهرة سيدة نساء قريش من تقدم إليها أعظم سادات قومها يطلبون يدها فرضتهم جميعا لأنهم دون آمالها وأحلامها . كانت آمالها العريضة المحسنة تزين لها أن تكون فراشا للنبي العرى الذى بشر به الأنبياء ومن أكدت البوعات جميعا أن قد أظل زمانه ، فكانت تقيس كل من يتقدم إليها بصعات الأنبياء فما وجدت في كل من تقدموا لخطبتها الصفات التى تؤهلهم لرسالة . ولكنها ما إن رأت محمد واستأجرته لتجارته وسمعت ما يقول الناس عنه حتى لمست فيه الورع والتقوى والأمانة والعفة والخلق الكريم ، فألمحت أنه نبي هذه الأمة وآمنت به وتروجه . ولم يترزع ذلك الإيمان لحظة واحدة بل كان يزداد على مر الأيام قوة وتألقا .

( دعوة إبراهيم )

كانت تتعجب الزمن وتلهف على مبعث زوجها فكانت تذهب إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة بن نوفل تفص عليه أحوال محمد وما يرى في نومه ويقظته وأسسه بربه ورفع أستار الغيب عن جوهر الحقيقة ، فكان ورقة يصفي إلى حديثها في اهتمام ولا يزيد على أن يقول في انفعال : متى يا خديجة متى ؟!

وما هي ذى النبوة قد صارت حقيقة واقعة بعد أن أوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وقد وقفت خديجة إلى جوار زوجها تسكن روعه وتشد أزره وتؤكد له في ثقة أن الله لا يخزيه أبداً لأنه على خلق عظيم . إنها قد استبشرت بمبىض كرم الله على زوجها وعليها ولكن ذلك الفرح بتحقيق أمانيها لم يذهلها عن طبيعتها . إنها تريد أن تكون أمينة مع نفسها ، أمينة مع ربها ، أمينة مع الرسالة المباركة التي وضعت على أكتاف زوجها ، فلم تقبل الأمر في سر دون تفكير أو تدبر بل أرادت أن تستوثق وأن يطمئن قلبها إلى أن ذلك الذي يأتي زوجها ملك من عند الله وليس بشيطان من الحن من يعود بهم الكهان قبل أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فقالت لأبي القاسم وهي تحاوره :

— أى ابن عم . أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا

جاءك ؟

قال :

— نعم .

— فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاء جبريل فقال محمد ﷺ لخديجة :

— يا خديجة هذا جبريل قد جاءني .

— قم يا بن عم فاجلس على فخذي اليسرى .

فقام محمد ﷺ فجلس عليها فقالت :

— هل تراه ؟

— نعم .

— فتحول فاجلس على فخذي اليمنى .

فتحول فجلس على فخذه اليمنى فقالت :

— هل تراه ؟

— نعم .

— فتحول فاجلس في حجرى .

فتحول فجلس في حجرها قالت :

— هل تراه ؟

— نعم .

فتحسرت وألقت خمارها وأدخلت روجها بيها وبين درعها ثم قالت له :

— هل تراه ؟

— لا .

فقالت في فرح :

— يا بن عم أثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

وأثلج صدر خديجة وتهللت أساريرها وغمرها إيمان عجيب ، وإذا

بشفقتها تتحرك كأن بأول شهادة تحركت بها شفتا مسلم على وجه الأرض

فقالت في صدق :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فإذا بور بملاً أرجاء الدار وكأنه انبعث من مشكاة قلب خديجة ، وإذا بالدموع تترقرق في عيني أبي القاسم فيخبر ساجداً لله .

وخرج محمد ﷺ إلى أعلى مكة فإذا جبريل يأتيه فيراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال . وراح يعلمه الوضوء فعسل وجهه وبديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين ، ففعل محمد عليه السلام مثله ، وركع جبريل ركعتين مواجهة للبيت الحرام ، ففعل محمد كما يرى جبريل يفعل ، وكان ذلك قبل غروب الشمس . ثم انصرف جبريل فحاء محمد عليه السلام خديجة فتوضاً لها ليرى كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها أبو القاسم ، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

وكانت أول صلاة أقيمت في الدين الجديد . ونام الزوجان متفرحين بالله وقلباهما قد شغلا بالله ، فالعين تنام والقلب يقظان . وقبل طلوع الشمس قام محمد عليه الصلاة والسلام وخديجة التي تم لها الاستبصار وعلمت علم اليقين أنها على الطريق فتوضأ وصليا ركعتين ، فقد كانت الصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها . « وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » .

وبينا كان محمد عليه السلام آخذاً بأطراف الحديث مع خديجة إذا بالعدة تستقبله وتريد وجهه وغمص عييه ، ولم تستطع خديجة أن ترفع وجهها إليه وإن كانت تسمع عند وجهه كدوى النحل ، وظن محمد أن نغمه تغبض منه وإن كان يسمع صوتاً له صليصلة كصلصلة الجرس يحالط

قلبه ، وراى عنه ما كان يكابده وقد وعى كل ما سمع ، فنظر إلى حديجة وهو متطلق الوجه وقال :

— يا حديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .

فخفق قلبها بالرضا وقالت فى انفعال شديد :

— الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

١٤

بلغ زينب ورقية وأم كلثوم أن أباهن الحبيب عاد من عار حراء مرعوباً  
يرتجف من الخوف فهرعن إليه حافعات القلوب يخشين أن يكون قد أصابه  
مكروه ، فإذا كل من في الدار مشفق على الرجل الكريم . ولولا قوة ثبات  
جنان خديجة ، وإيمانها العميق بزوجها وبأن الله لا يخزيه أبداً ، لذهبت  
نفوس بنات محمد شعاعاً ، ولمزق الحزن قلب ريد بن محمد ، ولأصاب  
على بن أبى طالب البوار ، ولا نططر كبداً أم أيمن . فقول محمد الذى كان  
الروح التى تحف فى جنباتهم لخديجة : إذا حلوت سمعت نداءً أن يا محمد يا  
محمد وأرى نورا وأخشى أن يكون فى جنون ، كاد يذهب عقولهم ، فإنه  
لشيء يفوق الاحتمال مجرد التفكير فى أن الرجل الذى عرف برجاحة العقل  
والحكمة قد طاش ليه .

كان كل من فى الدار خائفين على رب البيت يرتجفون فرقا مما سمعوا ،  
ولكن خديجة كانت ثابتة ثبات الطود لم يترعرع إيمانها برجلها قيد أنملة ،  
فهى مد عرضت نفسها عليه ترجو أن يكون نبي هذه الأمة ، وقد عاشت  
معه خمس عشرة سنة لا ترى منه إلا كل خلق عظيم . وما هى دى اللحظة  
الحاسمة التى كانت تترقبها فى هفة قد أقلت ، لحظة أن يبعث الله روحها إلى  
الناس وأن يكرمه بالنبوة . فقالت له لتسكن روعه ولتنفى عنه مظنة  
الجنون : كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك . فوالله إنك لتؤدى

الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . إن خلقك لكرم .  
 كانت مؤمنة بكل كلمة نطق بها لسانها ، وقد حفف قولها من لوعة  
 الأسى التي نزلت بأفئدة أهل البيت وأضاءت نور الأمل في نفوسهم التي  
 كانت مظلمة حزينة حتى الموت . ولما جاء أبو بكر الصديق الوفى لأن  
 القاسم وأحد يديه إلى ورقة بن نوفل ثم عاد به يقص على الجميع ما كان من  
 قول ورقة لمحمد : إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول . استبشرت خديجة  
 وراحت رينب تعث في القلادة التي أهدتها لها أمها يوم زواجها وهي  
 تحاول أن تزن بعقلها كل ما سمعت وكل ما قيل وكل ما عرفت عن أبيها من  
 مكارم الأخلاق ، فتسللت الطمأنينة إلى قلبها وإن كانت مشفقة على أبيها  
 مما هو فيه . وراحت رقية تنقل بصرها بين أبيها وأمها فتستشعر رغبة في أن  
 تجهش بالكاء ولكنها كانت تعالب عواصفها حتى لا تزيد الحو المكفهر  
 الذى ران على الدار تجهما وقلقا وحيرة . وكانت أم كلثوم تتأرجح بين  
 الأمل الذى أشرق من فم الطاهرة سيدة نساء قريش وبين الاضطراب  
 الذى كانت تغذيه مخاوفها .

و لم تجد فاطمة الزهراء من تلوذ به من إحساساتها المتباينة غير صدر أبيها  
 فارتنت بين أحضانه وتشبثت به فانقشع عنها كل خوف . بيت راح على بن  
 أبى طالب الفنى الذى لم يبلغ بعد العاشرة يغدو ويروح فى الدار يفكر فى  
 مصدر الصوت الذى نادى ابن عمه الحبيب ومنيع النور الذى أشرق فى  
 الغار فى سواد الليل البهيم .

وكانت أم أيمن لا تدري ماذا تفعل وما تقول ، كانت تسمع مخاوف  
 سيدها فتنهمر منها الدموع وكانت تصعى إلى أحاديث سيدتها التي تنبص

بتناول صادق فيشرق في فؤادها النور .

وجاء هند بن أبى ررارة يسعى إلى الدار يسأل أمه عن حال أبى القاسم الرجل الذى شب في كتفه فلم يجد منه إلا كل خير وحب ، فلم يسمع منها كلمة واحدة تنم عن الخوف بل كانت في براتها رنة فرح كأنها قد جاءها زوجها بالبشرى ولم يأت حائفا يترقب .

وراح أبو القاسم يتأهب للعودة إلى العار ليمطع كل علاقته بالدنيا ويساوم على ذكر الله ليصفو قلبه وتشرق عليه أنوار المعرفة وقد شدت زوجه العظيمة أزرها بوقوفها إلى جواره وإيمانها العميق به ، فراح يعادر الدار بخطى ثابتة وقد تعلقت به العيون المشفقة وأقلوب الحبة .

وعادت زينب إلى دار زوجها العاص بن الربيع وجعلت تفص على ابن الخالة بعض ما دار من حديث في بيت أبيها حول ذلك النور الذى رآه أبو القاسم والصوت الذى سمعه وهو يتعدى الغار . وبلغ هالة بست خويلد حديث ما جرى في حراء فأشفقت على أختها وأقبلت على رينب تستوضحها الأمر فتزداد حيرة على حيرة ، فما رأت تعليلا لذلك النور الذى أضاء الغار في الظلام ، ولا لذلك الصوت الذى ينادى محمدا من الجهول ، وقد كانت تعرف خلق أبى القاسم جيدا فهو بمقت الكهانة والكهان ، ولولا ذلك لأقعت نفسها بأن تلك البشائر إن هى إلا إرغاصات بكهانه .

وحدثت رقية زوجها عتبة بن أبى لهب عما ألم بآبائها ، وأظهرت إعجابها بأمها ورباطة حاشها وإيمانها الذى لم يتزعزع بأن الله يريد لأبى القاسم أمرا وأن سيكون له شأن عظيم ، وراحت تقص عليه كيف أتى عتيق إلى الدار وأخذ بيد أبيها إلى ورقة بن نوفل ، وكيف طلب ورقة من أبيها أن يثبت ولا



يعرع حتى يكشف سر النور والصوت الآتى من وراء الحجب .  
وجلست أم كلثوم أمام زوجها معتب برأى لب شاردة اللب قد ظهر  
في وجهها خوف وفلق ، وراحت تسأل زوجها من أين جاءت خديجة  
كل هذه الطمأنينة التي بدت في حركاتها وسكناتها ، وتؤكد له أنه لولا  
تقاؤل أمها واستبشارها لانهارت ونزل بقلها حزن ثقيل . وأظهرت  
إعجابها بسيدة نساء قريش التي أصغت على البيت السكينة واهدوء بل  
جعلت الأمل يتدسس في أفئدة أهله .

وكانت خديجة تعدو وتروح في اندار في قلق فقد كانت تتقرب أمرا  
حليلا أمرا داعبها سين طويلة ، فلما دت من تحقيق أحلامها انتابها خوف  
شديد من المجهول ، ولكنها راحت تقاوم ذلك الخوف وتحاول أن ترد  
نفسها إلى طبيعتها الهادئة تستطيع أن تقف إلى حوار أبنى القاسم ، فهو في  
حاجة إلى مزيد من عطفها وتأييدها .

وبعثت خديجة رسلها إلى حراء ليحملوه له راده ويطمئن قلبها الواحف  
عليه ، فلما عادوا إليها يقولون : لم نجد أبا لقاسم في العار . اشتد وجيب  
قلبها واستبد بها خوفها فلم تستطع صرا ، فبعثت رسلها إلى دار أبنى طالب  
ودار العباس ودار حمرة ودار أبنى عب ودور أعمامه كلهم ودور أحواله من  
بى رهرة ليجنوا عنه ، فلما عادوا إليها وقالوا لها لم نجده أحسست أنها تريد  
أن تنهار وأن الفزع قد رلزل كيانه .

وجاءت ريب ورقية وأم كلثوم يسعين إلى دار الظاهرة والخوف  
يلعهن وانقلب بمرور في صدورهن والخيرة تطل من العيون . فلما رأين أمهن  
هرعن إليها يلتمسن عندها السكينة ولكن خديجة صاحبة القلب المؤمن

الكبير كانت ترتجف من الرأس إلى القدم خشية على الرجل الحبيب الذى عاشت معه أسعد أيام حياتها .

وجاء أبو القاسم وفى عيبيه فزع ترتجف بوادره مما فعل به الملك وما قال له ، وهو الذى كان يعد هذه اللحظة الرهيبة منذ استقبلته على يديها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف لما وضعت آمنة فى دار عبد الله ، وراح يقص على خديجة كيف ضمه الملك وكيف أرسله وهو يقول له : اقرأ . حتى إذا ما انتهى أبو القاسم من حديثه وقالت له زوجته : أبشريا بن عم فإنى أرجو أن تكون نبي هذه الأمة . لم تختمل التريث بل أسرعت بارتداء ثيابها وخرجت إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة وقصت عليه كل ما سمعت من أبى القاسم ، فلما قال لها ورقة : إنه التاموس الذى جاء موسى انجفلت إلى دارها تكاد يغشى عليها من الفرح ، فقد تحققت كل آمانيها وأحلامها وأصبح محمد نبي هذه الأمة .

وشهدت خديجة وبناتها أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد انعكس الإيمان العميق على الوجوه المستبشرة . وقالت بنات محمد فى فرح وهن ينصرفن إلى دورهن إنهن سيتحدثن إلى أزواجهن بالنبا العظيم ، ولكن محمدا ﷺ طلب منهن أن يكتمن هذا الأمر حتى يأمره الله بإعلانه . وعند الغروب وقف محمد عليه السلام يصلى وحلقه خديجة ، وبينهما مسترقان فى صلاتهما دخل على بن أبى طالب وظل يرقبهما فى عجب ، حتى إذا ما أتتا صلاتهما تقدم على من ابن عمه وقال :

— ما هذا ؟

فأقبل محمد — صلوات الله عليه وسلامه — على الصبي الذى ترى فى

كنته والذي طالما حدثه حديث الروح وقال :  
— دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله  
وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى .  
مراح على يرمق ابن عمه في دهش ثم قال :  
— هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث  
أبا طالب .

وكره أبو القاسم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له :  
— يا علي إذا لم تسلم فاكم هذا .  
وانصرف على وعمد عليه السلام مطمئن إلى أن الفتى لن يفشى سره فهو  
ربيته تلقى عنه مكارم الأخلاق ، وما كان له شب في حجر النبي أن يخونه  
أو يفشى سرا طلب منه أن يخفيه .

ودخل على لينام وهو يمكر فيما رأى وفيما سمع من الرجل الذي أحبه  
بكل جارية من جوارحه والذي اتخذ أسوة حسنة ، إنه يدعوه إلى دين  
اصطفاه الله لمسه وبعث به أنبياءه فهو يدعوه إلى الخير ، وإن كان قد دعاه  
إلى الكفر باللات والعزى فقد سبق أن غرس ابن عمه الحبيب في نفسه  
كراهية الأصنام جميعا فلم يسجد لللات والعزى ولا لصنم من الأصنام التي  
تكدمت في الكعبة ووضعت من حولها . وراح يزن كل كلمة من  
الكلمات التي قالها لابن عمه لما عرض عليه الإسلام ، إنه قال له إنه لن  
يقضى أمرا حتى يحدث أبا طالب ، وإذا بأفكار أكبر من سه تضر رأسه  
فقد أراد الله له الرشد فأنار بصيرته وجعله يسأل نفسه : آله استشار أبا  
طالب لما أراد أن يخلفه ؟ فما دام الله لم يحدث أباه يوم أن أرادت مشيئته

أن يهب الحياة فماداً يؤجل هو اعتناقه عقيدة حيرة تدعو إلى إله واحد لا شريك له إلى أن يحدث أباه ؟

وأحسن الفتى الصغير سائماً حرية صادقة تهب على وجدانه ، وراح يتذكر كل ما رآه من الأمين من صدق ومروعة ونخوة وإعانة للملهوف وصلة الرحم وخلق كريم فإذا بهامس يهمس في أغواره : إن لم يكر أبو القاسم نبى هذه الأمة فمن يكون ؟

وإذا برحة من الله تطوف به فبات يتحرق شوقاً على طلوع النهار ليعلى إسلامه .

وأشرقت شمس يوم الثلاثاء اليوم التالى لنزول الوحي على محمد ﷺ في حراء ، وتأهب محمد وخديجة للصلاة وإذا بباب يفتح ويخرج منه على ويدفع إلى أبى القاسم وهو يقول في افعال .  
— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وضم محمد ﷺ علياً إلى صدره في حب عميق ، وراحت خديجة تربو إليهما وقد تفرقت في عيبيها الدموع .

وتوضاً على ووقف حلف رسول الله ، ووقفت خديجة خلف على وراحوا يصلون ركعتين لله سرا . وقد أحست خديجة أن الدار تفيض بالأنوار وأنه عما قريب ستضم رسالة السماء المشارق والمغارب ، وستحقق حلمها الذى رآته منذ أكثر من خمسة عشر عاماً .

وجاء ريد بن حارثة فاستقبله أبو القاسم باشاً ثم راح يعرض عليه الإسلام ، فأطرق زيد برهة وإذا بكل حياته مع الرجل الرحيم الذى نباه تمر في محيلته كلمح البصر ، ورن في صميره صوت محمد ﷺ في ذلك

اليوم الذى جاء فيه أبوه وعمه لعدائه : أنا من قد علمت وقد رأيت  
صحبتى بك فاخترنى أو اخترهما ، وإدا به يقول : ما أنا بالذى أختار عليك  
أحدًا . أنت مسى مكان الأب والعم .

اختاره على أبيه وأمه وأهله ، فضله على أسرته وقبيله ووطنه ، وهو  
يعرض عليه الآن أن يكفر بالأصنام وأن يقر بالوهمية الله وحده لا شريك  
له ، وإنها لدعوة تطمئن إليها الفطرة ، وإنه لم يخلق عظيم ، وهو أهل لأن  
يكون لله رسولاً . وأحسن ريد إشراقاً فى ضميره وإنشراحاً فى صدره  
فأعلن عن رضى واختباط إسلامه .

وجلس أم أيمن إلى محمد وحديجة تصعى إليهما وهما يحدثانها حديث  
الدعوة الجديدة التى تنفى الألوهية عن كل الآلهة ثم تثبتها فى قوة الله وحده  
لا شريك له ، ورأت أم أيمن أنها دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ، دعوة يقبلها  
العقل وتبتهج بها الروح وتشرق لها النفس ويطمئن القواد ، فدخلت فى  
الدين الجديد وهى مستبشرة بما أتاها .

وعند الغروب قام محمد ومن خلعه على وزيد ومن خلفهم خديجة وأم  
أيمن يصنون لله ، وباتت دار خديجة هذه الليلة وهى أول بيت مس  
المسلمين .

كانت خديجة قد قطعت كل العلائق بالتجارة وزينة الحياة الدنيا بعد أن رفع محمد ﷺ الحجاب عن قلبها وظهر كل السبل لوصول الحقيقة إلى قوادها وجعلها تنزوق لذة الإنفاق حبا في رضوان الله ، وكانت تعيش على أمل أن تتحقق أحلامها وبشارات الكهان والأخبار والرهبان ويصبح أبو القاسم السبي المنتظر . فلما نزل الوحي على زوجها الحبيب في غار حراء وتأكدت من صدق نبوءته وأن ما جاءه هو الباموس الأكبر الذي جاء الأنبياء من قبله وأنه قد علمه الوضوء والصلاة لرب العالمين ، كاد يغشى عليها من الفرح ولكها أحست بفطرتها السليمة أن نزول الوحي هي بداية الجهاد والشدة ، وأكد صدق إحساساتها قول ورقة للسبي ﷺ : ولتؤذنه ولتخرجنه ولتقاتله .

إنها دعوة وإن أبا القاسم خير من يهص بها ، وإنها جهاد وإنه خير المجاهدين ، وإنها لشدة وهو خير الصابرين على الشدائد ، وإنها قتال في سبيل الله وهو فارسها ، فهو يجيد ركوب الخيل والضرب بالسيف وتسديد الرماية وإنه يدرب ابن عمه الفتى على بن أبي طالب ليثب فارس فريش وحرر صناديدها .

كان إيمانها به ويقدرته ليس له حدود ، وكانت تراه كفئا للمرسالة وأعبائها وإلا لما اصطفاه ربه لرسالته ، وكانت ترى نفسها المتفرحة في الله

المتفتحة لعطايا الله الهائلة في ملكوت الله المتأهبة لتحمل كل الشدائد في سبيل الله حسنة من حسناته ، فهي أول مريدة في مدرسة النور ومكارم الأخلاق .

وأسلت وجهها لله وعرفت لذة مناجاته وطول النظر إليه ، ولكنها كانت متهفة على أن يستعلن أمر الأمين ليخمر النور أفلدة قومها وليهديهم ربهم الصراط المستقيم ، فقلها الكبير كان عامرا بمحبهم بل بحب البشر أجمعين .

وأطلقت لحيالها العان وراحت تفكر في بيوت شرف قريش العشرة ، وكان بنو أسد رهطها أول من فكرت فيهم ، فورقة بن نوفل قس قريش وأكثرهم علما بالأديان قال لأبي القاسم : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة . وهي تحسب أن مثل هذا القول من شيخ بني أسد سيجعل الأسديين يهرعون إلى الدخول في دين الله أفواجا ، وطاف بذهنها ابن أخيها حكيم بن حزام ، إنه سيد من سادات دار الندوة وله مكانة مرموقة بين أشراف قريش ، فلو اعتنق حكيم بن حزام الدين الجديد لشجع ذلك كثيرا من قومه على الدخول في الإسلام . ولكن هل يفعل حكيم ؟

وفكرت في الزبير بن العوام ، إنه ضئ في جلد في الثانية والعشرين من عمره مات أبوه العوام بن خويلد من عشرين سنة في حرب الفجار ، وقد حزنن عليه حزنا شديدا وغمرت ابنه بخنائها فكان يأتي لزيارتها ويجلس إلى زوجها طويلا يلقي إليه سمعه وهو مبهور بمحدثه الشجى الذى لا يرتفع إليه أحاديث حكماء العرب ، وهو وإن كان ابن أخيها فهو في ذات الوقت ابن عمته صفية ، وهو راجح العقل حر التفكير ، وهي على ثقة من أنه

سير حب بالدين الحديد بل سيكون من حيرة جنوده ، فهو لا يزال في مقتبل العمر لم تفسده المطامع الدنيوية ولم تجمد نفسه على التعصب الأعمى للآلهة .

وفكرت في أختها هالة وى ابن أختها العاص بن الربيع زوج العزيزة رينب ، فخفق قلبها حبا وعطفا وخوفا ، فهي نرجو صادقة أن يشرح الله قلبيهما للإيمان بالدعوة الجديدة لأنها تحب لها الخير والسعادة والهداية ، بيد أنها تخشى أن تأخذها العزة بالإثم فتصبح حياة ابنتها المؤمنة التي شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أليمة لقسها العض الذي تفتح الحياة مشرقة جديدة على قومها .

واشتد وجيب قلبها واستولى عليها خوف شديد لما احتلت العريرتان رقية وأم كلثوم صفحة رأسها ، إنها تهللت بالفرح لما شهدت العريرتان بوحداية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، ولكنها لما فكرت في ماها في دار أئى هب بعد أن كفرتا بآلهة قريش استشعرت كأ أن يدا قوية تعتصر قلبها عصرا ، فعتبة ومعتب العوبتا في يد أمهما أم حميل ، وهى قاسية القلب عيفة في عداوتها قد فؤاذاها من صخر ، وأبو هب رجل أطلق لشهواته العنان يمسى وقته في الشراب والمقامرة والتنايد بالألقاب فهو يمجّد الآباء والأجداد ولا يطبق من تسول له نفسه أن يمس معتقداتهم بسوء ، فلطالما سخر من الذين يفكرون في بذر آلهة آبائهم ليعتقوا اليهودية أو النصرانية أو الخوسية أو غيرها من الأديان .

ولف خديجة وحوم فمستقبل بناتها قد بات يتأرجح ، فإن استعلن أمر محمد ﷺ ولم يدخل أرواجهم في الدين الجديد فستغرق في وجوههم



أبواب الأزواح وسيعدن إليها كسيرات الفؤاد . ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وماذا يستطيع أبو القاسم أن يفعل غير أن يستمر فيما يأمره الله به بعد أن اصطفاه ، إنها الرسالة وإن أعبأها ثقيلة لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرجال .

وهمست حديجة في إيمان : « فلتأت مشيئة الله بما يشاء » . وراحت تعجم أعواد بنى هاشم فأبو طالب يحب محمدا حبه لولده أو أشد ، وهو سيد بنى هاشم ورعيمهم وإن كان يقاسى قلة في المال ، وهو راجح العقل وقد اعتاد أن تكون كلمته هي العليا . أفيرضى بعد أن ذهبت السنون وبغ من العمر عتيا أن يكون تابعا لابن أخيه وإن كان رسول رب العالمين ؟ وأتت عقلية حديجة التي تمرست في التجارة وفي الحساب وسير أغوار الرجال أن تتحدع بمسها وتصدق أن أبا طالب سيعرج بالدين الحديد وسيدخل فيه راضى النفس . وأحسست كدرا فهي تقدر أن طالب وترى أن وقوفه إلى جوار الأمين كسب للدعوة الحديد ما بعده كسب ، وثمنت صادقة لو أن الأيام تكذب حدسها ويختصن شيخ الهاشميين رسالة السماء ، حتى يشرق النور على العالمين .

وورد على دهبها عمه العباس بن عبد المطلب ، إنه مشغول عن الآهة بتجارته وبأمواله الممدودة التي يقترضها بالربا ، وهو سعيد بأن صارت إليه السقاية والرفادة ، وهو يسقى الخجيج ويطعم فقراءهم ليقال إنه جواد ولشرف الدي ولأحاديث والذكر ، وهو طيب القلب معدنه نفيس ، فلو أنه طرح كبريائه للبي داعي ابن أخيه . أما روجه أم الفصل فهي انطية والطهارة والخلق الكريم ، وقد دارت بينهما أحاديث عن ( دعوة إبراهيم )

الأمين فكانت أم الفصل تشرق بالمرح كلما قالت لها : إنها لترجو أن يكون أبو القاسم نبي هذه الأمة . وها هو ذا أبو القاسم قد صار نبيا فلو أنها بعثت إليها بأن أحلامها قد صدقت وأن الله قد أرسل محمدا عليه السلام رسولا لآمنت به وصدقته وهرعت إليه والدموع تترقق في مقلتيها .

واحتل دهنها حمزة بن عبد المطب وقد تنكب قوسه وركب فرسه ، إبه أحوه في الرصاعة رفيق طفولته وشريكه في حرنه على عبد المطب وصديق الشباب وإن اتخذ كل منهما سبيلا ، فقد أثر عمد العزلة وانغمس حمزة في مجتمع قومه ومع ذلك كان الود بينهما متصلا ، وكان الفارس معجبا بابن أخيه الأمين الذي اشتهر بخصاله الحميدة ، وإن خديجة لتطمع في أن تقوده فروسيته إلى الطريق القويم . إلى الإيمان بوحداية الله ورسالة ابن أخيه .

وحظر على فكرها أبو سفيان بن الحارث ابن عم الأمين الذي يشبهه والذي كان يلارمه على الدوام ، وذكرها الحارث بشباب الهاشميين طالب وعقيل وجعفر فألقت نفسها تنهل بالأمل ، فقد رأت فيهم شباب الدعوة الذين سيتحمسون للدين الجديد ، وامتدت أحلامها إلى عمته عاتكة التي ربطت الأسباب بين بني هاشم وبني مخزوم بزواجها بأبي أمية بن المغيرة . إنها تحب ابن أخيها حبا جما وهي التي جاءت إليها أيام كانت تستأجر الرجان للخروج في تجارتها وعرضت عليها أن تستأجر ابن أخيها محمد بن عبد الله ، فلو أنها آمنت برسالة محمد لتبعها ولداها عبد الله وزهير ومن يدري فقد يتفشى الإسلام في بني مخزوم بفضلها .

وطاف بها حاطر : لو أن الوليد بن المغيرة اعتنق الدين الجديد لتبع بنو

مخروم سيدهم ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا . أو يعقل أن يتنازل الوليد عن مكانته وأن يطمئن كبريائه بيده ويسلس قياده لتييم قريش ! وأبو سفيان بن حرب ما يكون موقفه من الدعوة ؟ إنه سيضع أصابعه في أذنيه ولن يستجيب لداعى السماء ما دام ابن عبد الله سيتزعزع الزعامة من الأمويين للهاشميين . إنه لا يستطيع أن يرى إلا أنها منافسة بين الهاشميين والأمويين ولن يقر أبو سفيان لأحد غيره في قريش كلها بالسيادة .

وعتبة بن ربيعة سيد عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام ( أبو جهل ) ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، والأرقم بن أبي الأرقم . والمطعم بن عدي ، وعقبة بن أبي معيط ، والحارث بن كلدة الثقفي طيب العرب زوج خالته ، وابنه النضر ، ماذا يكون موقفهم منه ؟ وأحسست حديجة قشعريرة تذب فيها من الرأس إلى القدم إشفاقا على زوجها ، فالطريق محفوف بالصعاب والأهوال . وقبل أن تستسلم تخافها لاحت لعين ذاتها الحقيقة ناصعة ، إنه ليس وحده ، إنه مع الله ، ومن كان مع الله كان الله معه .

وجاءت جارية حكيم بن حزام لزيارتها فأقبلت عليها متفتحة النفس وراحت تقص عليها بعض ما كان في غار حراء وتخبرها أن الله قد اصطفى محمدا ﷺ لرسالته ، وما كادت حديجة تتم حديثها حتى أسرعت الجارية إلى مولاهما ، ودخلت على حكيم وعده أبو بكر فقالت له :

— إن عمتك حديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل مثل

موسى .

وخفق قلب أبي بكر ، إنه كان يكثر غشيانه في منزله وكان يحاوره

فكان يعجب بأصالة أفكاره ويرى أنها فيض من الله . وقد سمع قول ورقة  
 أنه لما ذهب معه إليه فكان يترقب في لهفة أن يسمع من محمد ما يكون بعد  
 أن آت إلى حراء عقب أن طلب منه ورقة أن يثبت إذا ما سمع الصوت الذي  
 يناديه ورأى النور الذي يعشى العار ، ولكنه لم يعلم أن صديقه قد فعل  
 عائدا من تحشه يحمل رسالة السماء .

ولم يستطع أبو بكر صبرا فاستأذن في الانصراف وانطلق إلى دار  
 حديجة وقد تذكر رؤياه التي رآها ، فإنه رأى القمر ينزل إلى مكة فدحل  
 في كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه في حجره ، وإنه ليحس الساعة أن رؤياه  
 صادقة وأنه في طريقه لتحقيقها .

لم تكن بأبي بكر غطوسة وما كانت له رعاية مهددة بالزوال وما كان  
 من المؤمنين بالأصنام ، بل إنه كرهها منذ أن قال لإلهه إني جائع فأطعمني  
 وظل إله غارقا في بنه وسكونه ، وما كان ذمه معقا وما كان صاحب  
 هوى ولا حليف الشهوات ، فهو يريد جوهر الحقيقة ، وإنه ليرى في  
 صديقه الأمل الذي يحق في قلوب طلاب الإصلاح ، فما إن سمع مولاة  
 حكيم تقول إن حديجة ترعم أن زوجها سى مرسل مثل موسى حتى صدق  
 أن محمدا رسول الله حتى قبل أن يلقاه .

ووقف أبو بكر على باب حديجة بطرقه في انفعال ، ومرت لحظات ثم  
 انفرج الباب عن جارية قادمة إلى حيث ينتظر ، ثم ذهبت إلى حيث كان أبو  
 القاسم وأهل بيته وأبناؤه يقدمون عتيق بن أبي قحافة .

وذهب محمد — عليه السلام — للقاء صديقه ، وقامت حديجة وقد  
 تحركت عواطفها لتسمع ما يكون بين الصديقين وكانت على ثقة من أن

ابن أبي قحافة سيستحيب لدعوة الحبيب ، ودخل أبو القاسم على صديقه مشرق الوجه فقام إليه أبو بكر وقال في انفعال .

— يا أبا القاسم ! ما الذي بقى عنك ؟

فقال النبي ﷺ في هدوء :

— وما بلغك عني يا أبا بكر ؟

— بلعني أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله .

نعم يا أبا بكر إن ربي جعلني بشيرا ونبيا و جعلني دعوة إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعا .

ودق قلب خديجة في صدرها وأرهمت سمعها ، ولم يطل انتظارها فقد

سمعت أبا بكر يقول في صوت يسم عن الصدق والإيمان عما يقول :

— والله ما جريت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك

وصلتك لرحمك وحسن معالك . قد يدك فإني مابعك .

وعمر خديجة فرح فياض ، فما تردد أبو بكر ولا أي عليه ولا أرحمه

في الكلام ، بل قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله . فاندفع

خديجة إليه مستشارة وعليها خمار أحمر ، فقالت .

— لحمد الله الذي هدك يا ابن أبي قحافة .

وانصرف أبو بكر وما بين لابتها أشد سرورا من رسول الله ﷺ

بإسلامه .

١٦

جاء الليل فعاد سعد بن أبي وقاص إلى الدار ، فكان أول ما فعله أن ذهب إلى أمه يعمرها بحبائه . ومد الطعام فجلس إلى جوارها يطعمها أطييه ، يماسه أخوه عامر في اللعب والعطف عليها . كانت أسرة هائلة سعيدة تفرح عليها السكينة وتطوف بها آمال متواصلة ، فما كانت أمانى الأم لتمتد إلى أكثر من أن يوفق سعد في صاعقة يرى البهل وأن ينجح عامر في تحارته .

وكان وقت النوم فنهضت الأم إلى الصنم لموجود في البيت لتؤدي له صلاتها وهي توصي ولديها بالصلاة للآلهة شكرا انقاء لشرهم في الدنيا وجلبا للرزق وإطالة العمر على الأرض ، وكانت أمهما مؤمنة بآلهتها متعصبة عاية التعصب لتقاليد قومها يضيق صدرها بأية بادرة نسيء إلى دينها أو تخدش قدسيته ولو من بعيد .

ونهض سعد وهم بأن يتمسح بالصنم ولكنه وجد ثقلا في نفسه ، إنه سمع من أبي القاسم كلاما بدر الشك في عين داته في قدرة آلهته على القدرة ، إنها أحجار صماء تحتها الناس ثم عبدوا ما يحتون عرورا . وقد سمع من أبي بكر وهو من الخفاء الذين أنكروا دين قريش وعبدوا الله وحده تسفيها لمعتقدات قومه استراح له عقفه ، فقد كان في التاسعة عشرة من عمره يتلمذ باحثا عن الحقيقة ، ولم تكن نفسه قد تحجر فيها ما لقن من

عقائد وما اكتسب منها من طول انعماسه في مجتمعه .

كان يستشعر كلما جلس إلى أبنى القاسم أنه بين يدي رجل فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في قلبه فجرت الحكمة على لسانه . وكان يتمنى في أغواره لو أنه يستطيع أن يقبس من نوره قبسا ينير بالحكمة وجدانه ، فقد كان يطمع في أن تتلأأ في فؤاده حقائق الأمور .

إنه يحس إحساسا صادقا يعظمه الأمين ، فما من مجلس كان فيه أبو القاسم إلا وقد تضاءل الرجال إلى جواره ، فشخصيته آسرة إن صمت ، وإن تكلم استولى بفصاحته على القلوب وجذب إليه النفوس لتسعد بالهيام في دنياه الصافية الرقاقة الخفاقة بالحقيقة واليقين .

وألقي سعد نظرة ازدراء على الصنم ثم أولاه ظهره وسار إلى فراشه يحس راحة في ضميره وطمأنينة في فؤاده ، واندس فيه وأسلم جنبه للرقاد وسرعان ما خطفه النوم فراح في سبات عميق .

ورأى نفسه في ظلام دامس وهو يحاول الخروج منه كلما خرج من ظلام دخل في ظلام ، فانبهرت أعيناه وهو يضرب في الظلمات ، واستولى عليه فزع وهلع واضطراب ، وبينما هو في ضيقه وتبرمه إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجر الظلام ، ضفرس في القمر في استبشار فرأى أبا بكر وعلى بن أبن طالب وزيد بن حارثة يطلون من القمر ويشيرون إليه أن يلحق بهم ، فقال لهم :

— متى انتهيم إلى ها هنا ؟

فقالوا له :

— الساعة .

وهب من نومه يحس كأنما حلمه قد حفر في قلبه ، وتولته دهشة  
لإجتماع أبى بكر وعلى وزيدى مكان واحد وأين ؟ فى القمر ، إنها رفعة ..  
إنها إشراق لطيف .. إنها دعوة لأن يرتفع مثلهم .. لو دعاه أحدهم إلى  
خير لاتبعنه .

وفى الليل هاربا أمام النهار فغادر سعد فراشه وذهب إلى حيث كانت أمه  
ليلقى عليها تحية الصباح فإذا بأخيه عامر قد سبقه إليها وراح يسبع عليها  
عطفه ، فأقبل عليهما مشرق الوجه يبدل لأمه كل نفسه لعلها ترضى .  
وخرج سعد إلى عمله وجلس يرى النيل لفرسان قريش المخارجين  
للقصص ، فأقبل يومئذ بن العدوية أسد قريش ، وخالد بن الوليد فارس بنى  
مخزوم ، وحمزة بن عبد المطلب وشاب مكة المولع بالصيد ليبروا  
سهامهم ، ودار بينهم حديث شائق حول صيد العرلان وصيد الحسان  
وسعد غائب عنهم بالتفكير فى الرؤيا التى رآها .

وخرج أبو بكر من داره وقد عزم على أن يدعو إلى الدين الذى اعتنقه  
من يثق فيهم من شباب قريش وكان على ثقة فى أنهم سيستحبون لدعوته ،  
فهو معظم فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من أعف الناس  
محبت فى قومه حسن المجالسة من أعلم الناس بتعبير الرؤيا وأعلم الناس  
بأنساب العرب وما فيها من خير وشر ، ولكنه ما كان يعد مساوئهم ومن  
ثم كان محبا فيهم . بخلاف عقيل بن أبى طالب فإنه كان مبعضا إليهم لأنه  
كان يعد مساوئهم .

كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم يستعيون به فيما يأتهم ،  
وكانت له بمكة صياغات لا يفعلها أحد ، وبعده كسى بأبى بكر لابتكاره



الحصائل الحميدة ، فكان المتطلعون إلى مستقبل أفضل لمدينتهم المقدسة  
يهرعون إليه بعد أى القاسم ليجدوا عبده النور الذى ينير لهم السبيل .  
وجاء أبو بكر إلى سعد فألفاه فردا بعد أن انصرف فرسان قریش  
للهو ، فقال له :

— جفتك يا سعد فى أمر دى بال . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن  
عبد الله ومقدار صدقه وأمانته ، فأنت حاله وهو منكم .  
فقال سعد فى حماس :

— إن محمدا غير متهم . فهو يؤدى الأمانة ويصل الرحم ويقرى  
الضيف ويعين على نوائب الدهر .

— قد نزل على محمد وحى من السماء أخبره أنه نبي هذه الأمة ، وأمره  
أن يدعو إلى عبادة الله وحده .

— أيكفر باللات والعزى ؟

— نعم ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا  
تملك لنفسها شيئا ولا تدفع عن نفسها صرا .

— ومن تبعه على دينه هذا ؟

— أنا وعلى بن أبى طالب وريد بن حارثة .

وتذكر سعد رؤياه فقال فى انفعال :

— وأين رسول الله الآن ؟

— فى شعب أحياد يعبد الله مستخفيا .

كان النبي ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه  
على مستخفيا من قومه فيصليان فيها ، فبينا هما فى صلاتهما إذ عثر عليهما

أبو طالب فوقف بنظر في دهش ، حتى إذا ما أتما صلاتهما قال لابنه :  
— ما هذا الذى أنت عليه ؟

فقال على :

— يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه .

فالتفت أبو طالب إلى أبى القاسم وقال :

— يا بن أحمى ما هذا الذى أراك تدين به ؟

فقال محمد ﷺ وهو يطمع فى إسلام عمه الذى يحبه من كل قلبه .

— هذا دين الله ودين ملائكته ورسنه ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به

رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بدلت له الصيحة ودعوته إلى الهدى

وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعانى عليه .

كان أبو طالب يرى أن الله أجل من أن يعث بشرا رسولا فقال :

— إن لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه .

ثم التفت إلى ابنه على ولم ينهره بل قال :

— أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

وانصرف أبو طالب وجاء أبو بكر والفتى الدحداح سعد بن أبى

وقاص وكان فى التاسعة عشرة من عمره سليم القلب خالص النية ، وما إن

وقعت عيناه على محمد ﷺ حتى استشعر رهبة وإجلالا ، وراح النبى

ﷺ يعرض عليه الإسلام ثم قرأ : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ خلق

الإنسان من علق ﴾ اقرأ وربك الأكرم ﴾ الذى علم بالقلم ﴾ علم الإنسان

ما لم يعلم ﴾ . فأخذ سعد بعلوية القرآن وفتن برقته وانتشى بحلاوته

وكان لجرسه وقع عظيم فى نفسه ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا ، وما مالت الشمس للغروب حتى وقف يصلى لله فدخلت عليه أمه فألفته قد حر ساجدا ، فرمته في عجب فإذا به يصلى صلاة لم تألفها فقالت :

— سعد ! سعد ! ماذا تفعل ؟ ولئن تسجد ؟

وأتم صلاته فقال لها :

— أسجد لله رب العالمين . إني أدعوك يا أماه إلى الله وحده لا شريك

له وإلى الكفر باللات والعزى وشهادة أن محمدا عبده ورسوله .

فقالت أمه في فزع :

— سعد .

— إيه دين حسن يدعو إلى الراحم والنواد والتقوى وصلة الرحم وبر

الوالدين .

— إني لا أمارق دين أبى أبدا . ثب إلى رشدك يا سعد .

— استمعى إني يا أماه عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

— أأنت تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟

— نعم .

— والله لا أكلت طعاما ولا شربت شرابا حتى تكفر بما جاء به محمد

وتمس إساقا ونائلة .

— لا . لا تفعل يا أمت .

— لتدعن دينك أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعيرني

— إني لا أدع ديني .

وجاء أوان تناول الطعام فدعا سعد وعامر أمهما إلى العشاء فبُيت ، فتركها سعد وطل عامر يحاول أن يشبها عن عزمها دون جدوى ، وانقضى يوم وأم سعد على عهد لها لا تأكل ولا تشرب . ثم مر اليوم الثانى وهى لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد خمدت ، فجاء إليها سعد وقال :

— تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس نحرح نفسا نفسا ما تركت دين هذا السبى ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى .

وراح أهل الدار يمتحون فاهها ثم يلقون فيه الطعام والشراب ، فلما فتحت عينها التفتت إلى عامر وقالت لسعد تعيره :

— هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

وخرج سعد إلى شعب أجياد يصلى مع السبى وعلى وأبى بكر ورید مستخفين ، فلما صلى الركعتين اللتين يصلوهما بالعشى عاد إلى الدار فوجد أمه على الباب تصيح :

— ألا أعوان يعينونى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت وأطلق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟

فقال لها سعد وهو حزين :

— لا أعود إليك ولا أقرب منزلت .

فرجع من حيث جاء وأمّه تتميز عيظا فقد أحست الفريضة ، وما كان ينور بخندها أن يعصى سعد لها أمرا أو يخيب رجاء وهو البار بها المتعاقب فى رصاها . ترى ما كنه هذا الدين الذى استولى على لبه ؟ سحره محمد ورب الكعبة .

وراحت ترقب عودته نادما مستغفرا ولكن الأيام تمر وسعد لا يثوب

إليها فتشعر أنها تكاد تختنق احساقا ، وتأبى كرامتها أن ترضح لذلك العقوق فتضطرب على مضض ثم ترسل إليه :

— عد إلى منزلك ولا تتضيف فيلزمنا عار .

فرجع إلى منزله فمرة تلقاء بالبشر ومرة تلقاه بالبشر وتغيره بأحبه عامر وتقول :

— هو البر لا يمارق دينه ولا يكون تابعا .

ولم يخطر لأمه حمدونة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس على قلب أن سيأتي يوم قريب يشرق فيه نور الإسلام في فؤاد ابها عامر ، وأنه سيقبى منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى ، وأنها ستعطي آلتها عهدا ألا يظلمها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صباه .

## ١٧

كانت الشمس تنحدر في الأفق الغربي لتختفي خلف جبال مكة ، وكان الناس في الحرم يطوفون بالبيت أو يجلسون في المسجد وقد انتشرت بطون قريش في نواديهم ، ودخل سادات القوم دار الندوة تلك الدار التي أصبحت لحكيم بن حزام . وكانت غاية آمال شباب قريش أن يكون هم في ذات يوم رأى في تلك الدار التي تيسط سلطانها على أهل الحرم .

وكانت السادة والعبيد من كل دين ومن كل مذهب يمارسون شعائرهم في حرية في جنبات أول بيت وضع للناس ، فقد كان حرماً آمناً تحبى إليه طيبات كل شيء ، وكان أهله متسامحين مع كل الملل والنحل ما دام أصحاب المذاهب لا يتعرضون لأهتهم بسوء ، ولا يهاجمون دينهم ، ولا ينتقدون سوء توزيع الأموال بينهم ، ولا يحاولون أن يخلدوا من حرياتهم الجنسية أو يكبحوا جماح شهواتهم الضارية .

وكان في الطائفتين بالبيت والخالسين حوله من أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والذهر المفقى ، ومهم من أنفروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة ، ومهم من أنفروا بالخالق وابتداء الخلق وبوع من الإعادة ، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنها شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالماسك والمشاعر وأحلوا وحرموا .

وكان منهم حفاء يعتقدون بوحداية الله ويحاولون أن يهتدوا إلى ملة أبهم إبراهيم ، وما كانوا على هدى واحد بل كان كل منهم يعبد الله على قدر جهده واجتهاده وقد صربوا جميعا في البلاد بحثا عن دين إبراهيم ، فعنهم من تصرأ أو تهود ومهم من بقى على ديه ينتظر مبعث النور .

ووضع نصارى العرب تمثالا لمريم وهى تحمل المسيح بين تمائيل اللات والعزى ومناة وهبل وود وسواع ويغوث ويعوق وسر أصنام قبائل العرب ، فما وجد العرب فى ذلك غرابة فما يضمرهم أن يضاف تمثال إلى الثلاثمائة وثلاثين تمثالا التى كانت فى جوف الكعبة ومن حولها .

ومهم من كان على دين المجوس ، ومهم من كان يصبر إلى الصابئة ويعتقد فى الأنوار اعتقاد المجسمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من لأنواء ، ومهم من كان يصور إلى الملائكة فيعبدهم ، بل منهم من كانوا يعدون الجبر ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله

كانت الحرية الدينية مكفولة للجميع لا عن سماحة خلق بل لأن أهل مكة كانوا يعيشون على الاتجار بالدين . وماذا يهمهم من تعبد المتعبدين ما

دامت حريتهم الجنسية مكفولة ، وما دامت أموالهم تربو مع الأيام ، وما دامت الخمور تجلب من الشام . وما دام الناس يمتدحون الأيسار الذين يمحضون سواد الليل فى الميسر والتتايد بالألقاب ، وما دام الأشراف والسادة يجمعون الذهب والفضة من فتياتهم اللاتي يجلسن للبغاء .

\*\*\*

ومن خباء قريب من حيث جلس العباس بن عبد المطلب خرج محمد صلى الله عليه وآله فتنظر إلى الشمس . فلما رآها مالت ذهب إلى شر زمزم فتوصأ فأصبح

الوضوء ثم حرج غلام مراهق فتوضأ ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فتوضأت . ثم قام محمد ﷺ يصلي وقام الغلام إلى جنبه وقامت المرأة حقيقهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت امرأة ، ثم خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة .

وكان عند العباس عفيف الكندي وكان امرأ تاجرا قدم للحج وأتى العباس ليلتاع منه بعض التجارة وكان العباس له صديقا ، فراح يرمق المصلين في دهش ثم التفت إلى العباس وقال :

— ويحك يا عباس ، وما هذا الدين ؟

فقال العباس في بساطة :

— هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخي يزعم أن الله بعثه رسولا . وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه امرأته خديجة .

ترى أكاك العباس يعمم أن روجه أم الفصل قد أعست إسلامها في ذلك اليوم وأنها شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ؟ وأن أسماء بنت أبي بكر قد دخلت معها في دين الله ؟

وكان عثمان بن عفان في طريقه إلى داره ، وما إن دخل حتى ألقى خالته سعدى بنت كريب عند أمه أروى فراحت تحدّثه عن محمد ﷺ وعن الوحي الذي نزل عليه من السماء وعن صفات الأمين ، وتؤكد له أنه نبي هذه الأمة الذي بشرت به الأنبياء . وجعلت تحثه على اتباعه وهي تزين له الإسلام .

كانت أم أروى وسعدى بنتي أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وكانت وعبد الله توأمين . فكان محمد ﷺ ابن خالهما وكانتا تعرفان عنه أنه أجود



الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا . وأصدق الناس لجة ، وأوفى الناس دمة ، وألبهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، قد قطع كل علائقه بالدنيا ليتصل بربه ويشرق نور المعارف في صدره . وقد توجت عرله وتعبده لله وحده بأن اصطفاه ربه وبعثه رسولا للعالمين .

وكان لعثمان مجلس من أبي بكر وكانا كلما تحاورا تحدثا عن الدين . ويا طالما أسهب أبو بكر في حديثه عن محمد ونحسه ومحته للعرلة وزمده في الدنيا وهو انقادر على أن يكون من أعظم تجار مكة ومن أثريائها ومن أشرف رجالها ، فكان يبتدى إلى أن أبا القاسم ما هجر اللذات وفرض على نفسه حياته الخشنة التي يحياها إلا لشيء أسمى من اللهو والتجارة

وكان عثمان يتهلل بالفرح الروحي الفياض كلما جلس إلى أبي القاسم وأعاره سمعه ، فقد كان يحس كأنما حديث ابن حال أمه يرفعه من الأرض إلى السماوات ويجعله يحق في ملكوت صبيح من مكارم الأخلاق

وهض عثمان واطلق فاصدا أبا بكر والأفكار تنزاحم في رأسه . إنه تسمى ذات يوم أن يتزوج رقية بنت محمد وكانت من أحمل حيق لله . وما كانت رغبته فيها بذلك الخيال فحسب بل ليربط الأسباب بينه وبين ذلك الرجل الكريم الذي تسدل محته إلى قلوب الناس ، ويتيسر له أن يهل من يبعوع الحكمة الذي تصحر في قلب محمد من طول سهره مع الله . ولكن بينما كان في فناء الكعبة قيل : أبكح محمد عتبة بن أبي لهب بنته رقية . فدخلته حمرة ألا يكون سبق إليها ، فإن كان رواح رقية من عنة قد أنعده عن ارجل الذي تعلق به فؤاده فهذه الدعوة الفاضلة التي يدعو إليها ستجعله يدنو منه دنوا يشرح صدره ، ويسر له قبس النور من بيع النور .

( دعوة إبراهيم )

وجاء أبا بكر فأصابه وحده ، وأطرق متفكراً فسأله أبو بكر عن تفكيره فقال :

— انصرفت إلى منزلي فوجدت خالتي سعدى بست كرير فأحبرتني أن الله أرسل محمدا .

فراح أبو بكر يربعه في الإسلام ويبحثه أن يكون من أوائل المبلين لداعي الله وعثمان يصع في اهتمام ويستشعر كأن نورا يصيء في جوانحه وبردنا ينزل على قلبه وسلاما يعربل روحه ، وبنا الور يتداح في ظلام نفسه مر رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوبا ، فقام أبو بكر وهمس في أذن صاحبه ، فقعده ﷺ ثم أقبل على عثمان فقال :

— أجب الله تعالى إلى جنته فإن رسول الله إليك وإلى جميع خلقه .  
فما تمالك عثمان حين سمعه أن قال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

وذاع في بني أمية أن عثمان قد دخل في الدين الجديد . وما إن صك ذلك البأ أذني عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية والد مروان بن الحكم حتى ثار ، وأعصبه أن يتنكر ابن أخيه لآهة آبائه فذهب إليه يحاول أن يشفيه عن ذلك الدين ، ولكن عثمان وقف في وجه عمه كالطود الأشم ، فلما قل سلاح الإقناع بالحسني أخذه عمه فأوثقه كئافا وقال :

— ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أصلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه

فقال عثمان في صلابة :

— والله لا أدعه ولا أفارقه .

واستمر الحكم في تعذيب عثمان وعثمان لا يهن ولا يضعف ولا يتزعزع  
إيمانه بل يظل صلب في الحق ، فخشى عمه أن يفتن الضعفاء به فأطبقه وهو  
كاره حائر لا يدري أحسن ساعة أن أوثقه أم أحسن ساعة أن أطلقه أم أساء  
في الحالتين !

وكانت الأفكار التي تدور حول محمد قد ملأت رأس الزبير بن  
العوام ، إنه ألقى سمعه إلى عمته خديجة فحدثته عن أبي القاسم أحاديث  
عجيبة استولت على لبه وأسرت قواده ، وأغار أمه صفية أذنيه فإذا بها  
تروى عن ابن أخيها روايات تتسرب إلى عين داته وترفع الحجب عن وجه  
الحقيقة فيستشعر كأن شيئا غامضا مثيرا يجذبه إلى صاحب الشخصية  
الفذة الأسرة الحبيبة .

إن علي بن أبي طالب قد أسلم وهو الفتى الذي لم يتجاوز بعد لعاشرة  
من عمره أعلى إيمانه بالدين الجديد بعد أن استبان لعين بصيرته جمال  
الدعوة ، وهو قد بلغ الثانية والعشرين فما الذي يقعه عن الإقرار  
بوحدةانية الله ورسالة الرجل الذي اصطفاه ربه لهداية البشر ؟!

وانبعثت من أعواره هتافات تهيب به أن آمن بالله ورسوله ما دام نور  
اليقين قد أنار قلبك ، فلم يجد ملاذله إلا أن يأتي أبا بكر الرجل الذي يفزع  
إليه في كل ما يشغله ، فانطلق إليه يستشير به وإن وضحت لعبيه معالم  
الطريق .

ودخل على أبي بكر وكان يألفه وراح يحدثه عما يساوره من أفكار ، فإذا  
بالرجل الحكيم يرغب في الإسلام ثم يقوده إلى حيث كان محمد ﷺ لينطق  
بالشهادتين اللتين اطمأن بهما قلبه .

وسمع عمه ، الذى ثار على صفيه يوم أن رآها تضرب ابن أخيه وهو صغير واتهمها بأنها لا تحبه، أن ابن العوام كفر بالآلهة قومه واتبع من جعل الآلهة إلها واحدا ، فانقشع من قلبه كل عطف على الفتى اليتيم وذهب إليه والغضب يطل من عينيه وأمره فى حدة أن يقلع عن تلك الصبوة التى عبث بعقله بكأما الإيمان يمر مرعوبا أمام سورة الغضب ، وراد فى حنقه أن الزبير لم يرتعد فرقا من خشيته بل قال فى جنان ثابت :

— لن أفارق ديني .

وشد عمه وثاقه وجاء بدحان يعدبه به فملأ عينيه وسال منهما الدموع وراح يخز مقلتيه وخزأما أقساه ، ونسرب إلى رثيه فراح يسعل وقد ضاق نفسه حتى خيل إليه أنه الموت وأن روحه تكاد أن تمر من بين جنبيه ، ولكن حلاوة الإيمان كانت تطفى على كل الآلام فكان يثبت على ديبه فى إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد .

إنه عانى شدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالحبال لا تززعها عواصف عذاب قد يؤلم الحسد ولكن يعجز عن أن يصل إلى الروح ، وهى شدة هيأت أحسن الفرص لفود سر الله إليه فقد طهرت صميمه من الأدران كما تنهر النار المعادن من الخبث .

لم تكن معتقدات قومه كافية لإشباع طموحه بعد أن اعتاد أن يجلس إلى ابن حاله الأمين ويسمع حديثه عن ملكوت السماء ، فلطالما ذهب لزيارة عمته خديجة وما أكثر ما شارك على بن أبى طالب وزيد بن محمد متعة الإصغاء إلى الرجل الذى تخرج الحكمة من بين شفثيه ، فلما بعثه أن الله بعث أبا القاسم رسولا وألقى سمعه إلى الدين الجديد وجد فى دعوة ابن حاله

روحاً جديداً يؤذن بتجديد شباب البشرية وإعادة الكرامة إلى الإنسانية ، فوطد النفس على أن يكون له طهيراً يؤيده وينصره ويقف معه في وجه كل طغيان حتى يجرح الناس من الطغمان إلى الوراء .

\* \* \*

والتقى أبو بكر بلال مولى نبي جمع فقال له :  
— طهر نبي هذه الأمة .

فقال بلال في اهتمام :

— من ؟

— محمد بن عبد الله .

فأحس بلال طمأنينة تزل بقلبه وراحة تنساب إلى ضميره وتستقر في وجدانه ، فهو يعرف لمحمد ﷺ صدقه فلم يحرب عليه كدباً قط . وعرف له أمانته التي داعت في الآفاق وحسن حلقه وطهارة قلبه الكبير الذي يتسع لكل الناس ، فهو ليس فظاً غليظ القلب كسيده أمية بن خلف ، ولا يتصف بالصلف والعروور الذي يملأ جوارح أي الحكيم بن هشام ، وهو كريم حواد م يعرف عه البخل الذي كان صفة لأي سفيان ، ليس بصخاب في الأسواق ، لا فرق عنده بين سيد وعد ولا أبيض ولا أسود ، فهو حليق بالرسالة وهو كفء لحمل الأمانة

وشرد بلال يكر في حصال أي انقاسم وهو مبهور بشخصيته العدة التي ليس لها مثال في الناس ، ولا عرو فهو ربيب السماء صعه الله على عيه واصطفاه وجعل فيه نوراً يجذب إليه البصائر قبل الأبصار ، وراح أبو بكر يسط للال دعوة محمد ﷺ — فيقول .

— إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار إلى عبادة خالق السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والسحوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياح ، والهواء والغياض ، إن دعوته لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل . وتحل الطريق بين العبد وربّه بدخل إليه بغير واسطة ويتقرب إليه بغير رلفى . إنه يدعو إلى التراحم والتوَادد والبر والتقوى ، وينصر من الوَاد والعطيمة . إن دعوته لئناء الدنيا وسعادة الأبد .

وانطلق أبو بكر وبلال إلى دار خديجة ودخلا على محمد ﷺ ، فإذا ببلال يرى بعين ضميره كأنما الكون كله يفيض بأنوار سماوية . وراح أبو القاسم يعرض على بلال الإسلام فإذا يخشوع ينزل بمؤاده ، وإذا بلسانه يتحرك بوحى من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان : شهادة بفى الربوبية عن الآلهة جميعا وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عند الله ورسوله .

ونلأ فى نفس بلال الإحساس بالخير الأسمى ، وشاع فيها الرضا بعد أن محق الشرك من قواده وأنصف ذاته ، بل البشر جميعا ، لأن الشرك ظلم عظيم . وغادر بلال دار البؤة وهو مرفوع الرأس يستشعر الراحة والرضا ، وكأنه قد خلق خلقا جديدا . فقد دخل على محمد ﷺ — وهو عبد لى جمع وخرج من عنده وهو عبد لله وحده ليس عليه سلطان إلا ربه ، وهام فى الوجود مستبشرا عظيما فى نفسه قد هان فى عييه كل سلطان أرضى بعد أن ربط الأسباب بييه وبين السماء .

وأصبح بلال سابق الحشة إلى الإسلام من أتباع محمد ﷺ —

يختلف إليه حينما تعفل أعين الناس ، في قائمة النهار حيا وتحت ستار الظلام أحيانا ، يرشف الحكمة من نبع الحكمة ويتأدب من مؤدب البشرية وينهل الشجاعة من معين الشجاعة ويتزود بالتقوى حيز الراد ، ويتعمد أن الناس سواسية ، وأن لا فصل لعزى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بصاخ الأعمال .

وسرى الهمس في مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي يدعو سرا إلى توحيد إله واحد . ويلغ الهمس دار سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل فإذا بسعيد يتذكر وصية أبيه الذي هجر دين آبائه وآمن بالله وحده ووقف على باب الكعبة يعلن على الملأ أن ليس في القوم من هو على دين إبراهيم غيره . إنه كان ينتظر ظهور النبي الأمي الذي بشرت به الأنبياء ليصدقوه ويؤمن به ، فلما وافته منيته أوصى ابنه سعيدا أن يسارع بتصديقه إذا ما ظهر ، وها هو ذا النبي الذي كان أبوه يرقب مبعثه قد بعث ، فذهب سعيد إلى روجه فاطمة بنت الخطاب وقال لها في فرح :

— ظهر نبي هذه الأمة ، إنه محمد بن عبد الله وإنه خليف بالرسالة .

ودار حوار بين الزوجين البدين كانا ينتظران ذلك النبي الذي أوصاهما باتباعه زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يذهب للقاء ربه ، وانتهى الحوار بأن ارتدت فاطمة ثياب الخروج وانطلقت مع زوجها إلى دار الطاهرة وسيدة نساء قريش .

وجلس سعيد وفاطمة إلى رسول الله ﷺ وقد أعاره النسم ، فكان حديثه الشجي ينفذ إلى القلب ويشرح الصدر ويجعل نور الإيمان يشرق في الأفئدة ويرقق الهموس ويرفعها من العالم المادي المحدود إلى عالم الروح

الذى ليس دونه متبى ولا وراءه مرمى .

وشهد سعيد شهادة الحق وهو مستبشر بأنه قد صار عبي مور من ربه  
وقد احتلت صورة أبيه زيد بن عمرو بن نفيل رأسه وهو على راحلته  
يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكن لا أعلم. إلهي  
إله إبراهيم ودينى دين إبراهيم ، ثم يسجد على ظهر راحلته  
وكان سعيد متهرجا بالهدى الذى أنزل السكينة على قلبه بعد أن عرف  
أحب الوجوه إلى الله يعده به ، وكانت فاطمة تستشعر بشوة روحية  
فيأصه وهي تنطق بالشهادتين ، وودت لو أن آل الخطاب جميعا كانوا معها  
ليحفظوا بسعاده الدنيا وهاء الأبد .

وعاد من اليمن عبد عمرو بن عوف بن عبد الحارث بن رهرة وكان يرسل  
على عسكلان بن عواكر الحميرى كلما سافر إليها ، ولما كانت اليهودية  
والنصرانية منتشرتين في اليمن فقد كان السمر يدور حول الدين والأنبياء  
وحول البشارات التى يفيض بها الكتاب المقدس عن ظهور سى من الأمم  
وكان ابن عوف يسمع من الأحبار والزهاد أنه سيبعث من البيت الحرام  
سى مثل موسى ، فلما دخل على أبى بكر وسمع منه أن الله قد أوحى إلى عبده  
محمد بن عبد الله ﷺ ما أوحى وأنه قد بعثه رسولا إلى الناس كافة ، تذكر  
عمرو بن عوف كل ما سمعه عن النبى المنتظر وملأه إحساس عميق برسالة  
محمد كأنما قد أوحى إليه الإيمان به ووحدته أهلا للرسالة ، فهو ليس بفظ  
ولا غيظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يذم السبيعة بالسبيعة ولكن يعفو  
ويعمر ، ويأمر بالمعروف ويهى عن المنكر ، فقام مع أبى بكر وانطلقا إلى  
دار خديجة .



كان محمد — ﷺ — جالسا وإلى جواره على بن أبى طالب ، فلما دخل عليه أبو بكر وعبد عمرو بن عوف الرهري رحب بهما ثم راح يعرض على عبد عمرو الإسلام . حتى إذا ما شرح الله قلبه للإيمان وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، قال له النبى عليه السلام .  
— أنت عبد الرحمن .

ولاح البشر فى وجه ابن عوف . إنه دخل دار خديجة وهو عبد عمرو ، فإذا بالرسول يسميه عبد الرحمن ، وابتسم أبو بكر راضيا فهو أول من سماه رسول الله — ﷺ — من المسلمين . سماه عبد الله بعد أن كان اسمه عبد الكعبة .

كان عبد الرحمن تاجرا من أنجح تجار قريش طارت شهرته فى الأفق لعفته وصدقه وأمانته ، وكان راضيا بما يال من ثقة من وثقوا به وكلفوه بالامتجار فى تجارتهم ، فلما سمع رسول الله ﷺ يقول له :  
— أنت أمين فى أهل الأرض أمين فى أهل السماء . أنت صادق صالح بار .

أحس كأنما قد ذهب عنه كل حزن ونزلت على قلبه سكية وتهلل بفرح فياض ونشوة روحية تفوق لذات الأرض جميعا .

\* \* \*

وعاد طلحة بن عبيد الله من سوق بصرى ، فلما دخل مكة قال :

— هل من حدث ؟

— نعم ، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله وقد تبعه ابن أبى قحافة .  
كان طلحة من بنى تيم وكان أبو بكر سيد بنى تيم ولما يطلع بعد الأربعين

وإن كان أبو قحافة لا يزال يمشى في الأرض ، فأبو بكر رجل يألفه الناس  
 محبب سهل أنسب قریش لقریش وأعلم قریش بها وما كان فيها من حير  
 وشر ، وهو تاجر ذو خلق ومعروف . وكان طلحة يألفه لعلمه وحسن  
 محالسته وكان حديثه عن صديقه محمد بن عبد الله ينبض بالحماسة  
 والإيمان ، فما إن سمع طلحة أن أبا القاسم يدعو إلى الله وأن أبا بكر قد تبعه  
 حتى هرع إلى أبي بكر وألقى إليه سمعه فإذا بنور اليقين قد أشرق في فؤاده ،  
 فخرج أبو بكر وطلحة بن عبيد الله حتى دخلا على رسول الله — ﷺ —  
 فابتسم لهما فتألفت أسنانه المفلجة البيضاء ، فاستشعر طلحة كأد الكون  
 كله يتسم ، وجلسا إليه وراح أبو بكر يتحدث فإذا برسول الله يصفي  
 ملتفتا إليه بكل جسمه ، إنهما ما جاءا إلا ليعرض رسول الله — عليه  
 السلام — على طلحة الإسلام ، فراح محمد صلوات الله عليه — يتحدث  
 بلسان فصيح عن الدين الجديد تشع عيناه الدعجاء وان الواسعتان جاذبية  
 وسحرا تحت أهذاب طوال حوالك ، ويفد حديثه الأخاذ إلى قلب طلحة  
 لكأنما كان كلامه يكتب على لوح فؤاده بأحرف من نور ، وإذا بأنوار  
 تشرق وتضيء ظلمات نفسه وإذا بلسانه يتحرك في انفعال المأخوذ  
 بالشخصية العظيمة التي بهرته بحكمتها :

— مد يدك أبايعك .

وشهد طلحة بن عبيد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن  
 محمدا عبده ورسوله ، وشهد بدين الإنسانية في أمة العصبية ، وآمن بفجر  
 تاريخ البشرية الجديد ، ووطئ التمس على أن يكون ظهيرا للدعوة التي  
 مستعيد للبشرية كرامتها وتفرجها من الظلمات إلى النور .

١٨

خرج محمد — ﷺ — إلى جبال مكة وهو حزين فقد انحبس عنه الوحي بعد أن نزل عليه : اقرأ باسم ربك ، وكان ذلك إيدانا بنزول ما يقرأه على الناس وتأكيدها بأن الوحي الذي يأتيه إنما هو وحي ربه . لقد ارتجفت بهوادره من الخوف لما عطفه جبريل يوم أن جاءه في غار حراء ففر هاربا في الأرض ، بيد أنه الآن في شوق عظيم إلى الروح الأمين ليسمع منه ما يسكن ذلك القلب الذي استولى عليه .

وراح يقدو إلى جبل ثبير وهو يسأل نفسه : أكان ما رآه في غار حراء حقيقة واقعة أم وهما من الأوهام ؟! أبعته الله رسولا إلى الناس كافة أم هو يحدع نفسه ؟! إنه يريد لها حقيقة ناصعة ترضيه ، فهو صادق مع نفسه قل أن يكون صادقا مع الآخرين .

شق عليه أن فتر الوحي عنه وحشى أن يكون به جنون أو يكون كاهنا ، وفيما هو في حرنه تبدى له جبريل على هيئة رجل قد ملأ الفضاء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن جأشه وقرت نفسه وعاد إلى دار حنيفة يتعبد في الغرفة التي أعدت لمناجاة ربه . ومرت أيام أخرى وهو يقابل الدين هداهم الله للإسلام ولم ينزل عليه الوحي بقرآن يقرأه على الناس فعاد إليه قلقه وشق

ذلك عليه فغدا إلى حراء وراح يفكر في انجbas الوحي عنه . وعادت إليه فكرة أن يكون ما يدور بخلده وهما من الأوهام أو مسام الجنون فلفه حزن ثقيل ، إنه يريد جوهر الحقيقة . يريد لها بصعة لا شبة فيها . وفيما هو في قلقه وأساه تبدى له جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن روعه واطمأن قلبه وعاد إلى ما حاة ربه وطول السهر معه يسأله أن يكشف له عن حقيقة أمره . واجتهد في عبادته وفي سهره حتى أصابته وعكة فترك قيام الليل ليلتين . وعجت جارة من حيرانه لذلك الانقطاع فجاءته فقالت :

— يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قريبك منذ ليلتين .

ولفه حزن ثقيل ، وراد في أساه وشق عليه أن أهل مكة قالوا : ودعه ربه وقلاه . وخشى أن يكون ذلك هو الحقيقة الموجهة لنفسه ، فعدا إلى جبال مكة وتغنى لو يرى جبريل على الهيئة التي خلقه الله عليها لا على هيئة رجل في أفق السماء ، وفيما هو في تفكره تبدى له جبريل على هيئة رجل يسبح في الفضاء . فقال له محمد — ﷺ :

— وددت أني رأيتك في صورتك .

فراه في الأفق الأعلى من الأرض قد طلع من المشرق فسد الأفق إلى المغرب ، فخر النبي — ﷺ — مغشيا عليه ، فنزل جبريل عليه لسلام في صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وجعل يسمح الغبار عن وجهه .

وأفاق من غشيته فابطلق إلى حديجة وقد أخذته رجفة ، وما إن وقعت  
عيناه على الطاهرة حتى قال :  
— دثرونى .. دثرونى .

فراحت حديجة بدثره حتى إذا ما سكن روعه صب عليه الماء ، فجاءه  
الوحى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ \* وَرَبِّكَ فَكْبِرْ \* رُتِيبًاكَ فَطَهِّرْ \* وَالرَّحِىْرَ  
فَاهْجِرْ \* وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ \* وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ١﴾ .  
وطابت نفس محمد — عليه السلام — فربه يأمره بإنذار قومه ، ووحى  
الرحى وتتابع ، فترل عليه :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُرْمِلُ \* قُمْ اللَّيْلَ لَا قُبَيْلَا \* نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا \* أَوْ زِدْ  
عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا \* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا \* إِنْ نَاشَأَ اللَّيْلُ هِىَ  
أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا \* إِنْ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا \* وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ  
وَنَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا \* رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا \* وَاصْبِرْ  
عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ٢﴾ .

ثم أوحى إليه :

﴿ وَالصَّحَى \* وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى \* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى \* وَلَا آخِرَةَ  
حَيْرَ لَكَ مِنَ الْأَوَّلَى \* وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٣﴾ .  
ثم أوحى إليه :

(١) المدثر ١ — ٧ . (٢) المزمل ١ — ١٠ .

(٣) الصحن : الصحن ١ — ٥ .

﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ ما أنت بنعمة ربك بمجنون \* وإن لك لأحرًا غير ممنون \* وإنك لعلّ خلق عظيم ﴿ (١) .

وعرف محمد — عليه السلام — أن الله أوحى إليه قرآنه ليقرأه على الناس ، ونهى عنه فكرة الحنون التي طافت به ، ومدحه ربه بأنه على خلق عظيم فلم يعد في شك من أمره ، ولكنه أشفق على نفسه من تكاليف الرسالة ، إنه سيقف في وجه قومه يدعوهم إلى الله والله معه وإنها لدعوة ستعصب الناس الدين ألفوا حياتهم ووفر في ضمائرهم عبادة ما كان آباؤهم يعبدون ولكن ماذا يهمه من أمر الناس ما دام ربه قد أمره بإندارهم وهو وكيهه وهو ناصره ؟ فوطن النفس على أن يدعوا إلى رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو وأن يصبر على ما يقولون حتى تشرق أفقدهم بالنور .

وراح يملئ ما أنزل عليه على كتاب وحيه ، أنى بكر وعنى والربير بن العوام وعثمان بن عفان . وراح المسلمون الأوائل يقرعون القرآن سرا على من ينشون فيهم من أصحابهم آمين في أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فكان المكيبون يسمعون آيات الله ويعجبون ببلاعتها ، فكانت صدور تشرح للإيمان وكانت قلوب تقفل بوافدها في وجه النور دون أن تثور ، وكان رجال يفضيرون للحل الألفه إلها واحدا فيقومون بتعذيب من آمنوا منهم ليردوهم عن الحق المبين .

وبينا كان رسول الله — ﷺ — يقوم الليل ويمر تل القرآن ترتيلا كان خالد ابن سعيد بن العاص في سبات عميق ، رأى في نومه نارًا متأججة يشيب من هولها الرليد ، ورأى نفسه على شمرها وأن أباه يريد أن يلقيه فيها وأن محمد بن

عبد الله — عليه السلام — أخذ بحجره يمنعه من الوقوع فيها ، فقام من يومه فزعا ترتعد فرائضه يحس كأن روحه تكاد أن تغفلت من بين جسيه ، وظل مرعوبا حتى إذا ما سكن روعه وانزاح الرعب عن عقله قال في نفسه :

— أحلف بالله أن هذه رؤيا حق .

وما أشرقت الشمس حتى انطلق إلى أبي بكر ليقص عليه ما رأى ويسمع منه تأويل رؤياه .

عندما جلس إليه وقص عليه حلمه الذي أفزع قال له أبو بكر :

— أريد بك خيرا . هذا رسول الله — عليه السلام — فاتبعه

وذهب إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — فقال خالد :

— يا محمد ما تدعو إليه ؟

— أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ونخلع

ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يصبر ولا ينفع .

فشرّد خالد قليلا كأنما يتذكر شيئا ثم قال :

— كنت ذات ليلة نائما فرأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر

امرؤ كفه ، فبينما أنا كذلك إذ نمرح نور من زمرم ثم علا في السماء فأضاء

في البيت ثم أصاب مكة كلها ، ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى إلى لأنظر

إلى السر في النحل ، فاستيقظت فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد

فقال : يا أخى إن هذا الأمر يكون في بني عبد المطلب . ألا ترى أنه خرج

من حفر أبيهم .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا خالد أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله .

وأسلم خالد وقرئ القرآن همساً في بوادي بيوت أشراف مكة العشرة ، وعرف أقوام أن محمداً — ﷺ — قد عاب آهتهم وسمه أحلام آبائهم فعصبوا وكان منهم سعيد بن العاص ، فلما بلغه أن ابنه قد صيأ عن دين آيائه واتبع الدين الحديدي امتلاً عصباً ، وصايقه وهو السيد انطاع في قريش أن يتبع ابنه محمداً الذي حالف قومه وحاءهم بما لا علم لهم به ، فأرسل في طلبه فتهره وضربه بمقرعة كانت في يده حتى كسرها على رأسه ثم قال :

— اتبعت محمداً وأنت ترى خلافة لقومه وما جاء به من عيب آهتهم وعيب من مضى من آبائهم ؟

فلم يأبه سعيد لعصب أبيه وهانت آلام جسده بعد أن عرف لذة الوصال برب المشرق والمغرب فقال :

— والله أتبعته على ما جاء به .

فعضب أبوه وقال :

— اذهب يا لكع حيث شئت . والله لأمنعك القوت ..

— إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به .

— اخرج .. اخرج .

ثم التفت إلى بنيه وقال :

— لا يكلمه أحد منكم .

فانصرف خالد إلى رسول الله — ﷺ — يلزمه ويعيش معه ويعيب

عن أبيه في بواحي مكة وهو سعيد بالنور الذي يملأ جوانحه وبصحبة



رسول الله التي وجد فيها نعمة من الله لا تقرر بها نعمة أخرى ، فهو يهبل من نبع الحكمة ويقبس من مصدر النور .

وجس كتاب الوحي يكتبون ما رل على رسول الله ومحمد يتلو في صوت يمشع له الكون . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ \* الحمد لله رب العالمين \* الرحمن الرحيم \* مالك يوم الدين \* إياك نعبد وإياك نستعين \* اهتدنا الصراط المستقيم \* صراط الذين أنعمت عليهم غير المعصوب عليهم ولا الضالين ﴿ ١ ﴾ .

وإذا بكل من في الدار من أوائل المسلمين يقولون : آمين . وهم يستشعرون كأعما آيات الله قد رفعتهم إلى الملكوت

ومر صهيب على دار رسول الله ﷺ — وفي رأسه أفكار وفي صدره رغبة جامحة . إنه سمع قرآن محمد وقد سمع من قل في دار عبد الله بن جدعان شعر فحول الشعراء ، فرأى بدوقه المرفف أن قرآن محمد من نع سماوى غير ذلك السبع الذى نهى منه الشعراء ، وما يدعو إليه يقله العقل ويستريح إليه القواد . إنه استمتى قلبه هزين له الإيمان برسالة الأمين . فجاء ليدخل على رسول الله . وفيما هو يتقدم ليدخل رأى عمار بن ياسر يحوم حول الدار ، إن عمارا أخرج مع محمد من قل في تحارة حديجة وكان معه يوم أن بعث حديجة إليه من يزين له التقدم لخطبتها وقد عرف عن كتب أماته ومكارم أخلاقه ، فلما سمع بعض آى القرآن وبلعه أن محمدا يقول إنه رسول الله وحده أنه أهل للرسالة ، فجاء ليشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

محمدًا عبده ورسوله .

ودنا عمار من صهيب وقل :

— أئين تريد يا صهيب ؟

فقال صهيب في ثبات :

— أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه .

فقال عمار في انشراح :

— وأنا أريد ذلك .

فدخل على رسول الله ﷺ — فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما أنزل من القرآن فتشهدا ، واستأنسا بمحمد بنه فظلا يسعدان بعلمه الفياض الذي أشرق في قلبه من رحمة ربه حتى إذا أمسبا حرجا مستخفين ، فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه :

— أئين كنت ؟

فقال في ثقة وياسر وسمية ينظران إليه في دهش وكأنه قد عاد إليهما رجلا آخر :

— كنت عند محمد ﷺ — ، وقد عرض على الإسلام فأسلمت .

ودار حوار طويل بين عمار وأبويه ياسر وسمية ، عمار يتلو آيات من القرآن فيشرح صدر سمية ويستشعر ياسر كأن نورا ينسكب في وجدانه ويشرق في فؤاده ، فيجادل ابنته في ضعف ثم ينتهي الحوار الذي دار في سكون الليل بين ابن بار مؤمن وأبوين يريدان وجه الحقيقة لا يحشيان زوال سلطان ولا ضياع أموال إذا أسلما . فتهلل وجه عمار الطيب المطيب بفرح واستبشار ورأى بعين بصيرته الأنوار تغمر الدار .

وقف عمرو بن عبسة السلمي يعترض الركبان الخارجين من مكة بعد أن رغب عن آلهة قومه ورأى أنها آلهة باطلة . حجارة لا تضر ولا تنفع ، وبعد أن لقي رجلا من أهل الكتاب فسأله عن أفضل الدين فقال : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها وهو يأبى بأفضل الدين . فإذا سمعت به فاتبعه . فلم يكن له هم إلا مكة يسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقولون : لا ، فينصرف إلى أهله . وأهله من الطريق غير بعيد .

ولمح قافلة قادمة من مكة فاعترضها فسأل من فيها :

— هل حدث في مكة حدث ؟

منظروا إليه في دهش وقالوا :

— لا .

فانقلب راجعا إلى أهله . ثم خرج إلى الطريق ذات يوم وقعد ينتظر الركبان الخارجين من مكة وإذا به يرى راكبا مقبلا فقام إليه فقال له :

— من أين أنت ؟

— من مكة .

— هل فيها من خير ؟

— نعم . رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها .

فقال عمرو في فرح :

— صاحبي الذي أريد .

فشد راحلته وجاء مكة و نزل منزله الذي كان ينزل فيه . فسأل عنه  
موجوده مستخفيا فانتظر في الحرم . وما لبث أن جاء رسول الله ﷺ  
ليطوف بالحرم وسادت قريش في محالسهم لا يكرون مما يقول شيئا . فما  
عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه ، وما ذكر بعد هلاك آبائهم الدين  
ماتوا على الكفر ، فكانوا يشيرون إليه ويقول في سخرية :  
— إن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء .

وعرفه عمرو بن عبسة فذهب إليه فقال :

— من أنت ؟

— أنا نبي الله .

— وما نبي الله ؟

— رسول الله .

— وبم أرسلك ؟

— بأن يُعبد الله وحده ولا يُشرك به شيء ، وتكسر الأوثان وتحقن  
الدماء وتوصل الأرحام .

وكان محمد — عليه السلام — وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح  
إيمانه ، وراح يقنع الرجل بالموعظة الحسنة لم يشهر في وجهه سيفا  
ولم يرغمه على الكفر بدين آيائه فلما اقتنع الرجل بمنطقه قال :  
— نعم ما أرسلت به . أشهد أني آمنت بك وصدقتك . ابسط يدك  
أبايعك .

فبايعه على الإسلام ثم قال له :

— أقيم معك يا رسول الله ؟

— لا . ولكن الحق بقومك فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى .  
وانطلق عمرو بن عبسة السلمي إلى قومه وقد استراحت نفسه إلى  
الدين الذى كان ينتظر بزوغ نجمه مذلقى ذلك الرجل من أهل الكتاب  
الذى قال له . يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى  
غيرها ، وهو يأتى بأفضل الدين .

\* \* \*

وكان أبو ذر العفارى وأخوه أنيس جالسين أمام الدار فجاء رجل من  
مكة ونزل هما وراح يقص أخبار أهل الحرم . وقال فيما قال إن رجلا  
خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فشعل أبو ذر بذلك الشأ حتى إنه لم يعد يلتفت  
إلى ما يقول المكى ، فلما انصرف التفت أبو ذر إلى أنيس وقال :  
— انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتى بخبره .  
وذهب أنيس وبقي أبو ذر يرقب عودة أخيه في لفظة ، حتى إذا جاء  
هرع إليه وقال له :

— ما عندك ؟

— والله رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر يزعم أن الله أرسله ،  
ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق .  
— فما يقول الناس فيه ؟

— يقولون : شاعر . كاهن . ساحر . والله إنه لصادق وإنهم  
لكاذبون .

— اكفىنى حتى أذهب وأنظر .

— نعم . وكن على حذر من أهل مكة .  
فحمل أبو ذر جرابا وعصا ثم أقبل حتى أتى مكة فجعل لا يعرفه ويكره

أن يسأل عنه ، فمكث في المسجد وطال مكثه . وجاء على بر أنى طالب ولم يتجاوز بعد العاشرة من عمره ليطوف بالبيت ، فألقى أباه ذرا جالسا وقد سجا الليل فذهب نحوه وقال :

— كأن الرجل غريب ؟

— نعم .

— تعال معي .

فانطلق على به إلى حيث ينزل الضيفان بدار خديجة فبات أبو ذر ليلته ، ولما أصبح الصباح خرج إلى الحرم يبحث عن النبي لا يسأل أحدا ولا يخبره أحد عنه بشيء . وانقضى النهار وجاء الليل وأقبل على ومر بأبي ذر فقال :

— أما أن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

— لا .

— فانطلق معي .

فانطلقا وبات أبو ذر ليلته ، ثم خرج إلى المسجد يبحث عن النبي وتصرم النهار وأرعى الليل سدوله ، وجاء على ومر بأبي ذر فقال :

— تعال معي .

— وسارا صامتين ثم قال على :

— ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البهدة ؟

— إن كنت علي أخبرتك .

— فإني أفعل .

— بلعنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبي ، فأرسلت أحى ليكلمه فرجع ولم يشفي من الخبر فأردت أن ألقاه .

— أما إنك قد رشدت . هدا وجهي إليه فاتبعني ، ادخل حيث

أدخل ، فإن رأيت أحدا أخافه عليك فمت إلى الحائط كأني أصلح نعل فامض أنت .

وانطلقا ودخل عليّ على النبي — ﷺ — وأبو ذر معه . فلما رأى النبي — ﷺ — استشعر استبشارا وقال :

— السلام عليكم .

وكانت أول تحية أُلقيت في الإسلام ، فقال النبي — صلوات الله عليه — :

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

— أنشدني ما تقول .

— ما هو بشعر فأنشدك ، ولكنه قرآن كريم .

— اقرأ عليّ .

وراح النبي يقرأ على الرحمن ما أنزل عليه من ربه وأبو ذر يصغى وهو مأخوذ ، ثم قال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

وقال له النبي :

— ممن أنت ؟

— من غفار .

فجعل النبي — ﷺ — يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا ، لما كان يعلم من غفار قبيلة السطو والهب وقطع الطريق ، ثم قال :

— إن الله يهدي من يشاء ، يا أبا ذر اكنم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتوني ، فإذا بلغك طهورا فأقبل .

والذي بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين طهرانهم .

كان رسول الله — ﷺ — يدعو من يثق بهم إلى الإسلام سرا ، وكان المكثرون ينظرون إليه وهو يصلي في الحرم وبعض أنصاره دون مبالاة ، والحرية الدينية مكفولة في بيت الله ما دام العابد لا يتعرض لديانة قريش بسوء ولا يجرح شعورهم ، وكان أقصى ما يفعلونه أن يسخروا من ذلك الذي يزعم أن الخبر يأتيه من السماء ويصفونه تارة بأنه شاعر وتارة أخرى بأنه كاهن أو ساحر . وكان بعض أصحاب الأمرجة الحادة يؤدبون من انسلخ من الصابقين عن دين الآباء ثم يقل سلاحهم أمام صمود المؤمنين .

ها هو ذا أبو ذر يأتي أن ينسل إلى قومه راضيا بإيمانه الذي أشرق في قلبه ، بل وطد العزم على أن يعلن إسلامه مدويا في جيبات بيت الله ، فلما اجتمعت قريش بالمسجد نادى بأعلى صوته :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

كانوا في هولهم وعينهم فما بال هذا الرجل قد جاء يعكر صفوهم . فمال عليه أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى حر مفضيا عليه . فأكب عليه العباس ثم قال لهم :

— ويلكم ! أليست تعلمون أنه من عفار وأن طريق تجارتكم عليهم !

فحلوا عنه ، فجاء رمرم فعسل عه الدم وقصد رسول الله ﷺ فوجد عده أبا بكر ، فقال له محمد — صلوات الله عليه وسلامه — :

— متى أنت هاهنا ؟

— كنت هاهنا منذ ثلاثة أيام .

— فمن كان يطعمك ؟

— ما كان لي طعام إلا ماء رمزم .

فقال أبو بكر :



— ابذلنى يا رسول الله فى طعامه الليلة .

وابلح صبح اليوم التالى مخرج أبو ذر إلى المسجد فألقى قريش فى نواذهم ، فمظرو إليهم فهاووا فى عيبه ، وأحس رغبة فى أن يعاود الجهر بإسلامه فصاح بأعلى صوته .

— يا معشر قريش ... يا معشر قريش .

فالتفت الناس إليه فصاح فيهم :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله  
فرمى القوم وقاموا إليه وأشعوه صريحا فمضى عليه . وأقبل العباس  
يواسيه ثم أقبل على القوم فقال :

— ويدكم تقتلون رجلا من عمار وتجركم ومركم على عمار !.

ترى أكان العباس الذى أسلمت روحه أم المفضل مشفقا على قومه حقا  
أم أم أن قلبه قد مال إلى دين ابن أخيه فراح يحميه ويحمي المؤمنين برسالة  
وإن التمس أعذارا تلبو فيها النصيحة لقومه !

وعاد إلى حيث كان رسول الله ﷺ — فجلس راضى النفس ثم  
استأذنى فى العودة إلى قومه فقال له الرسول الكريم .

— إني قد وجهت إلى أرض ذات محل فلا أحسبها إلا يثرب ، فهل أنت  
منغ عنى قومك لعل الله عز وجل يجمعهم بك ويأجرك فيهم ؟  
— نعم أفعل .

وخرج أبو ذر وأتى أبيسا فقال له أخوه :

— ما صنعت ؟

— قد أسلمت وصدقت .

— ما لي رغبة عن دينك إني قد أسلمت وصدقت .

فأتيا أمهما فقالت لأبي در :

— ما رأيت ؟

— رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم  
مخاطبة ، وأحسنهم حوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ،  
وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رأت ملاحيا أبدا ولا مماريا أحدا ،  
حتى سماه قومه بالأمر ، يدعو إلى الله بالحسنى ، ويبهى عن الفحشاء  
والمنكر ، فشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ،  
وأسلمت وأسلم أخي أنيس .  
فقالت أمهما :

— ما لي رعية عن ديككما ، فإني قد سلمت وصدقت .

وأتى أبو در قومه فألقاهم جالسين عند خفاف بن إيماء بن رخصة  
الغفاري سيدهم ، فراح يتحدث في إيمان عن محمد — ﷺ — ويحجب  
أهله في الإسلام ، حتى أسلم خفاف بن رخصة وتبع كثير من القوم  
سيدهم ، وطمع أبو در في إسلام غمار كلها فالتفت إلى من أبوا أن يدخلوا  
في دين الله وقال :

— وأنتم . ما يمنعكم من الإسلام ؟

فقالوا :

— إذا قدم رسول الله أسلمنا .

٢٠

في عمارة الصبح فتح باب دار خديجة فخرج منه رسول الله ﷺ — وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة وهند بن أبي هالة بن سعيد بعد أن هجر أياه ولزم النبي ﷺ ، وانطلقوا في شوارع مكة الضيقة المسقوفة حتى بلغوا الحرم فطافوا بالبيت سبعا ، ثم انسلوا إلى شعاب مكة ليلتفوا بالمسلمين ليصلوا لله بعيدا عن عيون الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام .

ومن دور بني تم خرج أبو بكر ومولاه عامر بن مهيبة وصهيب مولى عبد الله بن جدعان وطلحة بن عبد الله .

وخرج من دور بني هاشم جعفر بن أبي طالب في خطي ثابتة فأبو طالب يعلم بإسلامه بل هو الذي أمره أن يصل مع ابن عمه ، فقد رأى النبي ﷺ — وعيا يصليان وعلى على يمينه ، فقال لجعفر : صل جاح ابن عمك فصل عن يساره ، وكان جعفر في حيرة من أمر أبيه فهو لم يثر لما عمر ذات يوم على النبي — عليه الصلاة والسلام — وعلى ابنه على وهما يصليان في الشعب مستحفيين ، بن قال لابه : إنه لم يدعك إلا إلى خير فاتبعه ، فلماذا لم يتبع أبو طالب ابن أخيه ؟ أحقيقة إنه يخشى أن تقول نساء قريش إن شيخ بني هاشم قد أسلم قياده إلى نفي من قتيان بني هاشم أم لأنه يؤمن بأن الله أجل من أن يبعث رجلا رسولا ؟

ومن دور بني أمية خرج عثمان بن عفان وهو على يقين من أن إسلامه قد

ثم كرامة الأمويين ، فلما فاسدة على السيادة كانت مشتعلة الأروار بين بني هاشم وبني أمية ، وقد كاد أبو سفيان أن يكون زعيم قريش بلا منار . أفيقبل بنو أمية أن يكون من منافسهم رسول يأتيه خبر السماء ؟ ترى ماذا يفعل أبو سفيان عندما يعود من رحلة اليمن ويعلم أن وحيا من السماء قد رل على محمد بن عبد الله سليل البيت الهاشمي العتيدي ؟

كان عثمان هاشميا من ناحية أمه أموي من ناحية أبيه فكان موزع العواطف بين الحيين المتنازعين على رعاة قريش ، فلما أشرف قلبه بنور اليقين سقى عصبته لقبيلته ، بل جعل دبر أدنه عصبته لقوميته بعد أن علمه رسول الله ﷺ — أن الناس سواسية وأن لا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالتقوى ، فصارت غاية أمانيه أن يهدي الله قومه إلى الحق وأن تفيض رحمة ربه على العالمين .

وخرج من دور بني أسد الرير بن العوام وكان في الثانية والعشرين من عمره وقد فرحت عمتة حديجة بإسلامه ، إلا أن ذلك الفرح قد كدره عدم إسلام ابن أخيها حكيم بن حرام ، فهي تحب ابن حزام وتنسى له الهدية وأن يكون من السابقين لتلبية نداء الله . ولكن ما كان ذلك ميسورا فحكيم قد أصبح صاحب دار الدوة اشتراها بماله ليكون له شرف امتلاك دار حكومة قومه ، وهو مسموع الكلمة في الدار التي يشرب بأعناقهم إليها الطامعون من رجال قريش ، وهو شريف معدود من أشراف قريش . أو يترك كل هذا الخلد ليصبح تابعا من أتباع زوج عمتة ؟ إن قلب حكيم مشغول بالدنيا متعلق بعروها بينما كان الرير لا يزال خلى الفؤاد لم يعم قلبه عن الحقيقة ، فلما برع نور الحق لم تعترض سبيله عوائق من المطامع والأهواء .

وخرج من دور بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأخوه عامر ، وقد كانت أمهما تعير سعدا بأخيه عامر وتقول : هو البر لا يفارق ديه ولا يكون تابعا . وقد جاء سعد ذات يوم والناس مجتمعون على أمه وعلى أخيه عامر فقال : ما شأن الناس ؟ فقالوا : هذه أهلك قد أخذت أخاك عامرا وهي تعطي الله عهدا لا يطلها محل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صباه . فالتفت سعد إليها وقال : والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبؤي مقعدك من النار .

كان عبد الرحمن يشق طريقه ليكون من أشهر تجار مكة ، وقد داعت أمانته في الأمصار حتى إن البضائع كانت ترسل باسمه حيثما كان في الأسواق ليبيعها ويأخذ نصيبه ثم يرد الأموال وأرباحها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة . وكان سعد في التاسعة عشرة وكان عامر في السادسة عشرة وكانا على الرغم من صغر سبهما يرعيا في الخفية ، فمما اتضحهما صدق دعوة محمد — ﷺ — أسرعا بالتصديق ، ولم يؤثر فيهما وهما الباران بأمهما صياحها ومحاولاتها لتعيدهما إلى الظلمات بعد أن عرفا طريق النور .

ومن دور بنى مخزوم التي كانت تظل على الحرم من فوق الصفا حرح الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وعياش بن أبي ربيعة بن المعيرة المخزومي أخو أبي الحكم بن هشام ( أبي جهل ) فأمهما أسماء بنت محربة التميمية . وكان عياش يعرف قسوة قلب أبي الحكم وأصمائه التي ليس لها حد ، فأموال بنى المعيرة ممدودة ورجال بنى مخزوم رجال الكر والفر والطعن والزال ، ومن هذه صفاته لا بد أن يربو إلى الصدارة وإلى منافسة بني هاشم وبني أمية فإن كان الوليد بن المعيرة هو سيد بنى مخزوم فما أقصر أيامه في

الأرض ، فإن ذهب فلا خليفة له غير أبى الحكم . كانت الدنيا تملأ قلبه وتستولى على تفكيره ، وكانت السيادة تتخايل له والرعاية هدف حياته فما كان يستطيع أن يتصور أن يقوم فى قريش من ينافسه فى أطماعه ، فما بالث إذا قامت دعوة تقوض كل قصور أحلامه وأمانيه ؟

كان عياش يرتجف فرقا من أخيه وكان يحل أبى الحكم ، فلما عرف الإيمان طريقه إلى قلبه هان فى عييه كل سلطان إلا سلطان الله ، ولم يعد يخشى بنى المغيرة ولا بنى مخزوم بل ولا العالم بأسره ، فإن كان ينسل الآن ليصلى مع رسول الله — ﷺ — فما ذلك إلا استحابة لرعية النبى الكريم ، فهو لا يريد أن تقف النبتة فى وجه العواصف قبل أن يشتد عودها .

وخرج أبو سلمة المخزومى مشرق النفس فأمره برة بنت عبد المطلب تبارك دعوة بن أخيه ، فهو كالزبير بن العوام كلاهما ابن عمه صاحب الدعوة ، غير أن الزبير ابن أخى خديجة حاضة الإسلام .

وخرج عمار بن ياسر وأبوه ياسر متسللين حتى لا يهجاها أحد من بنى مخزوم ، فهما ليسا منهم بل حلفاء لهم . تزوج ياسر سمية وكانت جارية من جواربهم ، فلما جاء عمار ثمرة ذلك الزواج شب فيهم وإن كانت عواطفه منذ نعومة أظفاره مع محمد بن عبد الله ، فقد بهرته مكارم أخلاقه وما آتاه الله من الحكمة ، فلما سمع أن الله قد بعث صديقه العظيم رسولا إلى الناس كافة هرع إليه معتبطا ليعلى إسلامه ، فهو يراه خليقا لأن يكون رسول رب العالمين .

ومن دور بنى جمح خرج عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وحاطب بن الحارث وأخواه خطاب ومعر وبلال بن رباح مولى أمية بن

خلف ، وانطلقوا في هدوء لا يترقبون قد غمرتهم بشوة روحية أنستهم كل حذر ، وكانوا فرحين بما آتاهم الله يعدون السير لينعموا بلقاء رسول الله ﷺ ويسعدوا بالوقوف بين يدي رب العالمين .

وخرج عبد الله بن مسعود من دار عقبة بن أبي معيط ، إنه يخرج في غم لآل عقبة ، وذات يوم جاء رسول الله ﷺ — ومعه أبو بكر إلى حيث كان عبد الله يرعى العجم إنه قصير طوله نحو ذراع ، حميف اللحم رجلاه دقيقتان ، ما يراه أحد إلا ويتسم لقصره ودقة رجليه ، إلا أن النبي ﷺ دنا منه وقال في صوت رصين ليس فيه أثر من سحرية أو هراء :

— هل عندك لبن ؟

— نعم ، ولكن مؤثمن .

وكشف الصبي القصير عن صمير حتى ومعدن نفيس . فأقبل رسول الله عليه السلام بمحادثته وابن مسعود يستشعر كأن نورا يصب في فؤاده فتشرق نفسه بالنور . وما انتهت المقابلة إلا وكان ابن أم عبد — وكان يعرف بأمه — قد نطق بالشهادتين بلسانه بعد أن أقرهما فؤاده ، وقال : يا رسول الله علمني . فمسح رأسه وقال : بارك الله فيك فأنت علام معلم .

كان صدق إيمانه وحسن حفظه ونعمة الله عليه ما حرك لسانه بالتماس العلم من ريب السماء ، فإذا به يحس بعد أن مسح رسول الله ﷺ — رأسه كأن كنورا من الحكمة نهمجت في قلبه ، وتعلق العتي بالرسول الذي آمن به وصدقته فسار يمشي أمامه ومعه ويستره إذا اعتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه بعلية إذا قام ، فعرف بصاحب سر رسول الله .

وخرج أبو عبيدة بن الجراح مشرق القلب بحمد الله على أن هداه إلى

الإسلام ، فمن حسن طالعه أنه كان يألف أبا بكر ، ومن رحمة الله عليه أن جعله ذا بصيرة تستطيع أن تعوض في نفس أبي بكر لتكتشف الكنوز الراحرة فيه بالصدق ورجاحة العقل وإرهاق الضمير ، فوفر في وجدانه أن أبا بكر رجل عظيم لا تهو نفسه إلا إلى العظمة والكرامة والطهر . فإن كان أبو بكر قد آمن بما جاء به محمد بن عبد الله فلا بد أن ما جاء به شيء عظيم ! فلما ألقى سمعه إلى الرسول — ﷺ — إذا ما رآه وما سمعه يقول كل ما تصوره عقله . وإذا يعيشوا تنزاح عن قلبه ، وإذا به يمتلئ بأنوار اليقين .

وخرج من دور بني عدى سعيد بن زيد وما كان يهاب من قومه غير عمر بن الخطاب ، فهو يعرف ما نال أباه زيد بن عمرو بن نفيل من اضطهاد الخطاب بن نفيل لما آمن بوحداية الله وفكر في أن يدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم . إن الخطاب كان يحرص عليه عليه شاب مكة فكأنوا يرمونه بالحجارة حتى اضطروه لأن يفر إلى الحذل ، وهو على ثقة بأن عمر بن الخطاب أشد تعصبا لأخيه قومه من أبيه . فلو عرف عمر أن سعيدا بن عمه قد أسلم وكفر بدين آبائه ، وأنه قد يسر لأخته فاصمة بنت الخطاب الدحول في الدين الجديد ، فسيطش عمر حجارته وبروجه ولن يرقق قلبه أنه ابن عمه وأنها أخته . فهو لا يحمل بأية صفة إذا ما ثار للأرباب !

ومن دور عبد شمس خرج هاشم بن عتبة بن ربيعة — إنه ابن سعد عبد شمس ، بل ابن من تحبه قريش كلها حتى إن أبا سفيان يراه أشرف الناس . أو يرضى عتبة عن صوة ابنه ؟ عتبة الذي كان يرشحه أمية بن أبي الصلت للرسالة ما عرف من الرهبان أن الرسالة المستطرفة في قريش وليست في ثقيف ؟ إنه كان يراه الرسول الموعود بولائه لأنه أررب به السن فقد فات عتبة



الأربعين ، وقد قيل لأمية إن النبي المنتظري بحث على رأس الأربعين . كيف فات هاشم أنه باتباعه ل محمد يسىء إلى أبيه وإلى أبنى سفيان زوج أخته هند ؟ إن نور الدعوة قد بهره وبساطتها أرصت فطرته السليمة ، إنها الحق وإها من ربه ، وما كان ليحفل بأبيه ولا بأبنى سفيان بعد أن استبان له العدل وأن الشرك ظلم شديد .

بذر محمد — ﷺ — بذرة الإيمان في كل بيت من بيوت شرف قریش العشرة بعون من ربه الذى جعل قلوب الأحرار والعبيد تفتح لدينه القويم . وسنعلقل البدور في المجمع النكى ، وستروى بدماء الشهداء لتستوى أعرادا قوية ، وتتفرع لتظلل الإنسانية من هجير الوثنية .

وأحس بعض المكيين بالمتسللين فخرجوا في أثرهم يرصلونهم ، حتى إذا ما اجتمع المسلمون برسول الله — ﷺ — وألقوا إليه أسماعهم وتفتحت له قلوبهم ، عادوا مهرولين إلى دور بنى مخزوم وأفضوا إلى أبى جهل بما رأوا ، فجمع أبو جهل بعض رجاله ثم انطلق إلى حيث كان محمد — ﷺ — وصحبه .

كان المسلمون قد اصطفوا حلف نبيهم الأمين وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، قد قطعوا كل علاقتهم بالدنيا وراحوا ينعمون بمناجاة بهم الولحد القهار . فلما أقبل أبو جهل ورفاقه أخذهم ذلك الخشوع الذى ران على المصلين الواقفين بين يدى إله لا يرونه ، فاخطفوا حلف صخرة ينظرون وقد صوبت عيونهم إلى سليل بنى هاشم وقد أم أصحابه فاستشعر أبو جهل حسدا أسدل حجبا على بصره وبصيرته فلم ير عياش بن أبى ربيعة بين المصلين ، ولم ير الأنوار التى غمرت المكان وقاضت من القلوب . كل ما رآه أن على بعد خطوات منه جماعة شقت عصا الطاعة وعبدت إلها

( دعوة إبراهيم )

غير ما يعبدون ، فوجب عليه تأديبهم . ولكنه رأى أن ما معه من رجال أهون من أن يقضوا على هؤلاء الصابئين ، فوقف ينظر وهو يتميز غيظا يكاد صدره أن يتمزق .

وقضيت الصلاة وانطلق سعد بن أبي وقاص وبعض أصحابه لقضاء حاجة فمروا بأبي جهل وصحبه ، فراح أبو جهل يسخر بمحمد وبما جاء به وبمن اتبعه ، فمضى الرجال إلى الرجال وتشابهكوا بالأيدى وراحوا يتقارعون بالألسن . المسلمون يمجّدون ربهم في إيمانهم والمشركون يذكرون هبل واللات والعزى ومناة وما ينظر على قلوبهم من أسماء آلهتهم ، فكانت قلوب المسلمين على قلب رجل واحد تتجه إلى رب واحد . بينما كانت قلوب المشركين شتى تتعصب لألهة متعددة لا ترتفع إلى أكثر من حجارة منحوتة وأخشاب محفورة أو منقورة أو معادن مصوغة ، ما أيسر أن تكبها على وجوهها يد إنسان .

وامتدت الأيدى إلى الحجارة فما كانت السيوف في مناطق الرجال ، وتنازل سعد بن أبي وقاص عظم عمر فضرب به وجه رجل من رجال أبي جهل فشجّه ، فسالت أول دماء بين المسممين والمشركين . كانت دماء يسيرة ولكنها كانت إيذانا بإراقة دماء تروى أرض العرب في الصراع المرير الذي سينشب بين الحق والباطل ، حتى يتم نور الله .

واشتد الصراع ضراوة وأصيب سعد بن أبي وقاص بشج أذنه وارفتعت أصوات المتلاحمين ، مخشى أبو جهل أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيجمعوا لنجدة إخوانهم ، فانسل والذين معه من المكان وقد عرس في قلب طاغية قريش كراهية محمد وأصحابه ، فإن كان يقلب إلى أهله اليوم والعيط ينهش صدره فسيحمل على استعصال البدعة التي جاءهم

بها ابن أبي كبشة ، فلم ينس القرشيون أن أبا كبشة جد محمد — ﷺ —  
من ناحية أمه قد ابتدع لقومه عبادة الشعري دون سائر الكواكب  
والنجوم !

وعاد سعد ورفاقه إلى النبي — ﷺ — والدم يسيل من أذنه ، فضمد  
محمد — عليه السلام — له جرحه وقال له :  
— في سبيل الله دملك يا سعد .

خرجت قريش كلها لاستقبال القافلة العائدة من اليمن ، وانطلق  
أشراف قريش لاستقبال أبي سفيان فهو سيد بني أمية ، وقد تزوج في  
بيوت شرف قريش والقبائل فربط الأسباب بيته وبين ذوى الجاه في  
العشائر ، فأمه صفية بنت حزن بن بحير من بني عامر بن صعصعة ، فكان  
بنو عامر أحواله ، وهى عمة ميمونة وأم الفضل بنت الحارث زوجة  
العباس بن عبد المطلب ، وقد تزوج صفية بنت أبي العاص بن أمية فكان له  
مها حنظلة ورملة وأميمة ، وتزوج زيب بنت نوفل فكان له منها يزيد بن  
أبي سفيان ، وتزوج عاملة بنت أبي أزيهر من الأزد فكان له منها عنبسة ثم  
محمد ، وتزوج صفية بنت أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان له منها  
عمرو وهند وصخرة ، وتزوج لبانة بنت أبي العاص بن أمية ، وتزوج هند  
بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فكان له منها معاوية وجويرية وأم الحكم  
وعتبة .

جمع أبو سفيان بين الأختين وتزوج في قريش وفي اليمن لأن هذه كانت  
سنة قومه ، وليجمع حوله الأصهار والأسياء من ذوى الجاه والسلطان  
من يهبون لنصرته إذا تحزبت الأمور واحتاج إلى أعوان .

وتعانق الرجال الذين أشرقت وجوههم بالبشر للقاء بعد طول  
الغياب ، وهرع الأناء ليلقوا بأنفسهم في أحضان الآباء . وبظرت  
السوة من الشرفات والعلوب تحق بين الحوايح والدموع تفرق في

العيون والعواطف الجياشه غور في الصدور ، فالיום من أيام مكة النابضة بأحر المشاعر وأعنى الإحساسات .

وإطلق أبو سفيان إلى داره ومن حوله أولاده وأصهاره حظلة ويزيد وعيسة وعمرو ومعاوية ، وعبيد الله بن جحش زوج ابنته أم حبيبة ، وحويطب بن عبد العزى زوج أميمة ، والحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب زوج هند ، وسعد بن الأخنث بن شريق الثقفي زوج صحرة وكان يغص قريشا ، وأبو مرة بن عروة بن مسعود ، وفتح أبواب دار أبي سفيان لاستقبال الوافدين لتحية أبي حنظلة .

وجاء الناس يسلمون عليه ويسألون عن بضائعهم ، وجاء محمد — صلوات الله عليه — ودخل على أبي سفيان وهند بنت عتبة عنده تلاعب صبياتها فسلم عليه وسأله عن سفره ومقامه ولم يسأله عن بضاعته ، ثم قام — صلوات الله عليه — تعلقه المهابة والوقار فقال أبو سفيان هند :

— والله إن هذا ليعجبني . ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألتني عنها وما سألتني هذا عن بضاعته .

فقالت له هند وهي مستمرة في ملاعبة صبياتها :

— وأما علمت شأنه ؟

فقال أبو سفيان وهو فزع :

— ما شأنه ؟

— يزعم أنه رسول الله .

فشرذ أبو سفيان وتذكر ما كان بينه وبين أمية بن أبي الصلت يوم أن خرجا معا إلى الشام ودخل أمية على عالم من علماء النصارى يسأله عن أشياء فقد كان يطمع في أن يكون النبي المرتقب ، ورن في وجدانه ما كان

بينهما من حوار :

— حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

— إى والله .

— وكريم الطرفين وسط في العشيرة ؟

— نعم !

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا . بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به ؟

— كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

— لا . تذكر حديثى بأنى منه ما هو آت .. فإن الذى رأيت أصابنى

أنى جئت هذا العالم فسألت عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى

يتنظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب فمن

أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت يحجه العرب . قلت : ومينا بيت

تحجه العرب ! قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شيء

ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو

أن أكون إياه . قلت : فإذا كان ما كان فصع لي . قال : رجل شاب حين

دخل في الكهولة . بنو أمره يحسب المظالم والمخارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشرة ، أكثر جنده من الملائكة .

فرجف أبو سفيان حتى قالت له هند :

— ما لك ؟

فانتبه فقال :

— إن هذا هو الباطل ، هو أعقل من أن يقول هذا .

— بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه .

— هذا هو الباطل .

وخرج أبو سفيان ، فهنا هو يطوف بالبيت إذ به قد لقي الرسول عليه السلام فقال له :

— إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا فأرسل من يأخذها ولست آخذ

منك فيها ما آخذ من قومي . كان فيها خير .

فأبى رسول الله إلا أن يأخذ منه أبو سفيان ما يأخذه من قومه وقال :

— إذن لا آخذها .

— فأرسل فخذها وأنا آخذ منك ما آخذ من قومي .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى بضاعته فأخذها ، وأخذ منه أبو سفيان ما كان يأخذه من غيره .

ولم ينشب أن أخرج إلى اليمن ثم قدم الطائف فنزل على أمية بن أبي الصلت ، قال أمية :

— يا أبا سفيان ما تشاء ، هل تذكر قول النصراني ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟ .

— محمد بن عبد الله .

فقال أُمّية في انفعال :

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب . قالت لي هند : يزعم أنه رسول الله .

وأحس أُمّية كأن خجرا يغوص في قلبه ويمزق أحشائه ، فقد عاش سنين طويلة وهو يحلم بأن يكون النبي المنتظر . ويا طالما جلس إلى نساء ثقيف يحدثهن حديث الدين ويقول في زهو إنه المرتقب والموعود ومن بشرت به الأنبياء . وقد نزل به هم ثقيل لما قال له عالم النصارى إن الموعود من قريش وإنه في الأربعين . فخرجت النبوة من يده فهو ليس من قريش وقد فاتت تلك السن بأعوام كثيرة . فلما تلفت في قريش لم يجد فيها غير عتبة بن ربيعة إلا أن المال والسن والشرف أزرين به . وما خطر له على قلب أبر القاسم فهو في عرلة عن نوادى قومه وساحات الشعراء ، وقد حسب أنه استكن إلى الدعة التي ومرتها له الطاهرة وسيدة نساء قريش . كان حزنه عميقا لما وصف له النصراى نبي الأميين ، وقد اعتكف بعد عودته من تلك الرحلة وكره الدنيا والناس . أفيستمر في زعمه بأنه ينتظر أوامر ربه ليبلغ رسالته أم يطبق شفتيه ويلتزم الصمت حتى ينسى أهل الطائف ما سرى بينهم من وهم كان هو مصدره ؟

تبخرت آمال سنين عقب مقابلة ذلك النصراى ، وهانت في عينيه مسوح الرهبان التي كان يرتديها ، وفترت حماسته وهو ينظر في كتب الدين فقد كان يتعب لغاية . فلما تصدع يقينه واهتز إيمانه باصطفاء الله لإياه استشعر هو أن أمره ، وتغنى من أصعاقه لو أن الناس غصوا أبصارهم عنه



وتركوه في زوايا النسيان بمصغ آلامه وحده .  
 إنه عانى أعمق الأسى لما قيل له إنه ليس المتطر . أما وقد بعث الله  
 رسوله فهو يستشعر بنفسه تذهب شعاعا وكأنما لم يعد له وجود ، وأحس  
 استحياء من نساء قريش وإن لم يلق منهن أحدا أنه كان يحدثهن أنه هو .  
 وقال في صوت خافت كأنما يأتي من قرار سحيق :  
 — فالله يعلم ؟

وأخذ يتصيب عرقا ثم قال :  
 — والله يا أبا سفيان لعله . إن صغته لمي ، وثمن طهر وأنا حي لأطلب  
 من الله في نصره عدرا .

تري أويصدق وعده ويتبع أمية بن أبي الصلت من كان يطمع في النبوة  
 محمدا رسول الله — ﷺ — ، وقد استبان له الرشد ؟  
 ومضى أبو سفيان إلى اليمن وكان في القافية العباس بن عبد المطلب ،  
 وراحت الأيام تمضي في هدوء أشبه بذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة .

٢٢

دبت الحياة في بيت خديجة ، فأم أيمن تغدو وتروح في الدار وقد لاح  
على وجهها الاهتمام ، ووقفت فاطمة الزهراء عند مدخل غرفة نوم أمها  
الحبيبة ، بينما كانت ربيب والقابلة عند فراش الطاهرة ينتظران أن تصع  
ما في بطنها .

وجلس محمد — ﷺ — حيث اعتاد أن يجلس أهل البيت ، وعلى  
مقربة منه علي بن أبي طالب وهند بن أبي هالة وزيد بن حارثة وقد لزموا  
الصمت وإن أرهفت حواسهم وامتدت آذانهم إلى حجرة سيدة نساء  
قريش .

وحفت الرجل بعد أن هرعت أم أيمن إلى سيدتها ، ولف الدار سكون  
وعلا الوجوه ترقب وانتظار ، وإذا بصوت وليد يجلجلج في المكان فتنتشى  
النفوس وتنزل طمأنينة بالقلوب وتنسبط الأسارير ، وإن كان في الضمائر  
تشوف إلى نوع المولود .

وحاءت أم أيمن تسبقها فاطمة وعلي وجهيهما البشرى ، وقبل أن  
تصلا إلى حيث كان رب الدار سبغتاهما إليه أصواتهما النابضة بالفرح :  
— ولد .. ولد .

وانفرجت ابتسامة رضا عن أسنان رسول الله — ﷺ — المعلقة ،  
وحمد الله على ما آتاه ، وغمر الدار فرح فياض . وزاد في غبطة رسول الله  
— عليه السلام — أن رأى تهلل الاستبشار على وجوه علي وفاطمة وهند

وزيد وأم أمين ، فقد كانت المشاعر النبيلة تهزه حتى لتكاد تبلل أهداب عينيه .

وقام يدخل على زوجته التي واسته وشدت أزره ووقفت إلى جواره على الدوام ، فمضى يتقلع كأنما ينحط من صلب ذريع الخطوة سائل الأطراف تعلوه مهابة . فقد غص طرفه ليخفى الفرح الذي يترقق في مقلتيه .

وتقدم من فراش خديجة فوجت شفثيه ابتسامة رقيقة ما إن رأتها زوجها حتى تبددت كل أوصابها واستشعرت كأن رحمة من ربها فاضت عليها ، فإذا بكل مشاعرها تسجد لله شكرا وإذا بروحها تؤدي في لحظة أعمق صلاة .

ومدت زينب يديها ورفعت الوليد في رقة فقدمته إلى أبيها ، فأخذه رسول الله — عليه السلام — على كفى الحنان فدفت من كتوز قلبه مشاعر نابضة بأجل ما في النفس البشرية من حساسات الحب والرافة والرحمة والإشفاق .

ورست خديجة إلى روجها وفلذة كبدها بين يديه وهو يميل عليه ليضع قبلة على جبينه فأحست كأن قوادها يلثم الوجود جميعه ، وكأن كل أفراح الأرض والسماء تنسكب في وجدائها وتغمر عواطمها ، فلا تجد لها مفسا إلا أن تترقق في مآقيها الدموع كأنها من رحمة الرحمة وعين الرأفة وذات الرقة والإشراق . كانت ترجو أن يكون لها ولد من الرجل العظيم الذي اصطفاه رب العالمين لتبلغ رسالته ، فهو شرف لا يدانيه شرف في الدنيا أن يكون لها ولد من خاتم الأنبياء . وكانت تقدر النعمة التي حصها الله بها من فيض كرمه فلم تجد للتعبير عن شكرها العميق لما أعطها الله غير

الإتفاق في سبيل الله ، فأمرت ببحر النحائر وتوريعها على فقراء مكة ابتغاء مرضاة الله

وذاع في مكة أن الطاهرة وسيدة ساء قريش أنجبت لأبي القاسم ذكرا وأنه سماه عبد الله ، فهرع المسلمون مستبشرين فرحين إلى دار النبی ﷺ — مهتئين بأن من الله عليه بمن يرث الأجداد . ولما خرج أبو القاسم عندهم به خفقت قلوبهم بالحب وهم يمدون أعينهم إلى بضعة من الرسول — عليه السلام — . ولما كان عبد الله قد ولد بعد اصطفاء الله لأبيه ﷺ — ولم يشهد من أمر الجاهلية شيئا ، فقد لقبه المسلمون بالطيب والطاهر ، ولا عرو فقد ولد في نور الإسلام

وتعلق قلب حديجة بالوليد فأبت أن تدفع به إلى المرضعات في اليوم الثامن من مولده كما كانت عادة سادات قريش ، وأقنعت نفسها بأنه لن يجد في قبائل البادية من هو أفصح من رسول الله ﷺ — ولا من هو في مثل علم علي بن أبي طالب ربيب ربيب السماء . كانت دارها متارة للدين الحديدي وإنه لخير لعبد الله أن يشب في ميع الحكمة والنور .

وكان علي وفاطمة يداعبان عبد الله وحديجة تربو إليهما متفرحة وسرعان ما يشرذ خيالها فتذكر ما قال زوجها الحبيب ليلة مولد ابن أبي طالب : « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبو بكر كثيرة من العمة والرحمة » . ففى تلك الليلة كشف عن بصر محمد ﷺ — فشاهد أنوارا وهو يتبتل في غار حراء ، وكان رسول الله ﷺ — يتيمن بتلك السنة ويسميا سنة الخير وسنة البركة .

كان علي في حجر ابن عمه ولد على الفطرة وقبل أن يفسد أبواه تلك الفطرة بتلقيه عادات قومه ومعتقداتهم ، أكرمه الله بأن دفع به إلى دار

الدوة ليتولى أبو القاسم تربيته ويعصمه من مساوئ الجاهلية ، فإن كان الله قد كرم وجهه على وقد ولد قبل الرسالة بعشر سنين فعبد الله قد ولد بعد المبعث ولا كان كافرا طرفة عين .

كانت خديجة سعيدة بعلي ، سعيدة بفاطمة ، سعيدة بمرور النبوة التي أشرقت في دارها . وبلغت سعادتها ذروتها لما أنجبت لرسول الله ﷺ — عبد الله . فغبطها قد غاقت ذلك السرور الذي غشيها لما جاءت بالقاسم ، فالقاسم كان ابن الرجل البيل الذي تطمع خديجة في أن يكون هو السبي المرتقب . أما عبد الله فهو وريث مجد رسول الله من اصطفاه ربه ليبغ الناس رسالته . وهو مجد ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وراحت خديجة تحتضن ابنها وقد جاشت عواطف الأمومة فيها حتى كادت تفتقها عن جليل رسالتها . فهي لم تخلق لتكون حاضنة لوليد حتى لو كان ولد رسول الله ﷺ — بل خلقت لتكون حاضنة أعظم رسالة حملها بشر ، لتكون أمًا للمؤمنين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها ، أمًا يفيض حنانها وعظمها وشدي ذكراها العطرة على أبناء ذلك الدين القويم الذي بزغ بوره أول ما بزغ من دارها على مر السنين والأجيال والقرون . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كان الإسلام لا يزال سرا في صدور المؤمنين به ، فإن كان الله قد أمر رسوله بأن يقوم وينذر ويكرر ربه فقد كان يدعو صحابته ومن يثق بهم . وكان أبو بكر يدعو سرا في ناحية وعثمان يدعو سرا في ناحية وسعد والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وكل من أشرق قلبه بمرور اليقين بدعون إلى الدين الجديد همسا ، فما استعلن أمر الإسلام بعد ،

وهو في حاجة إلى جهود مضنية وصبر طويل وكفاح مرير حتى يتم الله بوره ، وهو أحوج ما يكون إلى إيمان خديجة ونصرها وصمودها كالطود إلى جانب الرسول — عليه السلام — ، لا تزغزغها عواصف الشرك ولا تنال من عزيمتها أسلحة الاضطهاد ولا يشغلها عن تأييد دين الله مشاغل من ولد ودنيا ، فقد ارتضت أن تكون لله ومن كان لله لا يشغل عنه بما سواه .

ومرت الأيام ومحمد ﷺ — يقابل الراغبين في الدين الجديد في داره أو في شعاب الجبال بعيدا عن عيون سادات مكة وأشrafها . يعرض عليهم الإسلام أو يفقههم فيه ثم يعود إلى حديجة يقص عليها ما كان في يومه يومه تصفى إليه في فرح واستبشار . ثم تدفع إليه بابه عبد الله فيأخذه ويقبله ويداعبه فيستشعر كأن لوصاب اليوم قد تبخرت وأن عواطف رقيقة حانية تنفجر من فؤاده فتغمره بسعادة واستبشار .

كان يحب زينب ورقية وأم كشوم وفاطمة وكان يفيض عليهن من فيض قلبه الكبير . وقد حزن على موت القاسم ، فلما من الله عليه بعد الله وجد فيه عوضا عن أخيه فتعلق به وأحبه . وكان يحس عبطة لما يسمع أصحابه يكتنون الصغير بالطيب والطاهر . وقد شكر الله بلسانه وفؤاده وكل جوارحه أن جاء عبد الله بعد أن اصطفاه ربه لرسالته ، فسيشب في وهج الأنوار .

و ذات يوم هرعت إليه خديجة وفي وجهها هلع وقالت له إن عبد الله مريض ، فخب إلى حيث كان ابه في أحضان أم أيمن ونظر في وجهه فألقاه ذابلا وقد ضاق صدره وكأنه ينهمس من ثقب إبرة ، فأحس أبو القاسم أسى يطوف به ، وتحركت رفته فمد يديه وتناول ابه وضمه إلى صدر

الحنان ، فاستشعر بالطيب يتنفض في حضنة فترقرق الدمع في عييه .  
ورأت خديجة العبرات بين أهدابه الطويلة . فاشتد وجيب قلبها وانتشرت  
رهبة بين ضلوعها ونزل حزن ثقیل . فقد فطنت إلى أن عبد الله يموت .  
أيمضي عبد الله هكذا سريعا بعد أن ملأ الدار حياة وأملا ؟ أتموت أمانيها  
المشرقة المجنحة العريضة التي داعبتها كلما مدت عينها إلى ابن رسول الله  
ﷺ — ؟ كانت ترى فيه وريث النسخة الإلهية والشرف الذي لا  
يسمو إليه شرف . وما اتضحت لها في ذاك الوقت حقيقة أن ما جاء به  
محمد عليه السلام ليس ميراث مرد من البشر أو جماعه من الناس ، بل  
ميراث البشرية جمعاء .

إنها تقرأ في وجه زوجها هول العاجمة وتستشعر من الأمي الذي غمره  
قمة المأساة فترتجف من الرأس إلى القدم ، فعبد الله يجود بأنفاسه ويدب  
الفناء فيه ليودع الدنيا .

واحر قلباه ! واكرهاه اذهب عبد الله ولن يموت ، وسيفر كما قهر أخ  
له من قبل مخفا في القلب حشرات . إنها حزنت على فقد القاسم ولكن  
حزنها على فقد عبد الله يفوق كل ما مر بها من أحزان ، فالأمل في أن تنجب  
لأبي القاسم ولد بعد القاسم كان كبيرا ، أما اليوم فلا أمل في الإحباب .  
ووقعت عياها على زوجها الواله الحزين وهو يسجي ابنه الحبيب في فراشه  
والدموع تسيل على خديه وتبلل لحينه ، فلم تستطع احتمال لوعة النفس  
فأجهشت بالبكاء . وارتفع صوت أم أيمن بالحبيب ، وجاء على وقاطمة  
وقد فطنا إلى أن الموت قد اختطف الطيب فخنقتهما العبرات . وراحت  
خديجة تلدرف الدمع الغتون ولقيت من مصيبتها نصبا ، فذهب إليها رسول  
الله ﷺ — يواسيها ويمسح بحمائه عن فؤادها الأحزان ، وإن كان  
فؤاده يكاد ينفطر على الطاهر الحبيب .

راح محمد — ﷺ — يدعو الناس إلى الإسلام سرا وجهرا ، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير مكربين لما يقول ودخل دار الأرقم بن أبي الأرقم وكانت على الصفا تطل على الحرم ودار الندوة وتكشف حركات سادات قريش وكل ما يجري في الكعبة .

وفي دار الأرقم كان المسلمون يصلون ويتمقهون في أمر الدين ، وكان الراغبون في الإسلام يفتدون إلى رسول الله — ﷺ — يقولون إليه أسماهم فتنشرح صدورهم للدين الجديد ، وما كان كفار قريش يفعلون أكثر من السخرية من ذلك الذي يأتيه خبر السماء فما كانوا يقدرين حصر دعوته .

كانت العبادات تمارس في حرية في أول بيت وضع للناس ، فكانت اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية والحيفية والصابئة تعيش في ظل الكعبة جنباً إلى جنب ما دام أصحاب تلك الديانات لا يعيرون دين قريش . وما كان أكابر القوم يرون في دعوة ابن عبد الله ما يثير غضبهم فقد حسبوا في أول الأمر دعوة من دعوات التوحيد المأذونة التي كانت تظهر بين الحنفاء بين الحين والحين .

وأوحى الله إلى عبده : ﴿ وأنذر عشيرتلك الأقربين ﴾ . واحفض



جناحك لمن أتبعك من المؤمنين ﴿١﴾ . فاشتد ذلك على النبي ﷺ —  
فمكث شهرا جالسا في بيته يكره في أمر الله وخديجة تشد أزره وتمون عليه  
الأمر ، وهو يستشعر عجزه عن احتمال الوقوف في وجه بني هاشم وبني عبد  
المطلب وبني عبد شمس وبني نوفل الثائرين العاضين .

وظنت عماته أنه مريض فدخلن عليه عائدات ، فقال — ﷺ — :  
— ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرني بقوله : وأبدر عشيرتك الأقربين .  
فأريد أن أجمع بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى .

— فادعهم ولا تجعل عبد العري ( أبا لهب ) فيهم فإنه غير مجيئ إلى  
ما تدعوه إليه .

وراح محمد — ﷺ — يفكر فيما أمره به ربه . إنه أوحى إليه :  
﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ﴿٢﴾ . وقد نصحه عماته  
ألا يدعوه أبا لهب ولكنه لا يستطيع أن يستجيب لتلك النصيحة ، فعنه  
من عشيرته الأقربين . وما كان لرسول أن يعصى أوامر ربه وإن كان على يقين  
أن أبا لهب سيسمعه ما يكره ، بل قد تكون دعوته إلى الإسلام من أسباب  
تعريض حياة ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم ، فقد روح ابنته لابی عمه عتبة  
ومعتب وهما ألعبوبة في يد أمهما أم جميل بنت حرب التي تهش العيرة قلبا إذا  
ما أصاب غيرهما خير .

وأصبح الصباح فبعث رسول الله — ﷺ — إلى بني عبد المطلب  
محضروا وكان فيهم أبو لهب وقد ظن أنه ما جمعهم إلا لأنه يريد أن ينزع عما  
يكرهون إلى ما يحبون ، فقال له :

(١) الشعراء ٢١٤ — ٢١٥ (٢) الحجر ٩٤

( دعوة إبراهيم )

— هؤلاء عمومك وبو عمومك فتكلم بما تريد ، واترك الصباة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة ، وإن أحق من أخذك وحسبك أسرتك وبو أيك . إن أقمت على أمرك فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وعمدها العرب ، فما رأيت يا بني أحى أحدا قط جاء بى أبيه وقومه بشر مما جثتهم به .

ودار حوار شديد بين عبد المطلب وبين رسول الله ﷺ — انتهى بأن انسحب الموجودون دون أن يستجيب أحد منهم إلى دعوة محمد ﷺ — ، ومرت أيام ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى فجمعهم رسول الله ﷺ — دنيا وخطبهم ثم قال لهم :

— إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما عررتكم . والله الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى لناس كافة . والله تموتن كما تاملون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإما لجنة أبدا أو نار أبدا . والله يا بني عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جثتكم به . إني قد جثتكم بأمر الدنيا والآخرة .

فتكلم القوم كلاما لينا غير أنى لهب فإنه قال :  
— يا بني عبد المطلب هذه والله السوءة ، حذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ دلتم وإن منعتموه قتلتم .  
فقلت له أخته صفية :

— أى أحى أبحس بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من صئصئ ( أصل ) عبد المطلب بى فهو هو .

قال أبو لهب في ضيق :

— هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء في الحجال ، إذا قامت  
بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم  
إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب :

— والله لمنعته ما بقينا .

وأحسن محمد — ﷺ — صدق تأييد أبي طالب ، فذهب إلى داره  
واجتمع هناك بنى عبد المطلب فقال لهم :

— يا بنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم  
خاصة ، فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين . وأنا أدعوكم إلى كلمتين  
خميمتين على اللسان ثقيلتين في الميزان : شهادة أن الله لا إله إلا هو ، وأنى  
رسول الله . فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤاررني على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس . فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤاررني على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس .

ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم ، فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس ، فأنت أخى ووزيرى .

وعزم محمد — عليه السلام — على أن يدعو قريشا فقام على الصفا

وقال :

— يا معشر قريش .

فقلت قريش :

— محمد على الصفا يهتف .

فأقبلوا واجتمعوا فقالوا :

— ما لك يا محمد ؟

— أرأيتم لو أخبركم أن حيلة بسمع هذا الحبل أكنتم تصدقوني ؟

— نعم ، أنت عددا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط .

— وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب ، يا بني

عبد مناف ، يا بني زهرة ...

حتى عدد الأفخاذ من قريش .

— إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا

منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله

فقال أبو لهب :

— نبا لك سائر اليوم .

وانصرف أبو لهب وسار معه رجل من قريش ، فقال له الرجل :

— فما تفعل إن كان ما يقوله محمد حقا ؟

فقال أبو لهب في سخرية :

— إن كان ما يقوله محمد حقا افتديت منه بمالي وولدي .

وعاد أبو لهب إلى داره وراح يروي على امرأته ما كان من محمد ابن

أخيه ، فراح أم جميل تشاركه في هزئه وسحريته ولكن ذلك لم يشف

غليلها فهي حاقدة بطبعها أنانية لا تطيق الخير لغيرها . فهي نستشعر

بالار ترعى في أحشائها كلما وصف قومها حديجة بالطاهرة . ولولا الخشية من أن تكشف عن خبيثة نفسها الخاسدة الخبيثة لأعلت على الملائكة سب حديجة . فلما بلغها أن محمدا لم يكتف بأن زعم أن الخير يأتيه من السماء بل دعا قومها إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله راد حنقها على ابن عبد الله وزوجه ، فلو آمن الناس بدعوته لربا شرف سيده ساء قريش ، وأعمتها الغيرة عن أن ترى في بوة محمد شرف بنى هاشم بل شرف قريش كلها . وأنت أد تصيخ إلى صوت قلبها الذي حاول أن يقيمها بأن بوة محمد — ﷺ — شرف عظيم سيسر بل ولديها محنت وعتبة زوجي ابتى رسول الله ، فأحست رغبة طاعية في أن تحطم الدعوة الحديدة وما يأتي به من اتحاد لعريمتها التي صارت هدفا لعن نفسها .

وانسلت من الدار لتدور على دور فريش تسب محمدا عليه السلام وتنازل من حديجة لتشفي مرض قلبها وتعرض الناس على من جعل الآلهة إلهها واحدا وزعم أنه يكتم من السماء ، فطفت تنفث سمومها وترين للناس مقاومة الدعوة التي فرق بين الأح وأخيه ، والمرء وأبيه ، والرجل وصاحبه التي تؤويه . وبعد أن طافت بالدور وفيما هي في طريق عودتها إلى دارها راحت تجمع الخطب . فلم تسب بخلفها الذي جبلت عليه وهي تشرب حربها الشعواء على محمد — عليه السلام — وروجه ، فهي كأخيها أبي سفيان شحيحة وكان البخل أبرز صفاتها .

وأوحى الله إلى محمد — ﷺ — ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب \* ما أغنى عنه ماله وما كسب \* سيصلى نارا ذات لب \* وامرأته حمالة الحطب \* في جيدها حبل من مسد ﴾ (١) . فأرسل لمن كان عنده من كتاب الوحي

ليكتب ما أنزل عليه. ولما انتهى شرد يفكر في ذلك الهجاء الشديد لعمه وامراته فتبين أن قد انفصمت كل الصلات الطيبة بينه وبينهما .

كانت رقية وأم كلثوم في كنف ابى عمهما وقد تيقن بعد نزول الوحي بسورة المسد أن لم يعد لنتيته الحبيبتين مكان في دار أوى لهب ، فلو كان الأمر بيده ما هجا عمه ولا امراته وما عكر صفو رقية وأم كلثوم ، ولكن الله هجاهما وقد أمره الروح الأمين بأن يصدع عما يؤمر فراح يقرأ على المسلمين ما أنزل عليه .

وذاعت سورة المسد في مكة ومشى بعض الناس بها إلى أوى لهب وأم جميل ، فاربذ وجه أوى لهب واستند به الحنق والعصب فبعث في طلب عتبة ومعتب وقال هما إن محمدا قد سبه وسب أم جميل ، ثم التفت إلى عتبة وقال :

— رأسي ورأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد .

فقال معتب في غضب :

— لآتين محمدا فلاؤذنيه في ربه .

واطلق معتب إلى محمد عليه السلام وكان عد أوى طالب . فأتاه وسب إلهه ثم بصق في وجهه ورد عليه ابنته وطلقها . فقال محمد — ﷺ — :

— اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك .

فوجم لها أبو طالب وقال :

— ما كان أعماك يا بن أخى عن هذه الدعوة

وخرج محمد عليه السلام إلى الحرم والتقى بأبى بكر فراجا يتحاوران ، وفيما هما في حديثهما إذ أقبلت أم جميل وفي يدها حجر وقد أعماها

الغضب ، فلما رآها أبو بكر قال :

— يا رسول الله إنها امرأة بدية فلو قتلت هو الله لتؤدينك .

— إنها لن ترائي .

فجاءت فقالت :

— يا أبا بكر ، صاحبك هجاني .

— لا ورب هذا البيت ما هجاك .

وكان أبو بكر يقول صدقا ، فما هجأها رسول الله بل ما هجأها إلا الله .

— أنشد في شعره .

— والله ما صاحبي بشاعر وما يدري ما الشعر .

— والثواب إنه لشاعر وإني لشاعرة .

مذمما أبيينا — ودينه قلينا

وأمره عصينا

ولم يغضب أبو بكر فقد صرف الله عن رسوله شتم قريش ولعنهم ،

يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وهو محمد .

ثم ولت أم جميل ذاهبة فالتفت أبو بكر إلى الرسول — ﷺ — ، فلما قرأ في وجه أبي بكر التساؤل قال :

— جعل يبس وبينها حجاب .

ومر رسول الله — ﷺ — على قومه وهم يسجدون للأصنام فقال :

— يا معشر قريش والله لقد خالتم ملة أبيكم إبراهيم .

وعرفوا أنه يعبرهم بعبادة الأصنام ، فيا طالما قال لهم إنها حجارة

لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فقالوا :

— إنما نعبد الأصنام حيا لتقربنا إلى الله .

وعصرف رسول الله — ﷺ — إلى داره مہرع إليه أصحابه ليمتقعہوا في دينهم ، وجاءت قريش إلى حصين وكانت تعظمه فقالوا له :  
— كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي — ﷺ — ، ودخل حصين وابنه عمران مع رسول الله — عليه السلام — ، فلما رآه النبي قال :

— أوسعوا للشيخ .

فجلس حصين فقال :

— ما هذا الذي بلغا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟  
فقال :

— يا حصين كم تعبد من إله ؟

— سبعة في الأرض وواحد في السماء .

— فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟

— الذي في السماء .

— فإذا ملك المال من تدعو ؟

— الذي في السماء .

— فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟ أرضيته في الشرك يا حصين ؟  
أسلم تسلم .

واستمر الحوار فإذا بحصين ينشرح صدره للدين الجديد فيعلن إسلامه ، فيقوم إليه ولده عمران فيقبل رأسه ويديه ورجليه فرحا بأن هدى الله أباه إلى الإسلام ورحرحه عن نار جهنم .



- وبكى رسول الله — ﷺ — فشخصت إليه الأبصار فقال :
- بكيت من صرع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفي حقه فدخلني من ذلك الرأفة .
- فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :
- شيعوه إلى منزله .
- فلما خرج من سدة الباب رأته قريش قالوا :
- قد صبا .
- وتفرقوا عنه وصدورهم تكاد تميز من العيظ وتنمجر من العصب .

٢٤

كان أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب يجوبان السوق في اليمن وإذا برسول يقدم من مكة ويقدم إلى أبي سفيان كتابا من ابنه حنظلة ، فيقرأ الكتاب فيتغير لونه ويظهر في وجهه أثر الانفعال . فلما رأى العباس ما اعتراه قال له :

— ماذا في الكتاب يا أبا حنظلة ؟

فقال أبو سفيان وهو شارد :

— إن محمدا قائم في أبطح مكة يقول . أنا رسول الله ، أدعو إلى الله .

فمما ذلك في مجالس أهل اليمن فحاء جبر من اليهود إلى حيث كان أبو سفيان والعباس فقال :

— ينبغي أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال .

قال العباس :

— نعم .

فقال الجبر وهو يتفرس في وجه العباس :

— نشدتك الله هل كان لابن أحيك صبوة ؟

— لا والله ولا كذب ولا حان ولا كان اسمه عند قريش إلا الأمين .

— هل كتب يده ؟

فأراد العباس أن يقول نعم ، فخشى من أبي سفيان أن يكذبه ويرد عليه

فقال :

— لا يكتب .

فوثب الحمر وترك رداءه وقال :

— ذبحت يهود وقتلت يهود .

ورجع العباس وأبو سفيان إلى منزلهما فقال أبو سفيان :

— يا أبا الفضل إن يهود تفرع من ابن أخيك .

كان العباس على علم بأن زوجه أم الفضل على دين محمد ، وكان في

أكل ما فعل هو له مع ابن أخيه فقال :

— قد رأيت لعلك أن تؤمن به .

— لا أو من به حتى أرى الخيل في كداء .

وعجب العباس فما كانت الخيل تطلع على كداء فهو جبل وعمر ،

فقال ؟

— ما تقول ؟

ولم يدرك أبو سفيان لم قال ذلك القول فقال :

— كلمة جاءت على فمي إلا أني أعلم أن الله لا يترك خيلا تطلع على

كداء .

ولو اخترق بصر أبي سفيان حجب الغيب لرأى خيل خالد بن الوليد

تطلع على كداء يوم فتح مكة ، يوم يأخذه العباس إلى رسول الله

ﷺ — ليعلن إسلامه .

وأقبل أبو سفيان حتى نزل على أمية بن أبي الصلت بالطائف فقال :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

وصمت أمية قليلا وهو يفكر في رسول الله — ﷺ — ، ثم قال :

— قد كان لعمرى .

— فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأومس برسول من غير ثقيف أبدا .

ورأى أبو سفيان الحيرة في وجه أمية فقال له :

— ما بمعك من اتباعه ؟

فقال ابن أبي الصلت وهو يطرق برأسه :

— ما بمعى إلا الاستحياء من ساء ثقيف . إني كنت أحدثهن أنى هو

ثم يرينى تابعا لغلाम من بنى عبد مناف .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال أمية :

— كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الحدى حتى

يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

\* \* \*

وكانت في ثقيف بيت آخر قد أمه ظهور محمد — ﷺ — ودحنه من النفاسة والحسد ما ألقى أهله ، كان ذلك البيت بيت الحارث بن كعدة زوج خالة رسول الله — عليه السلام — . وكان الحق يملأ جوانب ابن خالته النضر فهو يحسب أنه أعلم العرب طرا ما دام قد ذهب إلى الحيرة وجنديسابور وتعلم أجراء الحكمة وأحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسفنديار . فلما بلغه أن ابن خالته قائم على أبطح مكة يقول : أبا رسول الله أحسن بالخقد يهش فؤاده ولم يستطع صبرا ، فشد الرحال إلى مكة ليكون على ابن خالته يهزأ به ويؤلب عليه الناس .

وشد أبو سفيان الرحال إلى مكة وهو يفكر فيما دهاها . ترى ما أمر الناس بها ؟ كان أشياح قريش في طريقهم إلى أبى طالب وقد أجمعوا خلاف ابن أخيه وعداوته ، فلما جاعوه قالوا :

— يا أبا طالب إن ابن أهلك قد سب ألفتنا وعاب دينا وسفه أحلامنا  
وصلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن نخلى بيستا وبهيه ، فإنك على مثل  
ما نحن عليه من خلافة .

فقال لهم أبو طالب قولوا رقيقا وردهم ردا حميلا ، فانصرفوا عنه  
ومضى رسول الله ﷺ — يظهر دين الله ويدعو إليه لا يرده عن ذلك  
شيء ، واستشرى الأمر وانتشر بينهم وبهيه حتى تباعد الرجال وأصمروا  
له العداوة ولصحبته ، فوثب الحكم بن العاص على ابن أخيه عثمان بن عفان  
وراح يعديه ، وأخذ نوفل بن العدوية أبا بكر وطلحة بن عبد الله فشدهما  
في جبل وحد ولم يبعهما بى تيم وراح يعذب القرينين ، وكان نوفل جبارا  
وكان يدعى أسد قرينش . وعاد عم الربيع إلى تعديه . وأقبل أبو سفيان إلى  
مكة فوجد أصحاب محمد ﷺ — يضربون ويحفرون ، وتذكر  
وصف أمية للنبي المنتظر في أثناء عودتهما من الشام : رجل شاب حين  
دخل في الكهولة ، بُدُو أمره يحجب لمظالم والمخارم ويصل الرحم ويأمر  
بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من  
الملائكة ، فجعل أبو سفيان يقول :

— فأين جنده من الملائكة ؟!

فدخله ما يدخل الناس من التماسه فمشى إلى أبى طالب مع عقبة بن أبى  
معيط ، وشيبة وعتبة ابني ربيعة بن عبد شمس ، وأبى البحتري العاص بن  
هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، ونبيه  
ومنه ابني الحجاج بن عامر ، والعاص بن وائل ، فقالوا :

— يا أبا طالب إن لك سدا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيماك من ابن  
أخيت فلم تنه عما ، وإنا والله لا نصير على هذا من شتم آباءنا وتسفيه

أحلاما وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فمعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله — ﷺ — لهم ولا خذلانه ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقى علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله — ﷺ — أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه ، وإنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له :

— يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله — ﷺ — وقام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال :

— أقبل يا بن أخي .

فأقبل عليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أتى خذلان رسول الله — ﷺ — وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

— يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد فني في قريش وأجمله ، فخذ به فلك عقله ونصره واتخذ ولدًا فهو لك خير ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسعه

- أحلامهم فقتله ، فإنما هو رجل برحل .  
 — والله لبئس ما تسومونى ، أتعطونى ابنكم أغنوه لكم وأعطىكم  
 أبى تقتلونى ؟ هذا والله لا يكون أبدا .  
 فقال له المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف :  
 — والله يا أبا طالب لقد أنصفت قومك وجهدوا على التخلص مما  
 تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .  
 فقال له أبو طالب .  
 — والله ما أنصفونى ولكنك جمعت بخذلانى ومظاهرة القوم على ،  
 فاصنع ما بدا لك .  
 — فأرسل إليه فلنعطه النصف .  
 فأرسل إليه أبو طالب ، فجاء رسول الله ﷺ — فقال :  
 — يا بن أخى ، هؤلاء عمومك وأشراف قومك وقد أرادوا  
 يتصفونك .  
 فقال رسول الله ﷺ — :  
 — قولوا أجمع .  
 — تدعنا وألحنا وتدعك وإلهك .  
 قال أبو طالب :  
 — لقد أنصفت القوم فاقبل منهم .  
 فقال رسول الله ﷺ — :  
 — أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطون كلمة ، إن أنتم تكلمتم بها  
 ملككم بها العرب ودانت لكم بها المعجم ؟  
 فقال أبو جهل :

— إن هذه الكلمة مربحة ، نعم وأبيك ليقولنها وعشر أمثالها .  
قال :

— قولوا لا إله إلا الله .

فاشأزوا ونفروا منها وغضبوا ، وقال عقبة بن أبى معيط :  
— واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد .

وخرجوا من عند أبى طالب وهم يقولون :

— لا نعود إليه أبدا وما خير من أن نقاتل محمدا .

فلما كان من مساء تلك الليلة جاء أبو طالب وعمومة محمد

— عليه السلام — إلى منزله فقد بلغهم ما عزم عليه القوم فلم يجدوه ، فجمع  
أبو طالب فتيانا من بنى هاشم وبني المطلب ثم قال :

— ليأخذ كل واحد حديدة صارمة ثم ليتبعنى إذا دخلت المجلس

فليجلس كل فتي منكم إلى عظيم من عظمائهم ، فيهم ابن الحنظلية  
( أبو جهل ) فإنه لم يغيب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقال العتيان :

— نفعل .

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال .

— يا زيد أرأيت ابن أخى ؟

فقال زيد :

— نعم كنت معه آنفا .

فقال أبو طالب :

— لا أدخل بيتى أبدا حتى أراه .

فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسول الله ﷺ — وهو في بيت عند



الصفاء ومعه أصحابه يتحدثون . فأخبره الخبر فجاء رسول الله

ﷺ — إلى أبي طالب فقال :

— يا بن أحمى أين كنت ؟ أكنت في خير ؟

— نعم .

— ادخل بيتك .

فدخل رسول الله ﷺ — ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبی

ﷺ — فأخذ بيده فوقف على أنذبة قريش ومعه الفتیان الهاشميون

والمطلبیون فقال :

— يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟

— لا .

فقال للفتیان :

— اكشفوا عما في أيديكم .

فكشفوا فإذا كل رجل معه حديدة صارمة ، فقال :

— والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم .

فاكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل .

اجتمع المسلمون في دار الأرقم بن أبي الأرقم يتحدثون وكانت الدار على الصفا تطل على الحرم ، وحانت الثمناة من أبي بكر فرأى قريشا في مجالسهم فضاق بأن المشركين كانوا آمنين في بيت الله بينما كان المسلمون يترقبون خشية من الناس . إنه على الحق وهم على الضلال فكيف يختفى النور تاركا الدنيا للظلمات ؟

وراح أبو بكر يحدث محمدا — ﷺ — ويلح على رسول الله في الظهور ، فقال رسول الله — ﷺ — :  
— يا أبا بكر إنا قليل .

كانوا قلة حقا ولكهم كانوا أقوياء باليقين الذي نزل بأفئدتهم . فهال القوم في عيني أبي بكر فجعل يتحدث في حماس وصدق يزين له الخروج إلى المسجد لإعلاء كلمة الله ، ولم يزل به حتى نزع رسول الله — ﷺ — ومن معه من أصحابه إلى المسجد .

وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله — ﷺ — حاس ودعا إلى الله ورسوله ، فامتلا سادات قريش حقا فقد صافوا بدعوة ابن عبد الله وكلموا أنا طالب فيه وبيتوا العذر لمن سب آلهتهم وسعه أحلامهم ، وقبل أن يألوا منه شيئا ، أياقني ابن أبي قحافة ليسحر منهم على أعين الناس ؟ إنها الفتنة وإن سكتوا عليها استشرى الشر في مكة ، فثاروا على أبي بكر وعلى المسلمين وضربوهم ضربا مبرحا ، ووطئ أبو بكر بالأرحل وصرب

ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بعليين مطبقتين وبحرفهما إلى وجهه بعنف حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فقد غرق في دم غزير بعد هذه القسوة القاسية .

وطار الخبر إلى بني يميم رهط أبي بكر فجاعوا والشر يطل من أعينهم وأصوات مزعجة متوعدة تنطلق من أفواههم ، فأجلوا المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب إلى أن أدخلوه منزله لا يشكون في موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا :

— والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .

ثم رجعوا إلى أبي بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تميم يكلمونه فلا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال :

— ما فعل رسول الله ﷺ — ؟

فراحوا يلومونه على ما فعل فعاد يقول :

— ما فعل رسول الله ﷺ — ؟

ونظر إلى أمه فقالت :

— والله ما لي علم بصاحبك .

— اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

وخرجت أمه إلى دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ودخلت على فاطمة بنت الخطاب وقالت لها :

— إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله .

فقالت فاطمة :

— لا أعرف محمدا ولا أبا بكر .

كانت فاطمة ترتجف خشية أن يعرف أخوها عمر بن الخطاب أمر

إسلامها فيأتي ليطش بها ، فهو جبار لا يطيق الدعوة الجديدة ويقتفى أثر المؤمنين بها ليصب عليهم سوط عذاب ، فلما اطمأنت فاطمة إلى أم أبي بكر قالت لها :

— تريدن أن أخرج معك ؟

— نعم .

فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا فصاحت وقالت :

— إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم .

فقال لها أبو بكر في هففة :

— ما فعل رسول الله ﷺ — ؟

فالتفتت أم جميل ناحية أم أبي بكر وقالت :

— هذه أمك تسمع .

— فلا عين عليك منها .

— سالم .

— أين هو ؟

— في دار الأرقم .

— والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ —

وهم أبو بكر بالنهوض فحمت إليه أمه وقالت :

— فأمهلنا .

وراحت أم أبي بكر تفكر في ذلك الدين الذي يتحمل أتباعه في سبيله

كل هذا الاصطهاد فلا يردادون إلا إيماننا وتسليما . إنها تعرف ابنها عقلا

رشيدا وتعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة . فهو الأمين الصادق الذى عرف بحلقة القويم . واستمرت تفكر فى الدعوة التى جاءها فألفتها دعوة يقبلها العقل ويستريح إليها القواد ، حتى إذا هذأت الرجل وسكن الناس خرجت به أمه وأم حميل بنت الخطاب يتكىء على أمه حتى دخل على رسول الله — ﷺ — ، فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله وأكب عليه المسلمون يقبلونه وقد غامت أعينهم بالدمع ، فقال أبو بكر :

— بأى وأمى أنت يا رسول الله ما فى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها فعسى الله أن يقبذها بك من النار .

فدعا لها رسول الله — ﷺ — ودعاها إلى الإسلام ، فقالت :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فطفق أبو بكر يرنو إليها وليس على وجه الأرض من هو أسعد منه لإسلام أمه البارة بولدها .

ودخل إلى الحرم رسول الله — ﷺ — وبعض صحبه فيهم عبد الله ابن مسعود يمشى أمامه ، وجنس المسلمون وقام رسول الله — ﷺ — يصلى وقد نُحر جرور بين إساف ونائلة وبقي روثه فى كرشه . وكان أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وبعض سادات قريش فى مجلسهم ، فلما رأى أبو جهل محمدا — ﷺ — يصلى — قال لمن عنده :

— أياكم يأخذ سلى الجرور فيضعه بين كتفيه إذا سجد ؟

فقام أشقى القوم عقبة بن أبى معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على السبي وهو ساجد . فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك . وكان صحابة الرسول — عليه السلام — من المستضعفين فهابوا أن يلقوه عنه — ﷺ — فما كانت لهم منعة ، وإذا بغاطمة قد

أقبلت ورأت الروث بين كتفى أبيها فحفت إليه وألقته عنه ، ثم نظرت إلى  
أبى جهل وعقبة وأمّية بن حلف والذين معهم وفوصت أمرها وأمر أبيها إلى  
الله ، فلما قضى رسول الله ﷺ — الصلاة رفع يديه وقال :

— اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش .  
اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) . وعتبة بن ربيعة ، وعقبة  
ابن أبى معيط ، وأمّية بن خلف .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم اضحك وهابوا دعوته .  
وأصبحت العداوة سافرة بين محمد ﷺ — وسادات قريش  
الذين كانوا يرتجفون فرقا من أن تذهب الدعوة الجديدة بفقدهم  
وسلطانهم ، فكانوا كلما التقوا به آذوه وسخروا منه . فلما دخل  
ﷺ — يطوف بالبيت ويده في يد أبى بكر ، كان في الحجر ثلاثة نفر  
جلوس : عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأمّية بن حلف ، فمر  
رسول الله ﷺ — فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره . وكان عثمان  
ابن عفان جالسا في الحرم معروف في وجه النبي ﷺ — أثر ما قالوا من  
فحش القول ، فقام فدنا منه حتى جعله وسطا فكان — ﷺ — بين  
عثمان وبين أبى بكر ، وأدخل أصابعه في أصابع عثمان فطافوا جميعا ، فلما  
حاذهم قال أبو جهل :

— والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن يعبد ما كان  
يعبد آباؤنا .

فقال رسول الله ﷺ — .

— أنا ذلك .

ثم مشى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان

الشوط الرابع فاموا له ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ محامع نوبه  
 — ﷺ — فدفع عثمان صدره فوقه على إسته ، ودفع أبو بكر أمية بن  
 خلف ، ودفع رسول الله — ﷺ — عقبة بن أبي معيط ، ثم انفرجوا عن  
 رسول الله — ﷺ — وهو واقف ثم قال :  
 — أما والله ما تنهون حتى يحل بكم عقابه . بشس القوم أنتم لنبيكم .  
 ثم انصرف إلى بيته وتبعه أبو بكر وعثمان حتى انتهى إلى باب بيته ، ثم  
 أقبل عليهما بوجهه فقال :  
 — أهبسوا فإن الله عز وجل مظهر ديه ومتمم كلمته وناصر نبيه ، إن  
 هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا .

اجتمع عقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام والعاص بن وائل وأبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف وأبى بن خلف وسهيل بن عمرو وسادات قريش وكبرائهم في الحجر وكانوا يحسدون رسول الله — ﷺ — على ما آتاه الله من فضله لحبث نفوسهم وتكبرهم وتعجبهم من أن يتقدم عليهم غلام يتيم ، وخوفهم من أن يقوض سلطانهم بدعوته التي استمالت الضعفاء فأحالت ضعفهم قوة . ولم يخطر لهم على قلب أنه لا يطمع في مال ولا جاه فقد عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسماؤه ، فصار ذلك ألدّ عنده من كل عيم ، فهو لا يزاحمهم في دنياهم . فكل ما يبغيه أن يهديهم سبل ربهم ولو اهدوا ما زاحموه في لذته ، بل زادوه لذة بمشاركتهم إياه في الأنس بالله .

إنه يطلب نعمة لا راحة فيها ، ولذة لا كدر لها فقد عرف لذة الشوق بعد الذوق ، وهو يحب أن يرفعهم جميعا إلى موائد ربه لينتقوا . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشفق ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين .

وقال سادات قريش وكبرائهم :

— ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط . ولقد سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب أئمتنا . لقد صبرنا على أمر عظيم .



وبدت البغضاء من أفواههم ، فبينا هم في حديثهم إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ — ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر طائفاً بالبيت . فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فتعير وجهه ، ثم مر بهم الثانية فلمروه بمثلها فاحتقن وجهه بالدم ، ثم مر بهم الثالثة فلمروه فوقف عليهم وقال :

— أستمعون يا معشر قريش ؟ أم والدي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالديح .

فنزل الرعب في قلوبهم وما تبقى رجل منهم إلا وكأنا على رأسه طائر وقع ، وصاروا يقولون :

— يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً .

فانصرف رسول الله ﷺ — ، فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر فقال بعضهم لبعض :

— ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ — فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون :

— أنت الذي تقول : ﴿ إِنْ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ \* أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِيِّينَ \* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ \* أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ (١) .

— نعم أنا أقول ذلك .

— أنت الذي تقول : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

خالدين فيها أبدا ﴿١﴾ .

— نعم أنا أقول ذلك .

— أنت الذى تقول : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ﴾ (٢) .

— نعم أنا أقول ذلك .

فأقبل عليه عقبة بن أبى معيط فأخذ بمكب رسول الله ﷺ وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فحققه خفقا شديدا ، وتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريح إلى أبى بكر فقبل له :

— أدرك صاحبك .

فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله ﷺ — والناس مجتمعون عليه ، فقام أبو بكر دونه وهو يكي ويقول :

— ويلكم ، أتقتلون رجلا أن يقول رضى الله وقد جاءكم بالبليات ؟

وراحوا يحذون رأسه — ﷺ — ولحيته ، حتى سقط أكثر شعره وأبو بكر يحاول أن يحول يسه وبينهم . فأقبلوا على أبى بكر يضربونه وأبو بكر يجاهد أن يدفعهم عن حبيب رسول الله ﷺ — ، وإذا بصوت الرسول يرتفع كالنذير :

— دعهم يا أبا بكر ، فوالله الذى نفسى بيده إني بعثت إليهم بالذبح .

ففرجوا عنه وخرج رسول الله ﷺ — ، من المسجد ، واطلق أبو بكر إلى داره ليغسل ما سال من دماؤه وهو يقول :

— تباركت يا ذا الحلال والإكرام .

وسار رسول الله ﷺ — إلى داره ، وما تقدم فى الطريق خطوات

حتى سار الصبيان خلفه بهجونه بشعر لقمه إياهم عمرو بن العاص ، فقد كان ابن العاص شاعرا لا هم له إلا هجو محمد — ﷺ — .

وأفاق أبو لهب والحكم بن أبي العاص وعقبة بن أبي معيط من الرعب الذي نزل بقلوبهم لما توعدهم رسول الله — ﷺ — ، فانطلقوا إلى داره يطرحون عليه الأذى . فأخذوه وخرج به ووقف على بابه يقول :

— يا بني عبد مناف . أي جوار هذا ؟

وصبر واحتمل فهو يعلم أن أشد الناس بلاء الأنبياء .

وخرجت فاطمة الرهراء إلى الحرم فألقت سادات قريش في الحجر ، وكانوا يتحاورون وقد سمعت نحوههم قالوا :

— إذا مر محمد فليصر به كل واحد منا صرية .

فدخلت على أبيها وقالت وهي تبكي :

— تركت الملاء من قريش قد تعافدوا في الحجر وحنفوا باللات

والعزى وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيا فهم فيقتلوك .

فقال — ﷺ — في حنان :

— يا بنية لا تبكي .

ودهب وتوصاً ثم خرج فدخل عليهم المسجد فرفعوا رءوسهم ثم

نكسوا ، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوههم ثم قال :

— شأهت الوجوه .

وراح محمد — ﷺ — يصلي لله ، وسادات الكفر في الحجر

يظفرون ، فلما ذهب عنهم الروح قام أبو جهل إلى رسول الله — ﷺ —

وقال :

— ألم أنهك عن هذا ؟

فانصرف إليه النبي — ﷺ — فنهزه . فقال أبو جهل .

— والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني

فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ﴾ أرأيت إن كان على الهدى • أو أمر بالتقوى • أرأيت إن كذب وتولى • ألم يعلم بأن الله يرى • كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية • ناصية كادبة خاطئة • فلಿದع ناديه • سندع الزبانية • كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴿ (١) .

وجاء العباس بن عبد المطلب وجلس في المسجد ، فأقبل أبو جهل يرمي ويضرب فقال :

— لله على إن رأيت محمدا ساجدا أن أطأ عقه .

فخرج العباس إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره بقول أبي جهل ، فخرج غضبان حتى دخل المسجد فعمد أن يدخل من الباب ، فاقترع من الحائط وقرأ :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (٢) .

وكان النبي قد بلغ أبا جهل فاستمر في القراءة :

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى • أن رآه استغنى ﴾ (٣) .

واستمر يقرأ إلى أن بلغ آخر السورة وسجد ، فقال إنسان لأبي جهل :

— يا أبا الحكم هذا محمد قد سجد .

فأقبل إليه أبو جهل ثم نكص راجعاً فقيل له :

— لم تطأ عنقه !

فقال أبو جهل :

— ألا ترون ما أرى ؟ لقد سد أفق السماء على .

وجلس رسول الله ﷺ — وتأهب ليتلو ما تيسر من القرآن فإذا سادات قريش يسرعون إليه ، تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره وراحوا يصفقون ويصفرون ويروون الأشعار بأصوات عالية حتى تختلط بآيات الله فلا يسمعونها ولا يسمعون أحد ممن في الحرم .

وراح رسول الله يفكر في وسيلة يسمع بها هؤلاء الجاحلون كلام الله لعل قلوبهم القاسية تلي . إنه إذا جهر بصلاته قاموا إليه يشدون أشعاراً ماجنه لاستهواء أسماع الناس ، وإذا خافت بها لم تصل إلى الراعبين في سماع ما جاء به . ونزل عليه من وراء سبع سماوات ، فأوحى الله إليه ﴿ ولا تحجر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ (١) حتى يستطيع من يهوى أن يلقي إليه السمع في غفلة من قومه أن يسمع ما يقرأ من آي الذكر

وراح رسول الله ﷺ — يصلي لا يجهر بصلاته ولا يخافت بها وقرأ : ﴿ الحاقة \* ما الحاقة \* وما أدراك ما الحاقة \* كذبت ثمود وعاد بالقارعة \* فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية \* وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية \* سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل حاوية \* فهل ترى لهم من باقية ﴾ (٢) .

وكان الصبر بن الحارث في سادات قريش الجانسين في الحجر وقد أعمار  
 محمدا — ﷺ — سمعه ، فلما مس القرآن أذنيه أحس الحسد يأكل  
 صدره ولم يطق أن يصبر على نار العيرة التي تلظت في جوفه ، فقام إلى ابن  
 حالته محمد — ﷺ — وقال لأصحابه :

— إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم  
 واسفنديار وأخبار الأكامرة .

وجلس النظر وجعل يروي أحاديث رسم الشديد واسفنديار .  
 والتف حوله الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وأبو طهب بن عبد  
 المطلب وأمّية بن خلف وأبي بن خلف وسادات قريش وأطهروا إعحامهم  
 به . فاستخفه الطرب فقال :

— والله ما محمد بأحسن حديثا مني وما حديثه إلا أساطير الأولين ،  
 اكتبها كما اكتبتها .

وهر السرور كفار قريش ، واستمر الضر يروي ما سمع في الحيرة وفي  
 بلاط كسرى وأعجب بنفسه فقال في سخرية :

سأُنزل مثل ما أنزل الله .

فأنزل الله فيه : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل  
 الله بعير علم ويتخذها هزا أولئك هم عذاب مهين ﴾ وإذا تلى عليه آياتنا  
 ولّى مستكبرا كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴿ (١) .

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلا ﴾ قل أنزله  
 الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴿ (٢)

﴿ ويل لكم أفأنتم ﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعداب أليم ﴿ (١) .

وانطبق رسول الله — ﷺ — فالتقى وهو يخرج من باب بني سهم بالعاص بن وائل . فوقما يتحدثان وصاديد قريش في المسجد جلوس ، فلما دخل العاص قالوا له :

— من الذى كنت تحدث ؟

فقال فى سخرية :

— الأبر .

ولاموه على أن وقف يحدثه فقال :

— دعوه فإنما هو رجل أبر ، لا عقب له لو هلك انقطع ذكره

واسترحم منه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر \* فصل لربك وانحر \* إن شاتك هو الأبر ﴾ (٢) .

وبلغت السورة كفار قريش فعجبوا ، فأحدث كان يدور بينهم وما كان فيهم أحد من أتباع محمد — ﷺ — وراحوا يبالغون من رسول الله — ﷺ — ، فقال قائل منهم :

— أسروا قولكم لقلا يسمع إله محمد .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ (٣) . فلما بلغ ذلك صناديد قريش لاح الدهش فى وجوههم

وأطرق الوليد بن المغيرة يمكر فيما يسمع ، فاستشعر رغبة طاغية ليلقى سمعه إلى قرآن محمد .

واجتمع أصحاب رسول الله — ﷺ — ذات يوم في الحرم فقالوا :

— والله ما سمعت قريش القرآن جهرا إلا من رسول الله — ﷺ — .

فمن فيكم يسمعهم القرآن جهرا ؟

فقال عبد الله بن مسعود :

— أنا .

فقالوا في خوف :

— نخشى عليك منهم وإنما نريد رجلا له عشيرة يحموه من القوم .

فقال ابن مسعود في إيمان :

— دعوني فإن الله سيمنعني منهم .

ثم قام عند المقام وقت الشمس وقريش في أيديهم فقال :

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ورفع صوته :

— ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لم المرسلين ﴾ على صراط مستقيم .

تنزيل العزيز الرحيم ﴾ لتنذر قوما ما أنذر آبؤهم فهم غافلون ﴾ لقد حق

القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿ (١)

ونأملت قريش وقالو :

— ما بال بن أم عبد ؟



— يتنو بعض ما جاء به محمد .

واستمر عبد الله بن مسعود في قراءته :

— ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون • وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ (١) .

وقام إليه سادات قريش وفيهم عقبة بن أبي معيط وهو في دهش وغبط ، فما كان يدور بخلده يوما أن ابن أم عبد من كان يرعى له غنمه ومن لا يزيد طوله على ذراع ، يقف ذلك الموقف متحديا سادات قريش كلها .

وراحوا يضربون وجهه وهو مستمر في تلاوة آيات الله :

— ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون • إنا نسير من اتبع الذكر وحشى الرحمن بالغيب مبشره مغفرة وأجر كريم • إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ (٢) .

وانهالوا ضربا عليه وهو كالطود يستشعر حلاوة الإيمان فلا يزيده الاضطهاد إلا عرما وإصرارا ، واستمر يتلو :

— ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون • إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزما بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون • قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أرسل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون • قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ (٣) .

(٣) يس ١٣ : ١٦

(٢) يس ١٠ : ١٢

(١) يس ٨ ، ٩

واستمروا يصربون وجهه وهو مستمر في قراءته حتى قرأ غالب  
السورة ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه ، فقال له  
أصحابه :

— هذا الذي خشيت عليك منه .

فقال في صدق :

— والله ما رأيت أعداء الله أهون علىّ مثل اليوم ، ولو شئتم لأنتيهم  
بمثلها غدا .

— لا . قد أسعتهم ما يكرهون .

٢٧

الإسلام ينتشر بين الضعفاء والعبيد الذين يتطلعون إلى الحرية ،  
والأحرار الذين لا يخشون أن يقوص الدين الحديد بقودهم أو يذيب  
كنورهم من ذهب وفضة ، واشتد الحوار في الحرم بين رسول الله  
— ﷺ — وبين شيوح قريش وساداتها ، واشتعل أواره بين أبى لحالة  
محمد — عليه السلام — والبصر بن الحارث ، وكان البى — ﷺ —  
يفحم النضر على الدوام بتأييد من الله .

وحاء رسول الله — ﷺ — إلى الكعبة فطاف بها ، فلما أتم الطواف  
ذهب إلى حيث كان الوليد بن المعيرة وأشراف قريش وكان فيهم البصر بن  
الحارث ، فتكلم رسول الله فعرض له البصر فكلمه رسول الله  
— ﷺ — حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إنكم وما تعبدون من  
دول الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ لو كان هؤلاء آهة ما وردوها  
وكل فيها حالدون ﴾ لهم فيها رفير وهم فيها لا يسمعون ﴿ (١) .

ثم قام رسول الله — ﷺ — وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي  
شاعرهم العصيح فأفاهم وأحمين ، فقال وهو يرمقهم في دهش  
— مالكم ؟

فقال الوليد :

— والله ما قام النصر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد رعم محمد أنا وما تبعد من آلتنا هذه حصص جهنم .

فقال عبد الله بن الزبيرى فى خيلاء :

— ادعوه لى .

وأرسلوا يدعون أبا القاسم فجاء ووجهه يتشم ، فهو يرحب بكل حوار يدور بيه ويبيهم حتى تناح له فرصة إبلاع رسالة ربه إليهم ، فقال له ابن الزبيرى :

— يا محمد ، هذا شئ لآلتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟

— بل لكل من عبد من دون الله .

فصاح ابن الزبيرى صيحة فرح وقال :

— خصمت ورب هذه البنية

أقسم بالكعبة أن رسول الله — ﷺ — قد وقع فيما نصب له من

فخاخ ، إنه سيلزمه الحجة على الملأ ، فقال وهو يتהל بالفرح :

— ألسن تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح ؟

وهذه نو ملبح يعدون الملائكة ، وهذه النصارى يعدون عيسى ، وهذه اليهود يعدون عزيزا .

وصاح أهل مكة فرحين :

— ألزمه الحجة . . ألزمه الحجة .

فأنزل الله على عبد : ﴿ إن الذين سبقت لهم ما الحسى أولئك عنها

مبعدون \* لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتت أنفسهم خائلون ﴾ (١) .

ونزل فيمن يعبدون الملائكة ويقولون إنها بيات الله : ﴿ وقالوا اتحد الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفقون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون \* ومن يقل منهم إلى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ (١).

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ وقالوا آلتنا محرّأمة هو ما صرّبه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون \* إنا هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبيس إسرائيل \* ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلعون \* وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ (٢).

وعجب الوليد من حخته وحصومته ومست آيات الله وترا حساسا في نفسه ، ولكن الحسد حثم على صدره فعقل لسانه عن أن يشهد بالحق فقال :

— أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قرين وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمرو الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيم القرينين !  
فأنزل الله فيه : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينين عظيم \* أهم بقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ (٣).

وأراد أبو جهل أن يسخر من محمد — ﷺ — على ادلاء خشية أن

(٢) الزحرف ٥٧ : ٦١

(١) الأنبياء ٢٦ : ٢٩

(٣) الزحرف ٣١ ، ٣٢

يفتن الناس به فقال :

— يا معشر قريش . هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟

قالوا :

— لا .

فقال وهو يضحك ملء شذقيه :

— عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكما منها لتترقمنا ( نبتلعها )  
ترقما .

فأمر الله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يعلى في  
البطون • كعبي الحميم • خدوه فاعتنوه إلى سواء الحميم • ثم صموا فوق  
رأسه من عذاب الحميم • دق إليك أنت العرير الكريم • إن هذا ما كنتم به  
تمترون ﴾ (١) .

وملأ الحق قواد أي جهل ، وراد في حنقه أنه قال لرسول الله  
— ﷺ — أنا العرير الكريم . فإذا بقرآن محمد يسخر منه ، وإذا بتلك  
السحرية الأنيمة تنتشر في مكة بين المسلمين والكافرين على السواء .  
ومشى أي بن حنف إلى رسول الله — ﷺ — بعظم بال قد تحطم  
وتكسر ، فقال :

— يا محمد أنت تزعم أن الله يعث هذا بعدما رُم ( بلى ) ؟  
ثم فنه في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله — ﷺ — ، فقال  
رسول الله — ﷺ — :

(١) الدخان ٤٣ : ٥٠

— نعم أنا أقول ذلك . يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكدا ، ثم يدخلك الله البار .

فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وصرب لنا مثلا ونسى حنقه قال من يحيى العظام وهي رميم \* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ (١) .

وكان الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة من أشرف القوم ومن يُستمع منه . فكان يجادل الرسول — ﷺ — ويرد عليه ، وكان الرسول — صلوات الله عليه — يعرف عيب نفسه فما كان يلزمه به ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين \* هماز مشاء بنميم \* مناع للحير معتد أثيم \* عتث بعد ذلك رنيم ﴾ (٢) .

كان سادات قريش يحرضون على ألا يسمعوا القرآن وإن كانوا في شوق إلى أن يلقوا إلى أبي القاسم أسماعهم ، إنهم سمعوا منه آيات متفرقة في أثناء الحوار الذي كثيرا ما يدور بينه وبينهم ولكمهم يريدون أن يصعوا إليه في هدوء لولا خشية أن يراهم الناس وهم جالسون إليه ، فيفتحوا بذلك أبواب الفتنة التي بذلوا كل الجهد لتظل مغلقة في وجه دعوة ابن عبد الله . وذات ليلة خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليستمعوا من رسول الله — ﷺ — وهو يصلي في الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم مكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوا ما أقال بعضهم لبعض :

— لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

تعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال :

— أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

— يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها .

— وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج الأحنس من عنده حتى أتى أبا الحكم بن هشام فدخل عليه في بيته فقال :

— يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال أبو جهل في حق وحسد :

— ماذا سمعت ! تازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا<sup>(١)</sup> على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى يدرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا بصدقه .

كانوا يتلهفون على سماع القرآن وكانوا ينسلون إلى دار النبي ﷺ — وقد أرهقوا أسماعهم حتى لا يفوتهم شيء مما يقرأ ، حتى إذا ما حرح رسول الله — عليه السلام — إلى الكعبة وتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يهزءون به :

(١) تجادبا : أقصى ، والمشهور تجادبا على الركب ، وهو تصحيف .



— قلوبها في أكنة مما تدعونا إليه لا نفقه ما تقول ، وفي آدانا وقر  
ولا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ،  
فأعمل مما أنت عليه إننا عاملون بما نحن عليه إنا لا نفقه عنك شيئا .  
فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا  
يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي  
آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا \*  
نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم يحوى إذ يقول الظالمون  
إن تتبعون إلا رجلا مسحورا \* انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا  
فلا يستطيعون سبيلا \* وقالوا إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا  
جديدا \* قل كونوا حجارة أو حديداء أو خلقا مما يكبر في صدوركم  
فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسيقضون إليك رعو سهم  
ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴿ (١) .

## ٢٨

كان العاص بن وائل يتأهب للانطلاق إلى القامصة الخارجة إلى الشام ،  
وكان لحباب بن الأرت دين عليه فأتاه يتقاضاه . فقال له العاص :

— لا والله حتى تكفر بمحمد .

فقال حباب في قوة :

— لا أكفر حتى تموت وثبعث .

فقال العاص في سخرية :

— وإني لمبعوث بعد الموت ؟ فسوف أفصيك إذا رجعت إلى مالي .

وكأنما استمرأ العاص الهزء بحباب فقال :

— أولستم ترعمون أن في الحمة ذهبا ومضة وحريرا ؟

— بلى .

— فأحرني حتى أفصيك في الحمة . فوالله لئن كان ما تقول حقا إني

لأفضل فيها بصييا منك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ أَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ يُؤْتِ أُولَئِكَ »

أطلع الغيب أم اتخذ عددا لرحم عهدها \* كلا سيكسب ما يقول وتمد له من

العداب مدا \* ونثرته ما يقول ويأتينا فردا \* واتخذوا من دون الله آلهة ليكوبوا لهم

عرا \* كلا سيكفرون بعبادتهم ويكوبون عليهم ضدا \* ألم تر أنا أرسلنا

الشياطين على الكافرين تؤرهم أرا \* فلا تعجل عليهم إنما نعدهم عدا \* يوم

نحشر المنتقين إلى الرحمن وفدا \* ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا \*

لا يملكون الشعاع إلا من اتخذ عبد الرحمن عهداً<sup>(١)</sup> .  
وخرج العاص بن وائل إلى الطريق ليطلق إلى السوء حيث ترك  
جاريته للبعاء لتعود إليه بأموال طلاب الشهوة ، فيما هو يدرح في رهوه  
إلى الحرم رأى عبد الرحمن بن عوف وصديقه أمية بن حنف يوسع في  
خطوه ليلحق به وهو ينادى :

— يا عيد عمرو ... يا عيد عمرو .

وصك صوت أمية أذن عبد الرحمن فلم يحفل له . فأسرع أمية خلفه  
فلما لحق به قال له :

— أفسدك محمد عليا فتركت دين بآئك ودخلت فيما يدعو إليه ،  
وأدعوك بعبد عمرو فلا تحيب ، أرغست عن اسم سماكه أبوك ؟  
فقال عبد الرحمن في هلهو :

— أنت تعلم أني سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

— إني لا أعرف الرحمن فاجعل بيبي ويسك شيئا أدعوك به ، أما أنت  
فلا تحييني باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف .

— يا أبا علي ! اجعل بيبي وبينك ما شئت .

— فأنت عبد الإله .

— نعم .

وساروا إلى حيث أباحث القافلة ، وكان بنو هاشم في وداع أبي هب  
وابه معتبر رجال آن عيد المطلب . وكان محمد — عليه السلام — هناك ولم  
يكن قد أتى لوداع عمه ، فإن المطلبين جميعا قد استجابوا لدعوة عمه أبي

طالب ومهصوا لحمايته إلا أبا هب فقد انصم إلى بى أمية في عداوتهم  
بفصل روجه أم جميل ، بل جاء ليودع عقبة بن أبى معيط ، فعقبة صار  
يختلف إليه كثيرا بحكم صفة القراءة التي بينهما ، وقد ألقى إليه السمع وفتن  
بالقرآن وإن رسول الله — ﷺ — بات يطمع في إسلام عقبة والتفريق  
بينه وبين حذفه أبى بن خلف ، فيحصم حقيقة من حلقات العداوة التي  
تقف في وجه انتشار دعوة الإسلام والسلام .

وافتصلت القافلة وانطلقت تحيب في الأفق البعيد ، وقد صمت لأول  
مرة في تاريخ قريش قنوبا عامرة باليقين وقلوبا يتجاوزها اليقين والشك  
وقلوبا أثبت أن تمتح نوافذها للسور . وعلى الرغم من ذلك التماهر فقد  
كانت مشغولة برسول الله — ﷺ — تنص بحبه أو تحقق ببعضه بعد أن  
كانت تشرح للقاءه وعذب حديثه وحكمته قبل أن يأتي بما سفه به  
معتقدات الآباء وسخر به بما وقر في العقول .

ونزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من دير فقال لهم :  
— هذه الأرض مبيعة .

فأجمعوا متاعهم إلى صومعة الراهب ثم فرشوا المبيتهم ، ثم جمعوا حمالهم  
وأناحوها حولهم ، وسقط الليل وجاء أسد يتشمم فلما دنا من المعسكر  
وأحسست الجمال به رعت . فاستيقظ معتب فلما رأى الأسد كاد يموت  
من الرعب لما تذكر دعوة محمد — عليه السلام — يوم أن بصق في  
وجهه : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . وأراد أن ينهض ليفر من  
وجه الأسد فإذا بالأسد يثب عليه ويصر به ضربة بديه ، فيشق سكون  
الليل صرخة معتب المفزوعة . فهب رجال القافلة من نومهم ويدب  
الذعر بينهم ، فيمتشعر الأسد بالخطر فيسبل بعيدا .

والتف الرجال حول معتب فإذا به . يجود بأنفاسه بين يدي أبيه وقد لاح في وجه أبي هب الرعب والأسى . إنها دعوة ابن أخيه . ومات معتب فرح بموته من كان هواه مع أبي القاسم وشق ذلك على الكافرين .

واطلقت القافلة إلى الشام ولا حديث لرجال إلا عن محمد — ﷺ — بينما كانت الأحداث تجري في مكة على غير هوى الكافرين ، وآيات الله تنزل على قلب الأمين والناس يهيمون بها فتشرح لها قلوب فيهرع من شرح الله فؤاده للإسلام للقاء رسول الله — ﷺ — حفية من قومه لينطق بالشهادتين وهو سعيد .

وكان الوحي ينزل بردود مفحمة على ما يثيره الكافرون من جدل ، وكان يروى أحداثهم التي كانت تقع بعيدا عن عيسى محمد — ﷺ — فيثير دهشتهم ، ويقص ما يجري في محاورهم فيطر بعضهم إلى بعض كأنما كل منهم يتهم صاحبه بأنه يحمل إلى رسول الله — ﷺ — سرهم ، فقد بوا أن يؤمنوا بأن الله يوحى إلى أحد من خلقه .

كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جرورين . فهو وإن كان محيلا إلا أنه كان يخشى أن يعصل بنو هاشم بنى أمية بالإلحاق . فأتاه ذات يوم يتيم فسأله شيئا من لحم الجزور فعليه طبعه قدم يعطه عن سماحة نفس بل قرعه بعضا . فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين \* فذلك الذي يدع اليتيم \* ولا يحض على طعام المسكين ﴾ (١) .

وراح الوليد بن المعيرة يعشى السبي — ﷺ — وأبا بكر حتى حبت فريش أنه يسسم ، فجاءه أبو جهل وقال له :

— إن قريشا ترعم أنك إنما تأتي محمدا وابن أبي قحافة نصيب من طعامهما .

معضب الوليد فأقبل على قريش يؤنبهم ، وفي ثورة غصبه ينطق بالحق قال :

— لإنهم ذوو أحساب وذوو أحلام ، وإنكم تزعمون أن محمد مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟  
— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟  
— لا .

— فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟  
— لا . فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .  
فقال له أبو جهل :

— لا يرضى عليك قومك حتى تقول فيه .  
فأطرق الوليد قليلا ثم قال :

— فدعني حتى أفكر فيه .  
وم يجد الوليد جديدا يقوله فقال :

— هذا سحر يؤثر .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ذرى ومن خلقت وحيدا ﴾ وجعلت له مالا ممدودا \* وبير شهودا \* ومهدت له تمهيدا \* ثم يطمع أن أزيد \* كلا إنه كان لآياتنا عنيدا \* سأرهبه صعدودا \* إنه فكر وقدر \* فقتل كيف قدر \* ثم قتل كيف قدر \* ثم بصر \* ثم عبس وبسر \* ثم أدبر واستكبر \* فقال إن هذا

إلا سحر يؤثر \* إن هذا إلا قول البشر ﴿١﴾ .  
وكان النصر بن الحارث يستشعر الغيرة تنهش فؤاده إذا ما ذكر القرآن  
بخير ، فكان يقول :

— قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين .  
وكانت عداوته للرسول — ﷺ — تبلغ مداها لما يجد الناس يدخلون  
في دين الله ، فكان يقول في سحرية لينصر الناس عن الحق :  
— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من  
السماء أو اثنتا بعداد أليم .

فأنزل الله فيه . ﴿٢﴾ سأل سائل بعداد واقع \* للكافرين ليس له دافع \*  
من الله دى المعارح \* تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين  
ألف سنة \* فاصبر صبرا جميلا \* إنهم يرونه بعيدا \* ويراها قريبا ﴿٣﴾ .  
كانت سحرية النصر بن الحارث تستهوى الكافرين ولكنها سرعان  
ما تذهب أدراج الرياح . إنه قال عما نزل في عاد وثمود من آيات إنها  
أساطير الأولين . وحدث عن رستم واسفنديار ولكن ما إن خلا الناس إلى  
أنفسهم حتى راحوا ، يتلون بين الدهش والإعجاب : ﴿٤﴾ الحاقة \* ما الحاقة  
\* وما أدراك ما الحاقة \* كذبت ثمود وعاد بالقارعة \* فأما ثمود فأهلكوا  
بالطاعية \* وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية \* سحرها عليهم سبع ليال  
وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل حاوية \* فهل  
ترى لهم من باقية ﴿٥﴾ .

وصار محمد — ﷺ — ورب ابن عبد الله وما برل عليه من قرآن

حديث الدور في مكة ، حتى إن رجلين من قريش وختما لهما من ثقيف كانوا في بيت فقال بعضهم :

— أترون الله يسمع نجوانا ؟

فقال بعضهم :

— قد سمع بعضه ولم يسمع بعضه .

— لئس كان يسمع بعضه لقد سمع كله .

وخرجوا إلى الحرم فإذا يرسل الله — ﷺ — يقولون : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ . حتى إذا ما جاءوها وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذي ظننكم بركم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴿ (١) .

فراح الرجلان من قريش وختما يتبادلون النظرات وهم يعجبون ، فقد نزل القرآن يرد على ما كان يدور بينهم من حديث وما كان الأمين فيهم وما سمع نجوانهم ، وفيما هم في قمة انفعالهم وبينما أفقدتهم تخفق بالرهمة تكاد أن تنفتح قلوبهم للنور ، إذا بأصوات ترتفع في الحرم :

— الصابىء .

— الكاهن . لا تصعوا إليه إنه محنون .

— بل ساحر .



— هذا سحر مبین .

ودنا أبو جهل والنضر بن الحارث من الرسول — ﷺ — وقال له في انتصار :

— إنك لتشقى بترك ديننا .

فانصرف النبي — ﷺ — وهو حزين ، فإذا بجبريل الأمين يأتيه بما يطعمن فؤاده : ﴿ طه ﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . \* تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى \* الرحمن على العرش استوى . \* له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . \* وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . \* الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ (١) .

وكان النبي — ﷺ — يلوذ بأبي طالب بين وقت وآخر . فأبو طالب قد عادى قريشا كلها في سبيل حمايته . فإن كان صناديد الكفار يجمعون عن قتله فما ذلك إلا خوفا من أن يجمع أبو طالب رجال بني هاشم وينهض للنار لابن أخيه ؛ وقد هم دات يوم بأن يشنها حربا شعواء على بني أمية وبني مخزوم ويطون قريش الأخرى لما ظن أنهم قد غدروا بالأمين . ولم يضع السلاح إلا بعد أن رأى أبا القاسم واطمأن إلى سلامته .

كان رسول الله — ﷺ — يحاور عمه وكان يطمع في إسلامه فهو يحبه ويحب هدايته ، وبينما كانت المناقشة بينهما تفور ، تذكر أبو طالب أن محمدا — عليه السلام — قد شغل بالحديث عن الطعام ، فقام وأتى النبي

عليه الصلاة والسلام يحبز ولبن ثم جلس ، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلاً الأفق بار . ففرع أبو طالب وقال :

— أى شيء هذا ؟

فقال له النسي — عليه السلام — :

— هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله .

فعجب أبو طالب وسكن روعه ، فأنزل الله تعالى . ﴿ والسماء والطارق ﴾ وما أدراك ما الطارق \* النجم الثاقب \* إن كل نفس لما عليها حافظ \* فليسطر الإنسان ثم خلق \* خلق من ماء دافق \* يخرج من بين الصلب والترائب \* إنه على رجعة لقادر \* يوم تبلى السرائر \* فما له من قوة ولا ناصر ﴿ (١) .

وعجب أبو طالب وراح يسأل نفسه : من أين أوتى ابن أخيه هذه الحكمة ؟ إنه شب في داره وما كان يروى في الدار غير شعره وشعر أخيه الزبير بن عبد المطلب وشعر شعراء قريش . وقد فرح بنو هاشم لما ظهر فيهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقد وجد الشاعر الذي يدافع عنهم ويمرل الرعب في قلوب القبائل من حدة لسانه ، أما أن يكلم إنسان من السماء فما خطر ذلك لهم على قلب . وإن أبا طالب وإن كان يحس راحة لدعوة ابن أخيه إلا أن فكرة أن الله أكبر من أن يحاطب بشراً كانت مستحوزة عليه ووقرت في عين ضميره .

كان راضياً عن جوهر دعوة محمد — عليه السلام — وما فيها من دعوة إلى مكارم الأخلاق ، وكان إعجابه بابن أخيه لا يحد إلا أنه كان

محصيا مع نفسه ومع تنزيهه لله عن أن يتصل بالبشر أو يوحى إليهم . وكان كلما جلس إلى أبيه على يرداد حيرة فمن أين لعل كل ذلك الفهم ومن أين له التفقه في الدين وهو في مثل سبه وحداثته ؟ ولو سمع قول رسول الله ﷺ — لعل بن أبي طالب : « إن الله أمرني أن أدنيتك ولا أقصيتك وأن أعلمك وتعني ، وحق على الله أن تعني » وآمن عما قاله ابن أخيه لزال عجهه ، ولوجد راحة نفسية للقلق الموار بين جبيهه .

ورجعت قافلة قريش من الشام وخف الناس لاستقبال العائدين ، فإذا بأبي لهب باسر الوجه قد نكأت العودة جرح قلبه فهو يعود بعد أن عيب معتبا القراب . وراح أبو طالب والعباس وحزمة وسادلت بنى هاشم يرحون بأبي لهب وهو حزين في عييه دموع ، وما كانت دموع الفرح باللقاء بل دموع الواله الحزين على ملنة الكسد وهوى الفؤاد . وطمس الرجال إلى أسى الرجل الذي عرف بيهم بقسوة القلب فلما سألوهم عما به وعرفوا أن أسدا قصي على معتب لاح في وجوههم الحزن ، وتذكر أبو طالب دعوة ابن أخيه أبي القاسم على معتب لما بصق في وجهه فرنت في أدنيه كأنما كانت قضاء رهيبا : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . فتقاصرت نفسه ولفه خوف وهو يسأل نفسه : ترى أجراء قتل الأسد لاين أخيه معتب مصادفة أم أن الله رب محمد استجاب لدعوته ؟

وكان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صبح طعاما فدعا إليه أشراف قومه ، فلما قدم من سفره هذا صبح طعاما فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ — إلى طعامه ، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ — . — ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله . فقال عمية :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فأكل رسول الله — ﷺ — وقد انشرح صدره لإسلام من لح في عداوته ومن كان من أقسى المستهزئين بالدين القويم .

كان أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط متحالفين وكان أبى غائباً ، فلما أخبر بما كان بين عقبة ومحمد — عليه السلام — كاد يطيش لبه ، ففى إيمان عقبة تقويض لركن ركين فى عداوة ابن أبى كبشة الذى جاء بدعوى تحت سلطانهم من مكة بل من كل أرض العرب . فخرح وشرر الغضب ينطير من عينيه حتى إذا ما دخل على عقبة قال له :

— صبأت يا عقبة . وجهى من وجهك حرام إن تابعت محمدا .  
وخشى عقبة غضب أبى أكثر من خشيته من غضب الله ، فقال معتدرا :

— والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأنى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت فطعم .  
ولم يقنع ذلك القول أبى بن خلف فقال :

— ما أنا بالذى رضى منك أبداً إلا أن تأتبه فتبزيق فى وجهه وتطأ عقه .  
ونخرج عقبة إلى المسجد فوجد رسول الله — ﷺ — ساجداً ، فدام على عنقه حتى كادت عيناه — ﷺ — أن تخرجا من محجرهما ، فقام — عليه السلام — وهو يلتقط أنفاسه فى جهد فبزيق فى وجهه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف .  
وضج الكافرون بالضحك فما كان لحمد — عليه السلام — أنصار يمنعونه ، وما كانت لهم بصائر يرون بها نصر الله الذى وعده رسول الله ،

ولم يزل الوحي ينهيه عن وعده بقتل عقبة إن لقيه خارجا من مكة بل نزل الروح الأمين بالوعيد : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا \* يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا \* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا \* وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا \* وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المحرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا \* وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا \* ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ (١) .

علم أبو جهل أن أبا سمة المخزومي قد دخل في دين محمد — ﷺ — فاستبد به الغضب ، فما كان يحسب أن الفتنة تدخل دور بني مخروم . إنه يجاهد بكم صوت الحق حتى لا يذهب الشرف كله لبني قصى فإذا بآبي سلمة يسلم ويقر ببوة محمد بن عبد الله .

وتذكر أبو جهل ذلك الحديث الذي دار بينه وبين الأخنس بن شريق ، قال له الأخنس :

— يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها من يسمع كلامك غيري .

— والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب برقصي باللواء والسقاية والحجابه والندوة والبوة مماذا يكون لسائر قريش ؟

وتذكر ما أنزل الله فيه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (١) . فلم يلب قلبه ويستجيب للحق بل راد طغيانا وعزم على أن يعذب أبا سمة حتى يعتنه عن دينه .

كان أبو سلمة يعلم أن أبا أي جهل عياش بن أبي ربيعة قد أسلم ،

وكان يعلم أن أبا جهل يطلبه ليزل به عدا به فلم يقل له : اذهب إلى أخيك  
 قبل أن تأتي إلي . بل انطلق إلى حاله أي طالب ليكون في جواره فهو ابن  
 برة بنت عبد المطلب ، فكان على أحواله أن يحموه من غضب بني مخزوم .  
 وحاء أبو جهل على رأس قوم من بني مخزوم إلى أبي طالب فقالوا له :  
 — لقد سمعت ما ابن أخيك محمداً فما لك ولصاحبنا تمنعه ما ؟  
 قال أبو طالب في ثقة :

— إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أبا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن  
 أخي .  
 وكان أبو لهب حاضراً فقال مغضباً :

— يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيء ؟ ما ترألون تنوثون  
 عليه في جواره من بين قومه . والله لنتهن عنه أو لتقومن معه في كل ما قام  
 فيه حتى يبلغ ما أراد .  
 وخشي أبو جهل أن ينسخ أبو لهب عنهم أو تأخذ المعصية فيضم إلى  
 ابن أخيه ، فتشتد دعوة محمد — ﷺ — وتقوى فقال :  
 — بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

وانصرفوا وسار أبو جهل وهو يستشعر قهراً ، حتى إذا ما بلغ الصفا  
 مر برسول الله — ﷺ — فتحرك غضبه فراح يسب من سفه أحلامهم  
 وورق جماعتهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبد الله بن  
 جدعان تسمع وتنظر .

وانصرف أبو جهل إلى نادى قريش وانصرف رسول الله — ﷺ —  
 دون أن ينس بكلمة .

وظلت مولاة عبد الله بن جدعان تسرح الطرف فيما حولها ، حتى إذا

ما رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه رجعا من قصصه متجها إلى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود إلى أهله ، تأهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبي جهل ومحمد بن عبد الله .

ومر عليها حمزة فقالت له :

— يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ! وجده هاهنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فسار حمزة نحو الحرم وهو حائق ، وما كاد يقطع في الطريق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

— إن أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرثا .

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا في القوم ، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه ورفع القوس وضربه مشجعه شجة مسكرة ثم قال :

— أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك إن استطعت .

فقال أبو جهل في نضرب :

— سفه عقولنا وسب أئمتنا وخالف آباءنا .

فالتفت حمزة إلى القوم وقال في حدة :

— ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا :



— ما نراك إلا قد صبأت .

— وما يمنعني وقد استبان لي منه أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقول حق . والله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين .  
فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عماره فإني والله لقد أسمعته ابن أخيه شيئا فيبحا .

ورجع حمزة إلى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين أبي جهل : إنه ثار لابن أخيه وأعلن إسلامه في نوبة من نوبات غضبه فراح الشيطان يوسوس له : « أنت سيد قريش اتبعت هذا الصالح وتركت دين آبائك . الموت خير لك مما صنعت » .

واستشعر الرجل الشجاع الذي لا يخشى الردى خوفا يلفه وحيرة تكثفه ، وحاول أن ينام ولكن لم يطف الكرى بعينه إنه في قلقه وأرقه .  
وفي جوف الليل راح يبتهل إلى الله في حرارة :

— اللهم إن كان راشدا فاجعل تصديقه في قلبي ، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا .

وراح حمزة يغلو ويروح في الغرفة يحاول أن يستفتي قلبه مرة ، ويصبح سمعه إلى همرات الشيطان مرة ، ويبتهل إلى الله مرات أن يدركه برحمته ويلقى في عين بصيرته نوراً يرى به جوهر الحقيقة . إنه أقر على الملائ بوحداية الله ورسالة ابن أخيه ، وقد كان إعلانا حركه عصية لأبي القاسم أخيه في الرضاعة وابن أخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، إلا أنه لما خلا بنفسه قامت هواجسه نهامه في قسوة ، وراح يقب عن كبد الحقيقة ، فما كان يجب أن يخدع نفسه أو أن يكون منافقا في عين ذاته . إنه يبغي الحق ولا شيء غير الحق .

وبات حمزة بليلة لم يبت مثلها راح فيها يستعرض حياة ابن أخيه فلم يجد فيها مثلاً ، فهو الأمين الذى لم يجرب عليه الكذب قط ، إنه لم يكذب على الناس ، أو يكذب على ربه ؟ إنه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه ، قد أوتى الحكمة لا ينطوى إلا على الإخلاص ، قد خرج من سلطان نفسه فلا يعضب لها بل يعضب للحق . إنها صفات لا تجتمع إلا في إنسان يعد لرسالة كبيرة ، وإن ابن عبد الله كفى لحمل أعظم رسالة .

وما يكاد يقع نفسه بصدق ابن أخيه حتى تهب الوسوس لتقتلع بذور اليقين التي تحاول أن تستقر في أغوار ذاته وتمسك في نفسه ، إنه يحاول أن يجد تبريراً لتسرع في إعلان إسلامه استجابة لغضبه الذى ابعث لما حاق بابن أخيه من مهانة ، حتى إذا ما أسمر الليل عن وجه الصباح عدا إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا ابن أخى إلى قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى ، أرشد هو أو عى شديد .

وقص على ابن أخيه قصته فراح محمد — ﷺ — يذكره ويعطه وينحونه ويشره ويتلو عليه القرآن ، وحمزة مأخوذاً بما يسمع يستشعر كأن أسجافاً ترتفع عن قلبه وأن نوراً يشرق في عين داته وأن حديث ابن أخيه يرتفع به عن عالمه المخلود إلى عوالم من الرفعة والسمو والنور . وألقى الله في قلبه الإيمان فقال في فرح وانفعال :

— أشهد إنك لصديق ، فأطهر يا ابن أخى ديك .

وسر رسول الله — ﷺ — بإسلام أعرقي في قريش سروراً كبيراً ، فقد أعر الله الإسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحسن أن آلام الاضطهاد

الذى تحملها سين طويلة قد أثمرت خير ثمرة ، نبات يرحب بكل عذاب  
 وشدة وهو على ثقة من أن الله سيقيم بوره ولو كره الكافرون .  
 وأنزل الله تعالى فيما كان من حمزة وأبى جهل : ﴿ أَوْسَ كَانَ مِثْنًا  
 فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ  
 بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ بَيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وكذلك جعلنا في كل  
 قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون \* وإذا  
 جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسول الله الله أعلم حيث  
 يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا  
 كَانُوا يَمْكُرُونَ \* فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن  
 يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله  
 الرجس على الذين لا يؤمنون \* وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا  
 الآيات لقوم يذكرون ﴿ (١) .

٣٠

كان الحق يملأ نفوس سادات قريش ، بإسلام حمزة شد أرر دعوة محمد — عليه السلام — ، فما كان حمزة يحشى أبا جهل ولا أبا سفيان ولا أبا لهب ولا الوليد بن المغيرة ولا ابنى حلف ولا العاص بن وائل ولا النضر بن الحارث ولا عقبة بن أبى معيط ولا عتبة بن ربيعة ولا أخاه شيبة ولا أحدا من أهل العداوة والمبادأة لابن أخيه الذين يطلبون الجدل والخصومة . فسيف حمزة أسرع من لسانه ، وما كان أحد من هؤلاء يزاهد في الدنيا حتى يثير غضب أبى عمار .

وعز رسول الله — ﷺ — بأن دخل حمزة في دين الله ، فكف كفار مكة عن بعض ما كانوا ينالون منه ، فلم يعد الرجال يقفون عن يمينه وعن يساره ويصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن ، ولم يعد أحد يجرؤ على وضع ثوبه على عنقه وخنقه به خنقا شديدا . وكف جيرانه أبو لهب والحكم بن أبى العاص بن أمية وعقبة بن أبى معيط عن طرح الأذى عليه ، ولم يعد أبو جهل يفكر في صب التراب على رأسه ، فأعلق بإسلام حمزة باب اضطهاد محمد — عليه السلام — الذى ظل مفتوحا على مصراعيه سنوات ، وفتحت أبواب الجدل وطلب المعجزات .

وفي ذات يوم خرج بلال من دور بنى جمح في البكرة وانطلق إلى الحرم ، فوجد خلوة من الناس فصار ييصق على الأصنام التى وصعت في جوف الكعبة ومن حولها وراح يقول :

— خباب وخسر من عبدكن .

ورآه رجل من قريش فانطلق إلى أمية بن خلف فقال له :

— أصبوت ؟

فقال أمية في غضب :

— ومثلي يقال له هذا ١٩ .

— إن أسودك بصق على الآلهة .

واقشعر بدن أمية وخشى غضب الآلهة فقال لقريش :

— حذوا مائة من الإبل وانحروها للآلهة .

ثم انطلق أمية إلى حيث كان بلال وراح يصب عليه جام غضبه وبلال ثابت لا يتزعزع ، يأمره أن يكفر بمحمد وآله محمد وأن يعود لعبادة آلهة قريش وبلال يهزأ بقلبه وبلسانه من الأصنام التي لا تنفع ولا تضر . ودب اليأس في قلب أمية وراد في حنقه عناد عبده الأسود فألبسه أسمالا بالية ووضع في عنقه حبلا من مسد ثم بادی صبيان القبيلة ودفع به إليهم ، فخرجوا به يتصايحون ويسبون الكافر باللات والعزى وبلال يردد شعاره :

— أحد .. أحد .

وراح بنو جمح يعذبون حمالة أم بلال ، فقد كفرت مع ابنها بدين قريش ودخلت في الإسلام ويسألونها أن تذكر محمدا — عليه السلام — بسوء وأن تعود إلى عبادة اللات والعزى ، فكانت تحتمل العذاب في صبر ولا يتحرك لسانها إلا بحمد الله على أن أخرجها من الظلمات إلى النور . واكتشف أمية بن خلف أن ابنه عليا قد فتن عن دين آبهائه فأنزله به سوط عذاب ، فلم يحتمل على بن أمية الآلام المبرحة التي نزلت به فأعطى معذبه ما يحبون وفتن عن دينه ورجع إلى الشرك والضلال .

وقامت كل قبيلة تعذب من اعتنقوا الإسلام من أبائهم ومواليهم ليرتدوا إلى دين قريش قبل أن يستفحل الأمر وتنتشر دعوة محمد — عليه السلام — في القوم فيترعزع سلطان السادة ويضيع مجد قريش ، فخرج بنو مخروم بأبائهم ومواليهم المسلمين وراحوا يعدبونهم على أعين الناس تخويفاً لمن تسول له نفسه هجر دين الآباء والدخول فيما يدعو إليه محمد ابن عبد الله ، فكانوا يضربون بالسياط أباقيس بن الوليد بن المعيرة وعماراً وأمه سمية وأباه ياسراً ضرباً تمزق منه اجلود فتسيل الدماء تروى الرمال . وراح عمر بن الخطاب يعذب جارية أسلمت بضرها حتى مل ، ثم قال لها :

— إني أعذر إليك فإني لم أتركك حتى ملت .

فقال لها وهي تتلوى من الألم :

— كذلك يعدبك ربك إن لم تسلم .

ولم يكن عمر يدري أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت ، ولم يخطر له على بال أن زوج أخته سعيد بن زيد قد دخل في دين الله . ولوعرف عمر أن الفتنة قد دخلت دور أهله لانطلق حانقاً لينزل بالصابئين ألوان العذاب .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أمار وكان حدادا يعمل طوال النهار ليعود لمولاه بثمره عرقه ، فلما قامت القبائل على من هتن فيها بالإسلام صارت أم أمار تأخذ الحديدية وقد أحبتها بالنار فتضعها على رأسه وتسأله أن يسب محمداً عليه السلام وأن يكفر بدينه ، ولكنه كان يحتمل النار في صبر عجيب ولا تتحرك شفاته إلا بذكر الله .

وضاقت أم أمار بذلك العناد فدعت رجلاً من أهلها ليعاوبوها على

تعذيب ذلك العبد الأبق لعله يعود عن غيه . فأوقدوا نارا ووضعوها على ظهره فارتفع أبين حباب ، وراح الرجال يقولون له :  
— سب محمد وآله محمد .

فهم تنحرك شفتاه إلا بالخير ، واستمرت النار تسرى فيه لا يطفئها إلا دهن ظهره .

ومر رسول الله ﷺ — على عمار وأمه سمية وأبيه ياسر وبو محزوم يعبوهم بالنار ، فقال :

— صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

وضاق أبو جهل بثبات سمية فقال لها :

— ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله .

ثم طعمها في قلبها فماتت فكانت أول شهيدة في الإسلام ، ولم يحتمل ياسر عذاب النار ففاصت روحه والسي — ﷺ — يدعو ربه :

— اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار .

وراح صفوان بن أمية يعذب مولاه أبا مكينة فيحرجه نصف النهار في شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء فيصع على بطنه صخرة حتى يخرج لسانه ، ورجال من قرابة صفوان يقولون له :

— زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره .

ومرت الأيام والعذاب يترادف على المؤمنين فمنهم من صبر ومنهم من قصي نحوه ومنهم من لم يحتمل العذاب فارتد عن دينه ، فرجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن مسه ابن الحجاج ، مشجع ذلك الكفار على أن يغالوا في تعذيب المؤمنين لعنهم يرجعون إلى دين الآباء فتموت دعوة الإسلام في مهدها قبل أن يشتد

عودها وتسمع بها القبائل التي تفد إلى الحرم في الموسم .  
وأتى خباب رسول الله ﷺ — وهو متوسد برودة في ظل الكعبة  
ولقد لقي المسلمون من المشركين شدة شديدة ، فقال :

— يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد — ﷺ — محمرا وجهه فقال :

— إنه كان من قبلكم يعشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم  
وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المشار على فرق رأس أحدهم  
فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه . وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير  
الراكب من صنعاء إلى حصر موت لا يخاف إلا الله والدئب على غنمه .  
وأطرق خباب وقد تقاصرت نفسه ، ولم يطل إطراره فقد مس أذنيه  
صوت الرسول ﷺ — وهو يدعو له كأنه صوت رحيم آت من  
السماء :

— اللهم انصر خبابا .

وراح أبو جهل ينفس عن حقهده محمد — عليه السلام — بتعديب  
كل من آمنوا بما جاء به ، لم يدع رجلا ولا امرأة ، لا صب عليه سوط  
عذاب ، إنه رأى أناسا يعذبون امرأة كانت جارية من جوارهم وقد فتن  
بالدين الحديدي فذهب ليشارك في صب جام غضبه عليها ، فألماها قد  
عذبت حتى عميت فلم يرق لها قلبه ، بل راح يصريها ويقول لها :

— إن اللات والعزى فعلا بك ما تريين .

فألت له في إيمان :

— كلا والله لا تملك اللات والعزى نفعا ولا ضرا ، هذا أمر من

السماء ورنى قادر على أن يرد على بصرى .



فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها فقالت قريش :

— إن هذا من سحر محمد

وجيء ببلال مقيدا وكان اليوم قائظا وقد ألبسوه درعا من حديد  
وأضجعوه على الرمال وتركوه للشمس وانصرفوا ، فأحس كأنه في أتون  
نار ولكنه ظل صابرا ولم يعرف الجزع طريقه إلى فؤاده ، وجاء أمية بن  
خلف وأبو جهل والمشركون يتفصد العرق منهم من شدة الحر ، وقالوا  
لبلال :

— سب محمدا .

فقال بلال يردد نشيده :

— أحد .. أحد .

أيسوا من أن يسب العبد الحبشي محمدا أو يذكره بسوء ، فلا أقل من  
أن يذكر آلهتهم بخير ليطلقوه فقد لاحت الهزيمة لأعينهم بشعة إذا ما استمر  
بلال على عناده ، فقالوا له :

— اذكر اللات والعزى .

— أحد .. أحد .

— قل كما تقول .

فيقول بلال في سخرية .

— إن لساني لا يحسنه .

فرفسه أبو جهل رفسة شديدة وهو يقول :

— أما زلت على غيك يا ابن السوداء .

وتمادوا في تعذيبه وبلال ينشد نشيده :

— أحد .. أحد . إن يقتلوني فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية

( دعوة إبراهيم )

القتل ، فيارب إبراهيم ويوس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .  
 ذاق بلال حلاوة الطاعة وتعلقب همته بالله وعرف مراقبة أنفاسه  
 وأحب الله من كل قبه فصر على الشدة ، فمن ذاق شيئا من حالص محبة  
 الله ألهه ذلك عمن سواه . إنه أصبح يحتقر جلاديه ، هانوا في عييه ،  
 وبات يستشعر عزة تملأ حوائجه فكان الاضطهاد يشعل نار اليقين في قلبه  
 ويدنيه من ربه ويجعله بحس وهو مكبل بالقيود أنه أكثر حرية من الذين  
 يتوسلون إليه أن يذكر آهاتهم بخير ليحفظوا كرامتهم امرعومة وكبرياءهم  
 الجوفاء .

واشتد البلاء بأصحاب رسول الله — ﷺ — فرأى في المنام أنه  
 يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه فاستبشروا  
 ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين .

ومرت الأيام وإيذاء قريش للمسلمين يزداد والأمر بالهجرة لا يزل من  
 السماء ، فجاءوا إلى رسول — ﷺ — وقالوا :

— يا رسول الله متى هاجر إلى الأرض التي رأيت ؟

فسكت رسول الله — ﷺ — ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا تتلى  
 عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ . أم  
 يقولون اعتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون  
 فيه كفى به شهيدا بيسى ويسكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من  
 الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا  
 إلا نذير مبين ﴿ (١) .

فقال رسول الله ﷺ — لأصحابه :

— إنما هو شيء رأيته في منامي ، أتبع إلا ما يوحى إلى .  
وضاق أمية بن خلف وأبو جهل والمشركون بثبات بلال على دينه على الرغم من كل صوف العذاب التي أurlوها به ، وحشوا أن يكون عذابه وثباته فتنة للناس عوضا عن أن يكون رجرا وترهيبا فأخرجوه إلى الرمضاء ووصعوا صخرة عظيمة على صدره ، فراح بلال ينشد نشيده مستحفا بالعذاب والأهوال :

— أحد .. أحد ..

— اذكر اللات والعزى ..

— أحد .. أحد ..

— قل كما تقول . اذكر اللات والعزى بحير .

— أحد .. أحد ..

وراحوا يرفسونه في حق ويصربونه في غصب ثائر وهو يقول :  
— إن يقتلوني فلم أكس لأشرك بالرحمن من حشية القتل ، فبا رب إبراهيم ويوس وموسى وعيسى نجى ثم لا تبلى .

وحرج أبو بكر من عند النبي ﷺ — في الهجرة وقد تشاور الصحابيان في أمر بلال واطلق إلى ساحة التعذيب ، وما إن رأى بلال يثن تحت الصخرة وهو يقول : أحد .. أحد . حتى أحس كأن كبده تكاد أن تنصدع وهرع إلى أمية وقال له :

— حتى متى تعذب هذا العبد ؟ ألا تتقى الله فيه ؟

— كفى يا بن أبي قحافة ، إنه يعذب بسببك فما أفسده سواك .  
وكأنما أرادوا أن يتخلصوا من عار صمود بلال على التعذيب وعدم

التطلق بما يحبون ، فقال أمية :

— أنقذه مما ترى .

كان أمية بن خلف زاهدا في عبده الذي وقف كالطود في وجه سادات قريش يردد نشيده : « أحد .. أحد » مستحقرا كل شيء سوى ربه الذي ثبت فؤاده ، وقد مل أمية تعذيب بلال وما كان يرتجف إلا من أن يضطر أن يعلن على الملأ أنه هزم أمام عبده الذي استحف بأهوال العذاب في سبيل عقيدته ، فلما عرض عليه أبو بكر أن يشتري بلال بخمس أواق ذهباً قال دون تفكير :

— لو أبيت إلا أوقية لبعناكه .

فقال أبو بكر في صدق :

— لو أبيت إلا مائة أوقية لأخذه .

ورفعت الصخرة عن صدر بلال وأخذه أبو بكر وانطلقا إلى حيث كان رسول الله ﷺ — ، وفي الطريق التفت بلال إلى أبي بكر وقال : — إن كنت إنما اشتريتي لنفسك فأمسكس ، وإن كنت إنما اشتريتي لله فدعني وعمل الله .

ودخلا على النبي ﷺ — . فلما رأى بلالاً بان السرور في وجهه فالتفت إلى أبي بكر فقال :

— الشراكة يا أبا بكر .

— لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .

وراحت قريش تقول :

— إنما أعتق أبو بكر بلالاً ليد كانت له عنده فيكافه بها .

أرادوا بذلك أن يشككوا في فعل أبي بكر وفي أن عمله لم يكن خالصاً

لوجه الله ، ولم يلتفت أبو بكر إلى اقتراعات الكافرين بل استمر يشتري جماعة آخرين ممن كان يعدب في الله ، فاشترى حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة وأبا مكيبة والهدية وابنتها وكانتا للوليد بن المعيرة وكان بهنهما عذابا شديدا .

ورأى أبو قحافة ما يفعل ابنه فهرع إليه يقول :

— يا بني ! أراك تحت رقابا ضعافا ، فلو أنك إذا فعلت أعتقت رجالا جدة بمنعوك ويقومون دونك .

فقال أبو بكر لأبيه الذي لم يشرق اليقين في قلبه بعد .

— يا أبت إني إنما أريد ما أريد .

— يا بني لو كنت تبتاع من يمنع طهرك .

— ما منع ظهري أريد .

فأنزل الله تعالى قرآنا يرد به على افتراء الكافرين على أبي بكر وزعمهم أنه ما أعتق أبو بكر بلالا إلا ليدله عبده ، وليقارن بين فعل أبي بكر وفعل أمية بن خلف : ﴿ والليل إذا بعشي \* والنهار إذا تجلي \* وما خلق الذكر والأنثى \* إن سعيكم لشتى \* فما من أعطي واتقى \* وصدق بالحسنى \* فسينسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى \* وكذب بالحسنى \* فسينسر \* وما يضئ عنه ماله إذا تردى \* إن علينا للهدى \* وإن لنا للآخرة الأولى \* فأنذر تكلم نارا تلظى \* لا يصلاها إلا الأشقى \* الذي كذب وتولى \* وسيجننها الأتقى \* الذي يؤتي ماله يتزكى \* وما لأحد عنده من نعمة تجزى \* إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى \* ولسوف يرضى ﴾ (١)

## التذيل

عن عائشة رضى الله تعالى عنها :

أول ما بدئ به رسول الله — ﷺ — من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به : الرؤيا الصالحة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .

وإنما ابتدئ رسول الله — ﷺ — بالرؤيا لئلا يفجأه الملك بالرسالة فلا تتحملها القوى البشرية ، فكادت الرؤيا تأيساله — ﷺ — ، فأول ما يؤتى به الأنبياء في انمام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل عليهم الوحي في اليقظة . وقد نزل القرآن كله في اليقظة تأكيداً لما يقال أو يراد .

وقال بعض الرواة إن بعض السور نزلت والرسول — ﷺ — نائم ، وقد استدوا في ذلك إلى ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال : بيا رسول الله — ﷺ — بين أظهرنا إذ عفا إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزل على آتفا سورة . فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم \* إنا أعطيناك الكوثر \* فصل لربك وانحر \* إن شائت هو الأبطر ﴾ (١) . والحقيقة أن الحالة التي اعترته عند نزول الكوثر لم تكن إغفاءة نوم ، بل الحالة التي كانت تعتره — ﷺ — عند

الوحي ، فقد كان يؤخذ عن الدنيا .

كانت الرؤيا الصديقة ستة أشهر قبل برول الوحي ، وقد أقام رسول الله ﷺ — بمكة حين بعث ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين يوحي إليه ، فمدة الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة . وقد قيل : حصل ابتداء الرؤيا في شهر ربيع الأول وهو مولده — عليه السلام — ثم أوحى إليه في اليقظة في رمضان في أثناء تحشه في عار حراء .

وقبل إنه — ﷺ — مكث خمس عشر سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا ، وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك ، وأن المدة التي بشر فيها بالبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اثنتان وعشرون سنة ، وعلى الرغم من ذلك الإعداد الطويل فإنه فر في الأرض مرعوبا لما خاطبه الملك ، لأن رؤيا ملك من الملائكة وسماع صوت من غير أصوات البشر شيء فوق طاقة الإنسان . وقد كان صادقا لما قال خديجة : لقد أشفقت على نفسي .

وقبل : إن رسول الله ﷺ — خرج في شهر رمضان الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته — عليه السلام — إلى حراء ، كما كان يخرج لحواره ومعه أهله ، ولكي لم أحد بهذا الرأي لأنه لو كان قد خرج ومعه خديجة — رضي الله تعالى عنها — لفرغ إليها لما فاجأه الملك ، ولما فر هاربا إلى وسط الحقل . ولو كان معه فاطمة وعلى بن أبي طالب وريد بن حارثة وأم أيمن للادهم من حوفه ولورد ذلك في أحاديثهم ، وإنه لشرف عظيم يروى أن يكون أحدهم في صحبة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ليلة أن أنزل عليه

الوحي .

وقيل إن ابتداء الوحي كان في شهر رمضان : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾<sup>(١)</sup> ولكن بعض المفسرين قال بأن المراد برول القرآن في رمضان نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة في سماء الدنيا . وقال بعض المفسرين والإخباريين إن ابتداء الوحي كان في السابع عشر من رمضان ، مستشهدين بقول الله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾<sup>(٢)</sup> . وكان النقاء الجمعي : المسلمين والمشركين في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة . وقال آخرون إن ابتداء نزول القرآن كان في سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان ، مؤيدين قولهم بأن « هي » التي جاءت في سورة القدر : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر » وما أدراك ما ليلة القدر \* ليلة القدر خير من ألف شهر \* تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر \* سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾<sup>(٣)</sup> . هي الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، وقد جاء ذلك لتأكيد أن ليلة القدر كانت في السابع والعشرين من رمضان !

وقد جزم الإمام أبي حنيفة بأن أول نزول القرآن على الرسول ﷺ — ، كان في سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان . وقد اتفق الرواة في معنى الحوار ابدي دار بين محمد — ﷺ — وجبريل الأمين وإن اختلفوا في اللفظ ، وقد وجد استشرقون في بعض

(١) البقرة ١٨٥ (٢) الأنعام ٤١ (٣) سورة القدر



الروايات وهي رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام بالتحديد ،  
ما يحاولون أن يذكروا به عدم معرفة الرسول ﷺ — بالقراءة  
والكتابة ، ولا أقول أمية الرسول ، فقد سبق في الأجزاء السابقة أن  
وضحت أن صفة الأمية التي جاءت في القرآن إنما يقصد بها النسبة إلى  
الأمم ، أي من لم يكونوا من بني إسرائيل : ﴿ هو الذي بعث في الأميين  
رسولا ﴾ (١) . أي في الأمم ، ﴿ النبي الأمي ﴾ (٢) أي النبي الذي جاء  
من غير بني إسرائيل ، أما عدم معرفة الرسول القراءة والكتابة فقد  
وضحها القرآن الكريم بقوله ﴿ وما كنت تحطه بيمينك ﴾ (٣) .

جاء في البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدئ به  
رسول الله ﷺ — من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى  
رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء  
فيتحدث فيه ، وهو التعبد للبال ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود  
لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق (٤) وهو في غار  
حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني  
فغطني (٥) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا  
بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال :  
اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال :  
﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك  
الأكرم ﴾ (٦) فرجع بها رسول الله ﷺ — يرجف فؤاده ... » .

(١) الجمعة ٢ (٢) الأعراف ١٥٨ (٣) العنكبوت ٤٨

(٤) أي الأمر الحق (٥) أي ضمنى وعصرني (٦) الطلق ١ : ٣

أما رواه ابن إسحاق فتقول : ... حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته في السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله — ﷺ — إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالة ورحم العباد منها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله — ﷺ — : «هاعلى جبريل وأنا ناعم ، بمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى<sup>(١)</sup> به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : ما أقرأ . قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا اعتداء منه أن يعود لي بمثل ما صعب لي ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خلق الإنسان من علق ﴾ اقرأ وربك الأكرم ﴾ الذي علم بالقلم ﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾<sup>(٢)</sup> قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهبت من يومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا

جاء في رواية البخاري أن الرسول — ﷺ — قال لجبريل : ما أنا بقارئ . أما في رواية إسحاق ، فقد قال — ﷺ — في المرة الأولى والثانية « ما أقرأ » . وفي الثالثة « ماذا أقرأ ؟ » ولو أن ما أقرأ وما أنا بقارئ تعبيران معني واحدا « فما » في الجملة الأولى كـ « ما » في الجملة الثانية أداة نفى لا استفهام ، إلا أن بعض المستشرقين رأوا أنها « ما »

استفهامية ، وأن رواية ابن إسحاق وقد جاء فيها أن في المرة الثالثة قال الرسول — ﷺ — . ماذا أقرأ ؟ ، تؤكد معنى الاستفهام ، وأغفلوا تدارك ابن إسحاق ذلك بقوله على لسان محمد — ﷺ — ما أقول ذلك إلا افتداء منه لأن يعود لي بمثل ما صعب لي .

وقال المستشرقون لو أن جبريل كان يعلم أن محمداً — ﷺ — لا يعرف القراءة لما جاءه بمط من ديباح فيه كتاب ولا قال له : أقرأ . ولما كانت رواية ابن إسحاق تؤكد أن أول ما جاء الوحي إلى محمد — ﷺ — كان وهو نائم . فقد قال بعض المفسرين إن الإنسان في يومه يستطيع أن يفعل أشياء لا يقوم عليها في اليقظة ، وأن القراءة في النوم محتمة لمن لا يعرف القراءة ، ولكي لا آخذ بهذا الرأي وسأوضح أن الحوار الذي كان بين جبريل وبين محمد — ﷺ — كان في اليقظة وأن رواية ابن إسحاق محض خيال .

لم يأت ثبوت الديباج ذكر في حديث عائشة ، ولم تقل عائشة إن الوحي نزل على الرسول — ﷺ — وهو نائم . ثم إن رواية ابن إسحاق لا يعول عليها لأنه يرويها عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير وهو من التابعين ، وليس في الحديث صحابي واحد ممن صاحب الرسول — ﷺ — ، وعلى ذلك فالحديث مرسل ليس في مرتبة الصحيح ولا يحتج به .

ومما يؤكد أن حديث الثمط والديباج والكتاب المكتوب مجرد خيال فإنه لم يثبت أن الوحي نزل يوماً على محمد — ﷺ — بقرآن مكتوب —

﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (١) . ولم يعمهم محمد — ﷺ — أن جبريل يريد منه أن يقرأ من صحيفة ولكنه فهم أنه يريد منه أن يتلو شيئا ، وما كان محمد — عليه السلام — بقادر أن يتلو من الكتب السابقة على القرآن فإنه كان يتلقى الحكمة من ربه مباشرة بتجليه قلبه وترصد ما يهبط عليه من خزائن الملكوت ، وعلى ذلك ترجح رواية عائشة التي يقول فيها الرسول — ﷺ — « ما أنا بفارئ » . على رواية « ماذا أقرأ » التي أثبتتها ابن إسحاق في السيرة .

والقراءة في القرآن وفي الحديث استعملت بمعنى التلاوة ، وإن دعوة أئينا إبراهيم وإسماعيل لإدرفعان القواعد من البيت وما في سورة الإسراء يوضح هذا المعنى : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. ﴾ (٢) . وفي سورة الإسراء : ﴿ وقرآنا فرقاه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ (٣) . فتارة يستعمل القرآن الكريم التلاوة وتارة يستعمل القراءة ويقصد في الحالتين التلاوة ولا شك .

واختلف المفسرون والإخباريون فيما إذا كانت النبوة والرسالة مفترين أم أن النبوة قد بدأت بنزول ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . ثم كانت فترة الوحي مدة تتراوح بين ثلاث سنين وستين ونزول ﴿ يأتيها المدثر ﴾ . فكأن الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بيأيا المدثر .

(٣) الإسراء ١٠٦

(٢) آل عمران ١٦٤

(١) الأنعام ٧

صرح بعضهم بأن الله سبحانه وتعالى نبأه بقوله ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وأرسله بقوله ﴿يأياها المذئبر \* قم فأندبر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر﴾<sup>(١)</sup> وأن بينهما فترة الوحي ، وعليه أكثر الروايات . ولو أن بعضهم أكد أن أكثر الروايات على ذلك فلم آخذ بهذا الرأي ، بل أخذت بالرأى القائل بأن جبريل قال له صراحة : أنا جبريل وأنت محمد رسول الله . ولما دعا خديجة وباتته إلى الإسلام ، ولما دعا على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وأبا بكر وأوائل الصحابة قبل أن يؤمر بذلك .

كانت الدعوة سرا مد قال له جبريل إنه رسول الله ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بالجهار بالدعوة لما نزلت : ﴿واصدع بما تؤمر﴾<sup>(٢)</sup> . واختلف المفسرون في أول ما نزل من القرآن ، فقد رأى بعضهم أن البسملة أول ما نزل ، ويؤيدون ذلك بما كان بين محمد — ﷺ — وبين خديجة يوم أن كان في العار وسمع صوتا يناديه فانطلق إليها مرعوبا يقول : إني إذا حيوت سمعت بداء ! فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا . فقالت له خديجة : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، هو الله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . فعاد إلى الغار وثبت بعد نصيحة ورقة له ، فلما ناداه الملك : يا محمد . قل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم \* الحمد لله رب العالمين﴾ . حتى بلع ﴿ولا الضالين﴾ .

قال بهذا القول البيهقي والواحدى والحديث الذى اعتمدا عليه مرسل ، ينسب حديث صحيح البخارى يؤكد أن أول ما نزل على الرسول

— ﷺ — من القرآن هو مطالع العلق ، ومطالع المدثر . وبما ثبت تأخر برول فاتحة الكتاب أن بعض المفسرين قالوا إنها مدنية ، أى أنها تأخرت إلى ما بعد الهجرة ، وقال بعضهم إنها مكية ، وأراد بعضهم الآخر أن يوفق بين الرأيين فقال إنها مرتين مرة في مكة ومرة في المدينة ، وعد الأكثرين هي مكية من أوائل ما نزل من القرآن وليست أول ما نزل منه ، فهي أنسب للعبادة وصيغة المتكلم الجمع فيها تفيد أنها نزلت في وقت كان الإسلام فيه قد عرف طريقه إلى قلوب جماعة تقول : يعبد ويستعين واهدنا بصيغة الجمع .

وقبل إن أول ما نزل من القرآن سورة ﴿ المدثر ﴾ استنادا إلى ما قاله جابر بن عبد الله الأنصاري لما سأله سلمة بن عبد الرحمن : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ أيها المدثر ﴾ قال سمية : أو « اقرأ باسم ربك ﴾ ؟ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله — ﷺ — . قال رسول الله — ﷺ — : ﴿ إني جاورت بحراء شهرا ، فلما قصيت حوارى نزلت فاستنظت بطن الوادى ، فوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ثم بطرب في السماء فإذا هو على الفرس في الهواء — يعنى جبريل — فأخذتني رجفة فأثبتت خديجة فأمرتهم فدثروني ثم صبوا على الماء ، فأنزل الله على : ﴿ يا أيها المدثر \* قم فأندر ﴾ .

وهذا ليس بمخالف للقول بأن ﴿ اقرأ ﴾ أول ما نزل من القرآن ، وذلك أن جابرا سمع من النبي — ﷺ — القصة الأخيرة ولم يسمع أولها . فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل وليس كذلك ، ولكنها أول

ما نزل عليه بعد سورة اقرأ . والذي يدل على ذلك حديث الزهري عن حابر قال : سمعت النبي ﷺ — وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « فبينا أنا أمشي سمعت صوت من السماء ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني في حراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض ، فحششت من رعبا ، فرجعت فقلت : زملوني .. رملوني ، فذروني فأنزل الله ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

ومن هذا الحديث يتضح أن الوحي كان قد فتر بعد نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ . ثم نزل ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ، والذي يوضح ما قلنا إخبار النبي ﷺ — أن الملك الذي جاء بحراء جالس فدل على أن هذه القصة إما كانت بعد نزول اقرأ .

وعلى ذلك تكون مطالع العلق أول ما نزل من القرآن في عار حراء ، وتكون المدثر أول ما نزل في دار حديجة بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، أما العاتجة فقد تأخر نزولها حتى ذاع الإسلام بين جماعة المسلمين الأوائل ليسألوا الله أن يهديهم الصراط المستقيم في صلواتهم . على أي صورة كان الوحي يأتي الرسول ﷺ — ؟ قال ﷺ — . إن جبريل يأتيني فيكلمني كما يأتي أحدكم صاحبه فيكلمه ويصرد من غير حجاب . وفي رواية كنت أراه أحيانا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغريال .

وقال ﷺ — : إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها ، فاتقوا الله وأحموا في الطلب .

وسأل الحارث بن هشام — أخو أبي جهل — الرسول عليه السلام .  
كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد  
على فيمصم عنى وقد وعيت ما قال . وفى رواية : يأتينى أحيانا له صلصلة  
كصلصلة الجرس وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول .  
وكان — ﷺ — يجد ثقلا عند نزول الوحي ويتحور جبينه عرفا فى  
البرد كأنه الجمان ، وربما غط كغطيط البكر محمرة عيباه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : كان إذا نزل الوحي على  
رسول الله — ﷺ — ثقل ذلك ، ومرة وقع فخذه على فخذى فوالله  
ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله — ﷺ — .

وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها تنقصم ،  
وربما بركت ، وجاءه أنه لما نزلت سورة المائدة عليه — ﷺ — كان على  
ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .

وجاء على لسان محمد — ﷺ — : ما من مرة يوحى إلى إلا ظننت  
أن نفسى تقبض منى . وعن أسماء بنت عميس : كان رسول الله  
— ﷺ — إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه . وذكر بعض العلماء  
أنه — ﷺ — كان يؤخذ عن الدنيا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : كان رسول الله — ﷺ — إذا  
نزل عليه الوحي لم يستطع أحد ما يرفع طرفه إليه حتى يقضى الوحي .  
وعن يزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : كان إذا نزل على رسول الله  
السور الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السور ، وإذا نزل



عليه السور اللينة أصابه من ذلك على قدر ليها .

وعن عمر رضى الله عنه : كان إذا مرل على رسول الله — ﷺ —  
الوحي يسمع عند وجهه كنوى الحل .

وعن عائشة وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما : أن النسي — ﷺ —  
لم ير جبريل على صورته التي حقه الله عليها إلا مرتين : حين سأله أن يريه  
نفسه فقال : وددت أنى رأيتك في صورتك ، والأخرى ليلة الإسراء .  
وعلى ذلك يكون الوحي بأن يرى النسي عليه الصلاة والسلام جبريل  
في صورة آدمي ، وقد حاء في صورة دحية الكلبي وغيره ، أو بالمش في  
الروح ، أو يأتيه أحيانا بصوت نه صلصلة الخرس ، أو يراه على هيئة التي  
خلقه الله عليها ، وما كان الله يكلم أنبياءه إلا وحيًا أو من وراء حجاب .  
﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل  
رسولا ﴾ (١) .

وقد وجدت الرعة في العدم بالعب واستطلاع المحول مد أقدم  
العصور ، وقد شاعت الكهانة في العرب وهى ادعاء علم العيب كالأحار  
بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب . والأصل فيها ستراف الحسي  
السمع من كلام الملائكة فينبقى في أدن الكاهن ، والكاهن يطق يطلق على  
العراف والذي يضرب بالخصى والمنجم .

والعرب تسمى كل من أدن شئ قىل وقوعه كاهن . وكانت الكهانة في  
الجاهلية فشية فيهم لأنقطاع السوة فيهم ، وعرف العرب العرافة وصاحبها

عراف ، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالرحر وانطرق بالحصى ، وقد حاء فى الحديث الشريف : « من أبى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أمر على محمد » .

وقد أطال ابن خلدون فى مقدمته عندما تكلم عن الكهانة فقال : وأما الكهانة فهى أيضا من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أن للنفس البشرية استعدادا للأسلح من الشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأنه يحصل من ذلك نحة للبشر فى صف الأبياء مما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاما أو حركة ، ولا بأمر من الأمور ، إنما هو أسلح من الشرية إلى المنكية بالقطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر . وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موحودا فى الصفة البشرية فيعطى التقسيم العقلى أن هناك صفا آخر من الشر ناقصا عن رسة الصنف الأول نقصان الصدف عن ضده تكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتاب ما بينهما ! فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هناك صفا آخر من الشر مفضورا على أن تتحرك قوته اعقبية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يعثها الروح لذلك وهى ناقصة عنه بالحبة ، فيكون ما بالحبة عندما يعوقها لعصر عن ذلك نشئت بأمر جزئية محسوسة أو متحيلة . كالأجسام الشفافة وعظام الحيوات وسجع الكلام وما سجع من صير أو حيوان فيستديم ذلك لإحساس أو التحيل مستعينا به فى ذلك الأسلح الذى يفصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه نفوس

مضطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجرئيات أكثر من النكيات ، ولذلك تكون الخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجرئيات تستند فيها بعودا تاما في يوم أو يقطة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تخرسها بالخيلة ، وتكون لها كالمراة تنظر فيها دائما ، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموارنة ليشتمل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال لنقص فيجس في قلبه في تلك الحركة ، والذي يشيعها من ذلك الأحسى ما يقوده عن لسانه ، فربما صدق ووافق وربما كذب لأنه يتم بقصه بأمر أجسبي عن داته المدركة ، ومبين لها غير ملائم ، يعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به .

وربما يفرع إلى الطوب والحميات حرصا على الطهر بالإدراك برعمه وتمويهها على السائلين . وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنه أرفع سائر أصنافهم . وقد قال النبي ﷺ — في مثله : هذا من سجع الكهان ، فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال ابن صياد<sup>(١)</sup> حين سأله كاشفا عن حاله بالاحتبار : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال ابن صياد : يأتيني صادق وكاذب . فقال : خط عليك الأمر . يعنى أن البوة خاصتها الصدق فلا يعثرها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجسبي

(١) راجع من اليهود عنده شيء من الكهانة والسحر .

والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات  
الأجنبية كانت داخلية وإدراكه والتبست بالإدراك الذى توجه إليه  
فصارت مختلطة بها ، وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ،  
وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أحف من  
سائر المغييات من المراثيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب  
ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن أسوة بما  
وقع من شأن رحمة الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن ذلك كان  
لمنعهم من خسر السماء كما وقع في القرآن ، والكهان إنما يعرفون أخبار  
السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل  
لأن علماء الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما  
قرر ، وأيضا فالآية إنما دلت على مع الشياطين ، نوع واحد من أخبار  
السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يبعوا عما سوى ذلك ، وأيضا وإنما كان  
ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط . ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت  
عليه وهذا هو الظاهر ، لأن هذه المداك كتبها تخدم في رسم النبوة كما تخدم  
الكواكب والسرّج عند وجود الشمس ، لأن النبوة هي النور الأعظم  
الذى يخفى معه كل نور ويذهب . وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد  
بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة  
لا بد له من وضع فلكي يقتضيه ، وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي  
دل عليها ، ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك

النوع الذى يقتضيه ناقصة ، وهو معنى الكاهن على ما قررناه . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحدا أو متعددا ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد . وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضى بعض أثره وهو غير مسلم . فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر ببيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئا لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصا كما قالوه .

ثم إن هؤلاء الكهنة إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ، ولا يصددهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبيا ، وكذا وقع لأبن الصياد ولمسلمة وغيرهم . فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الأسدي<sup>(١)</sup> وسواد بن قارب وكان هما من الفتوحات الإسلامية ما شهد بحسن الإيمان .

وقال الأصفهاني في كتاب النريعة : « الكهانة فمختصة بالأمور المستقبلية ، والعرافة بالأمور الماضية » . وعرفها بعضهم بقوله : « العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما ، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن فضلة الأسدي ، كان يعد بألف فارس ثم تنبأ ثم أسلم وحسن إسلامه .  
( دعوة إبراهيم )

مفاتيح قفسه ولا يجد له أو آخره كقولنا سرهم الخيل معلقة للفقير الاستحقاق فلا يخرج من  
 كنوان الأبرار الباطل المفسر كونهما لا ينالهم على ولا يظفر أوجه ولذلك إمساك  
 بالمصدقين أو السامع في الموعظة في أنفسهم على الخطورة له عتبه أو عتبه  
 ولما لم يجد لهم الاستدلال بالأمور التي هي من كلياتهم كقولنا وسئلوا  
 لعلنا ما هل آخر أدب أو استعلام ما سألنا عنهم وقال ابن عثيمين في  
 وإنما الرجز هو ما يحد من بعض الناس من أن يكلمهم بالحق في حق من  
 طائر أو حيوان أو فكر في بعضه شيء أو في قوة أو النفس في حق على  
 لغرض أو الفكر أيضا ويخبر به من عرف أو سمع أو هو كقولنا قوة الخيلة  
 قوة من كليات النفس من كلياتها : آه أو كلمة قوية ذلك إلى غير ذلك مما  
 تعلمها القوة المتعملة في الوجود أو محدث كقولنا الخواص كقولنا الخواص  
 والكرامة في بعضه فتجتمعه مع ما يحفظه في كلياتها أو غيرها في كلياتها  
 قال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه مطلع النور أو طالع البعث  
 المحمدية : من قديم الزمن وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع  
 المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يلقى عليها عامة من قبل وشر  
 الظلم والتعاقول بالكلام المسموع والمناظر التي تثير بالظلم والتخلف ،  
 أو تنذر بالشر والخيبة . في نفسه هذا ما كان قوامه . ففقدنا  
 فيه دليل من كليات العلم الآخر في البعث ، البعث جمع الناس لا يختص به  
 هذه العلامات العامة كانت معرفة فائقة بين الناس لا يختص بها  
 أحد منهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التعاقول والعلامات  
 الشاذة فيه من مراثي الجماعة في القلوب على وتيرة واحدة من الآباء إلى  
 الأبناء .



والتبصرة ، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الإلهي في الطب القديم .  
وكان اليونان يسمون الرائي مانتي Manotos ، ويسمون المعبر عنه  
أو المفسر لكلامه Prophet أى المتكلم بالنبأ عن غيره قبل أن تطلق هذه  
الكلمة على النبي بمعناها المأثور في الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين  
الرائي والكاهن لم يزل ملحوظا في الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظا في  
الأزمنة الغابرة ، فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد  
ما يقوله والرائي يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية في شخص واحد  
ويظل العمالان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو  
« راء » ينطق لسانه بما يعبه وما لا يعبه .

ويصطدم العمالان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل  
الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فإن الكهان في هذه الحالة يجمدون أحيانا  
على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتمسك الحظوة عند ذوي  
السلطان في بلادهم ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائي  
المتطوع ، فيثور الرائي على الكاهن ويتهمة في أمانيه وإيمانه ويحدث بينهما  
ما حدث بين « أمصيا » كاهن بيت إيل و« عاموس » الرائي « أبيا الرائي »  
اذهب .. اهرب إلى أرض يهود وكل هناك نجوا وكن هناك نبيا ، وأما  
بيت إيل فلا تعد تنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك » .

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما  
وجدت في سائر الأمم ، ولم يسموا الرائي عندهم باسم النبي إلا بعد  
اتصالهم بالعرب في شمال الجزيرة .. إذ وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية



غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جداً بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى .

والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرأى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار .. وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه اخليل عند بيت المقدس ... وهم : يثرون ( شعيب ) وبلعام وأيوب .. ويعزز هذا الرأى ما جاء في موسوعة الكلمات اللاهوتية A Theological Word Book of The Bible, edited by Richardson فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر وشميدت ، فإيهما يرجحان أن كلمة النبوة بما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه : « عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل مبعث موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التى نعهد لها اليوم دفعة واحدة ، وعبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ويتظنون منها الكذب كما يتظنون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول ، فخلطوا بينها وبين الجنون كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر . وأضعف من شأن النبوة عند بنى إسرائيل خاصة أن

والأيمان بآياتهم كبروا وتصدقون بشؤونهم في وقت واحد وحقه فصولها أشار  
إليها عليهم بآياتهم عند آخرها فلما أصبح الأنبياء بعد ذلك فزقوا بشتاتهم في  
المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب، ولما سئلوا إلى معرفة  
الصدق والكذب يفرقوا بين الحوادث التي تأتي أحيانا بعد بيان  
ما تقدم من النبوة المتبررة، وذلك من رتبة دلائل النبوة.

أما ما عليه عليه عقيدة شائعة بذهول النبي ونجايه عن الوعي في جميع  
أيامه وفي الأيام التي عليه من الوجود الإلهي على الخصوص، كرسهم  
يؤمنون أن العيوبة والاتصال بالعبث شيء واحد، وكانهم يحسبون أن  
الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبي وإقباله بحملته على الله .  
ولعل الكتاب العربي الذين تناهوا حياة بني الإسلام كانوا متأثرين  
بصورة النبوة في التوراة وبوصف الأنبياء الذي جاء في سفر صمويل .  
يكون عند تحريكك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نارلين من  
الأكمة وأمامهم رباب خدوف ونأي وعود وهم يتباؤن، فيتحلل شعثهم

روح الرب فتبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر، فيحسبون أنهم قد  
تخلصوا من عبث الأنبياء بنى إسماعيل المشركين بالقديم والرباب والنفوس .  
وما تمناه ما كنا كذبت أو كلفنا حرجا وطمعوا بركبتهم لأنهم المولحن فطلة فيقولون عليه  
لأنه هو إلا حرجن قن على الأرضين وحلفه على نفسه بأنه لا يطأ الخ وقله أن لا يطأه  
ولا المأوى ولا يكافأ بالهتوع ولولا الأمانة أو لم يجرى ما بين من الأنبياء من رفع من لم يمان  
بالانصاف إلى على يصولوا أو لم يجرى ما بين ما يطلوا في رتبها له ما يفتي

فما لم يلقه بالهتوع في ما يطلوا في رتبها له ما يفتي (١)  
فما لم يلقه بالهتوع في ما يطلوا في رتبها له ما يفتي (١)  
فما لم يلقه بالهتوع في ما يطلوا في رتبها له ما يفتي (١)



وإن جورج ميل الذى ترجم القرآن ترجمة طيبة فى أوائل القرن الثامن عشر ، والذى كان من الواجب أن يعرف عمدا معرفة أفضل ، صدر ترجمته بالآتى :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى فى التجارة والآداب تنازعت فيما بينها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس هومروس .. وإن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى فكر رجال ذلك العصر . ولكن لما فحصت عن شخصية محمد فحسنا دقيا ألفيت الصورة فظيعة معيبة حتى إنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان ، إن أى قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم ، ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهذا المخاتل الكبير عميقا حتى إنهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيه أول ما تنفس بكتفه رمية أو غموض . واستمر هكذا ، وإن التعليق الوحيد على ذلك هو أن تستعير الألفاظ من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيو إنجلند الذى ذكرناه آنفا :

« كيف استطاع مثل هذا المجرم ، مثل هذا المخاتل الكبير أن تأخذ دياناته فى الزوال كما حدث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوما بعد يوم ١٩ » .

لم يبدأ سوء فهم المسيحيين للإسلام حتى أواخر أيام الرسول ، بل بدأ فى صورة جذبية فى الحروب الصليبية الأولى ، وازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين حتى إن لفظة « محمد » أصبحت بمعنى الكفر بالله . وتطورت لفظة

والمحمدية : في أذهان معاصري شكسبير حتى أصبحت بمعنى أية ديانة مزيفة وعلى الأخص الديانة التي تعبد الأصنام ، وأصبحت لفظة محمد Mamets تستعمل بمعنى أصنام ، واشتقت كلمة Mahometie ثم كلمة Mummety بمعنى مجوف من نفس المصدر .

وظهر محمد في شعر القرن الثاني عشر كأمر من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسيحية المقدسة ، وأنه خلق ليكون كردنالا ، فلما أخفق في أن ينصب نفسه بابا ثار لنفسه بأن ابتدع ديناً جديداً .

وكانوا يعتقدون حتى زمن قريب أن نعش محمد معلق بين السماء والأرض ، وقال المؤرخون دون حجل إن قبر محمد في مكة ، وقال آخرون إنه مات من السكر وإن الخنازير أكلت جسده ، في حين أن محمداً حرم لحم الخنزير وحرم الخمر على نفسه وعلى أتباعه ، قد رقد رقدته الأخيرة في المدينة مذ ثلاثة عشر قرناً مضت .

وقد يصادف المرء أحياناً كتاباً من طراز جون سلون الذي أجهد نفسه في دراسة دين العرب ، فقد قال ذلك الكاتب الذي عاش في القرن السابع عشر : « إنهم يطلقون على الأوثان لعطة محمد Mamets وعلى عبادة الأوثان والمحمدية Mammetry فصارت محمد والمحمدية أسماءً بغيضة ، في حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك ( يقصد المسلمين ) يحرمون الأوثان في ديانتهم » .

كنت أحسب أن الافتراءات على محمد ﷺ — قد خفت بعض الشيء بعد أن كتب بعض الكتاب العربيين السيرة النبوية في تفهم

[illegible]

من سخر مني كما جازأتنا فاني لما كنت لتوافق ان قلبه من شئ طيب يخرج من  
 فيه ان يمتدح من الحقيقه للحقيقه في القرن العشرين قبل ان يكون الله اكبر  
 لينكس أشد ضراوة في هذا وهو الذي الإسلام من من راعي في كنهه عيوبه  
 الذي سخر منه بوقه من ولأد استهزاءه، ففتح الحجة على من يكتبه  
 الفصل ٢٤ تحت عنوان في ضريح ذوي القدره والشهره في اوضاع عرجة  
 الصريح ومتشابه المرحل ويقرر في محادث التي سار عليها كان، أول من  
 احتل إلى العلاقة بين الصريح والشيوع، وأنه قد في متبع فقهه بأسماء العوام  
 الذين كانوا مصابين بالصريح وقال الطيب المؤلف بالخرقة الواقية.  
 وفي هذه المقالة أسيد غير، وكالحوالات محمد الصريح The Gibbonable  
 Mahomets، وكأفأر له أن يؤكده على في بأداه شائش، محمد من صيته  
 بالأنونان فلم يكتب الله محمد Mohammed، كما فعل في صلبه، بل كنهه  
 Mahomets لتبين فكرة عبادة للأولاد في الألمان في سنة ١٨٤٠  
 وهذا التقديم للبحث أهتز ذلك كور، تراطة العالم وكرامة العلماء،  
 وأظهر حقنا دينا على نبي الإسلام يعبه عن حياء الباحثين عن جوهر  
 الحقيقه جو من أعطى التواي أن يمتدح طيبه وحول لا يؤمن به ملايين البشر  
 ويحتونه بكل قلوبهم ذلك المؤلف الذي في ١٨٤٠، ٢٤٩، مؤمن الأعرج

أن أطباء العرب الذين يتخلون هذا الكتاب برجعهم لم يهركوا بها كما  
ولم يبعثوا إلى الدكتور الذي استهوت به فكرة فيلسوف بل يعضد محاولته وجمع  
الحقيقة ، لا تعصيا لسي للإسلام بل تحيا في الحقيقة دائما .  
القطر الدكتور يتيوكل في فكرة أوسطو القائلة بوجود علاقة بين  
الصرع والكيوح فراح يصفه بنبيوه للمصلحة لتأكيد الفكرة في علم صفة  
عائدا كما يحتم العلم التجريدي بل يملأ مؤلفا بها الحق ، كل أبحاثه لإثباتها ،  
متعلق بأوهي الأحداث وأضعف المزج والتلف لعديم مناس ومنشقا ، فجاء  
بحته قرضا غير خيرا عن الحق وطلبه أموناها بوصف به تحت علمي ، قما ،  
بالك برأي طبييت يشخص الأمر اهر على مجموعة من الاضراراضات  
والأوهام .  
راح الدكتور لإثبات ما آمن به بعد الفلاسفة والمؤلفين والمطربين  
والقائين والموسيقين والشعراء والأنبياء الذين ابتدعوا غير ما أنتجوه في  
لحظة الصرع ، ولم يعتمد في نسبة الصرع إلى المبالغة القليلة بل إلى  
أطباء قدامى بل على ما أورده أفلاطون في محاوراته ، كأنما كان أفلاطون  
يقين بالأجهزة الحديثة ذبذبات المع وبرلمة رسلها كجهازها ، أو كما قد  
حقن أفلاطون هؤلاء المشاهير حفته قادرا على إحدائك النظرية .  
أكد البروفسور أن جميع الفلاسفة الذين عرّفهم التاريخ منطلعون  
بالصرع بناء على أقوال فلاسفة كانوا سفلوا أو مؤرخين كجورجيوستوفلوا في  
وصف هؤلاء المشاهير بجم أصيولوا في يوم بعدد أو ثمانية أو عشرة  
غير عادي في معركة .

وتتراقص الآن على قلبي كلمة نائية أصف بها فعل الطبيب الكبير ولكن يمنعني عن تسطيرها ديبى الذى جاء به محمد — ﷺ — من عند الله ليفرس في النفوس مكارم الأخلاق ، فقد علمنا رسول الله أن نحادل الناس بالتي هي أحسن ، ﴿ و ربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لمن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ (١) .

تحدث الدكتور عن القادة الدينيين فأكد أن بولص الرسول كان مصابا بالصرع ، ثم ثنى بمحمد — ﷺ — فقال : « أما عن محمد ( ٥٦٩ — ٦٣٢ ) فيقول السير وليم مور : في حياة محمد أنه أصيب بإغماء مرتين : الأولى وهو في الثانية من عمره مما دعا حاصنته إلى ترك رعايته والسهر عليه . وقرر وودز ( ١٩١٣ ) أن محمدا كان يعاني نوبات صرع خفيفة ، وقد ظهرت الأعراض عليه وهو في الثالثة من عمره واستمرت طوال حياته ، وتبعاً لما قاله جابوسينيوس Gabuscinius فقد حول محمد قلقه واضطرابه لمصلحته ، فعندما كانت زوجته في ضيق من مرضه قال لها :

— عندما أموء بوحى السماء أحسن صداعاً وترتجف بوادري وهذا من شدة الوحي على الأنبياء ، ولإني أرجو أن أكون منهم .

ف نظرت إليه على أنه مبعوث السماء ووثقت به وأيدته بكل أمورها .

ويقول وودز : وذات يوم بينما كان يتجول بالقرب من مكة وقد خطر له أن يتردى من شواهد الجبال ( لانقطاع الوحي عنه ) سمع صوتاً ونظر



فإذا يجبريل قد ملأ الفضاء يقول له : أنت رسول الله حقاً ، فذهب إلى بيته  
وترجف بواذره ثم انتابته النوبة ، فصبو عليه الماء ولما أفاق رتل : ﴿ يا أيها  
لمدثر • قم فأنذر • وربك فكبر • وثيابك فطهر • والرجز فاهجر • ولا تمنن  
تستكثر • ولربك فاصبر ﴾ (١) . وكان يتبع الأعراض أحياناً هبوطاً في  
الروح المعنوية وصغيراً في الآدات وصلصلة أجراس أو دوياء كدوى النحل  
عند رأسه ، وارتجافاً في شفتيه ولكن هذه الحركة كانت إرادية ثم تثبت  
عيناه وتصبح حركة رأسه تلقائية ، وبعد دقائق قليلة تنتهي العيوبة  
وترجف العضلات وبذلك تنتهي الأزمة . وفي بعض الأحيان عندما  
تكون النوبة شديدة يسقط مغشياً عليه ويروح في غيبوبة ويحتقن وجهه  
ويضطرب نفسه ، ويستمر بعض الوقت على هذا الحال .

هذا ما أخذه الدكتور لينوكس من مور وودز ليثبت به أن محمداً  
— عليه السلام — كان مصاباً بالصرع ككل العباقرة ومشاهير الرجال ، محاولاً  
أن ينفي الإلهام أو النفس في الروع أو الوحي ، وقد قصد بحالة الصرع  
لأولى التي انتابته وهو في الثانية من عمره على رأى مور أو الثالثة من عمره  
على رأى وودز حادثة شق الصدر وعودة حليلة به إلى أمه ، وقد ناقشت  
بأسهاب موضوع شق الصدر في الجزء السادس من السيرة وخلصت منها  
إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على تطهير قلب رسوله دون حاجة إلى  
إجراء عملية جراحية ، وقد ضعفت كل الأحاديث التي روت حادثة شق  
صدره في صباه أو في شبابه أو قبل أو يوحى إليه أو قبل أن يسرى به .

من قصد جهالة الصرع الناجية للمضر الوحي بنظره فمعتنى بخرقه القبيح  
 عليهما السلام - فيما بلغنا حوزة خدامته بمراتبه كى يورث من دعوس شواهد  
 الجنائز كذا فكلت أوقى بدروة جليل تكن يلقى نفسه منه قبدي له معبر غيل  
 فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً : فيمكن لذلك جعله وتقر نفسه  
 من جميع بقاؤه ثلاث عليه طرفة الوحي غداً لكل ذلك ماذا أوقى بدروة جميل  
 تبدى له جبرئيل وقال له مثل ذلك : وهذه رواية الطبري اعتمد عليها سيرة  
 ولهم مؤثر وتلقاها الدكتور لينوكس ليؤكد أنها أن محمداً يحاول الاختصار  
 وهو في نوبة من نوبات الصرع : ورواية الطبري لا يعمل عليها لأن أحد  
 روايتها وهو الثعلبان بن راشد ضعيف ، ضعفة القطان والنسائي وابن  
 معين وأدخله البخاري في كتاب الضعفاء وقال عنه إنه مضطرب الحديث  
 روى ما ذكره في سنة ١٠٠٠ م من رواية عبد الله بن عبد  
 كوثرو وفقاً لهذه الحديث على مقياس العقل فرفضت هذه الرواية  
 إلى تضعيف أحد رواياته ، فليقل أن جميع مؤرخي زمانه الشفاء على من  
 كلمة الروح الأمل وأمره بأن يقرأ قرآن زينة أن يحاول الاختصار لا السبك  
 إلا أن الوحي قد فتر منه مدة : سنة ١٠٠٠ م من رواية عبد الله بن عبد  
 وقيل أن أبا الفتح الدكتور لينوكس في هذا الموضوع شلورد من بعض الحق  
 مرض الصرع كونه كل من الدكتورين العاصيين محمد عبد القادر أحمد  
 وسعد الدين جديت جادو بآء على طلبة عام ١٠٠٠ م في سنة ١٠٠٠ م  
 والصرع حالة مرضية متكررة تتميز بفسولوجيا واضطراب في  
 النشاط الكيميائي الكهربائي للمخ ، مما يؤدي إلى إرسال شحنات عصبية



وتظهر النوبات الحركية الجسمية على هيئة حركات معينة في اللسان أو زاوية الفم أو إبهام القدم ، أو تبدأ في جزء من هذه الأجزاء ثم تنتشر في الجسم كله ، ثم تنتهي بإصابة عامة للجسم وقد تأخذ صورة شلل عام يستمر زمنا بعد انتهاء النوبة .

وقد يتصلب الجسم والأطراف أحيانا مع فقدان الشعور . أما النوبات الحسية فتصيب حاسة من الحواس الخمس مثل النظر ، فقد يشعر المريض بعدم وضوح الرؤية ، وقد تصل إلى عدم الرؤية إطلاقا . أو يشعر المريض بتخدير في جزء من جسمه ، أو يشعر بطنين في أذنيه ، أو إحساس بالدوار ، أو شم رائحة غير موجودة .

أما النوبات اللاإرادية فلا يتحكم فيها المريض ، وقد تصحب النوبات الحركية أو النوبات الحسية وخاصة النوبات النفسية وقد يحدث عنها التبول اللاشعوري أو اضطرابات في المعدة .

وفي حالة النوبات النفسية يهذى المريض أو يشعر بالغربة وهو بين أهله ، وتصدر عنه تصرفات عريية ويقول أقوالا لا يعنها ، ويصاب بحالة نيان لفترة معينة ، وقد تحدث هذه النوبة أيضا بعد وقوع النوبة العصبية .

نوبة الصرع الخفيفة : تتميز بمفاجأة المريض وتلوم فترة قصيرة ، ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها اللهم إلا اختلاج في العينين ، وقد تحدث يوميا أو على فترات بين الفترة والأخرى شهور أو سنين ، وقد تختفي في سن البلوغ .

وعند حدوثها تتحرك الأطراف أو يحدث ارتخاء في عضلات الجسم ،  
ويسقط المريض على الأرض فاقد الوعي لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر  
ما حدث .

نوبة الصرع الشديدة : وتظهر فجأة في صورة تشنجات متجانسة ،  
وهذه مراحلها :

( أ ) تخيلات وهمية يشعر بها المريض وحده ، وهي الإنذار بحدوث  
النوبة وتقع قبل حدوث التشنجات مباشرة أو مصاحبة لها ، وهي على  
هيئة هذيان أو شم رائحة غير موجودة أو سماع أصوات غريبة كطنين في  
الأذن أو آلام في المعدة .

(ب) ثم تحدث تشنجات وتكون مستمرة ومتجانسة لفترة ثوان ثم  
مقطعة ، وقد تبدأ بصراخ ثم يروح في غيبوبة لا يشعر في أثناءها المريض  
بنفسه .

(ج) ثم تأتي فترة ما بعد التشنجات وانتهاء النوبة . فلا يعود المريض  
إلى حالته الطبيعية مباشرة بل يظل نائما أو فاقد الوعي مدة قد تمتد إلى ساعة  
من الزمن . وقد يصحبها صداع أو قيء أو آلام بالعضلات .  
وقد يبدو أن المريض قد استرد وعيه إلا أنه يأتي بحركات غريبة ينساها  
تماما بعد أن يسترد وعيه فعلا ، بل ينكر حدوثها ولا يعرف ذلك إلا من  
هم حوله وقت وقوع النوبة ، وقد تنتاب المريض حالة هياج بعد فترة  
التشنجات ، أو يقوم بخلع ثيابه أو العبث فيما حوله أو الاعتداء على من  
حوله ، ولا يتذكر إطلاقا ما حدث من هذه التصرفات .

وهو قد يقف الحنظل في شلل عظيم فيسقط إلى الخفاق أو أعصابه يهيم ويستمر ذلك  
في جميع أوعية الجسم بطول مدة حالته الطبيعية. <sup>(١)</sup> في هذا الحسب  
ويؤثر وعى المريض في الوبات النفسية الحركية ، وإن ظهر بتدريج  
بعض كائنات غريبة يظن أنها مفعلة من قوى الواقع غير ذلك وقد وقع فيها  
الإحساس ويصاب المريض بحالة نسيان وتعتريه تأثيرات عاطفية وعلى  
الحروف أو بالأحرى أو للكلاء <sup>(٢)</sup> في <sup>(٣)</sup> بعض مباحث كبرى (٤)

وهذه هي أساليب اضطراب دول أعراضه وحققها عند النبوة وروايتها ما يهد  
للتوبة <sup>(٥)</sup> ولو أن المدكتور ليتو كين قد جزم بأنفسه عظماء <sup>(٦)</sup> من <sup>(٧)</sup> مباحث  
مصايا بالصرع الخفيف الذي جاء في أعراضه أنه للنبوة قدوم فترة قصيرة  
خولا تصفحها فلا تل تغلب وتقرعها بالاحتجاج للعجز والشيء يسقط فيها  
القبول من شأنه اللوعى لمدة يستيقظ بعد هذا ولا يتذكر أحد حدثه من دخول وقت  
دحض هذا الرعم ميسور بتأكيد أن محمد — <sup>(٨)</sup> — كان يتذكر كل  
مطباء به الواسع. يقول كل من حضر كذا خطر في قلبه إن كان يخطى على كتاب  
فالوحي أعقبه القصاص الوحي تعبه لفتنة مفعلة به يخرج من الأوهن إلى الأبرى  
سأناقش كل كلمة من هذه المدكتور في كتابه من أساليب الصرع وأعراضه  
لو سألوا أن أحققها على أطوار مبيحة محمد <sup>(٩)</sup> من <sup>(١٠)</sup> مباحث كبرى  
أهمه أمته بنت وحب معنى ذلك الحق بالبريق الأعلى <sup>(١١)</sup> في <sup>(١٢)</sup> راسخ به  
في يقول المدكتور ليس يمكن أن يكون أسلاف مرض الصرع عموما خلقية  
بعضية الجين أو هو على بطور أسفوح من أثر ولاشدة معينة أو قدروا مستأمنة  
بت وهب أسلافهم بغيره فلا بأس من عظماء عظماء <sup>(١٣)</sup> في <sup>(١٤)</sup> عليه السلام ،

وكانت ولادته ميسرة على الرغم من أنه ابنها البكر، فقام أبوه بالصدقها  
كما صدق الله كقول ليتي كثر رواياته ضعيفا ساقها السيول ولم يورث في كتابه  
« حياة محمد » وروى عنه « سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت  
الروايات المتباينة التي اعتمد عليها في مسوق تصحيحه على إصاحبه محمد  
بالصريح : أنه سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت

سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت وقال في حليمه للسمعنة بنته كان  
يصغر ويقلط أكثر من كل من كانوا في مثل سنه وأنه عشتي ولم يعم من عمره  
سيفه غير تكلم بلسان فصيح وهو ابن عشرين سنة وهو في الصحة لم يزلت  
مرحلتا فقط بل كان يمشي في البيت وهو على الفراء بعد أن وجدته حليمه بال  
كتفبها بما يكشف عن بطن فري النيران وأما حديث ثلق الغدير الذي  
جعل الله كقول ليتي كثر رواياته ضعيفا ساقها السيول ولم يورث في كتابه  
« حياة محمد » وروى عنه « سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت  
الروايات المتباينة التي اعتمد عليها في مسوق تصحيحه على إصاحبه محمد  
بالصريح : أنه سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت

سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت وقال في حليمه للسمعنة بنته كان  
يصغر ويقلط أكثر من كل من كانوا في مثل سنه وأنه عشتي ولم يعم من عمره  
سيفه غير تكلم بلسان فصيح وهو ابن عشرين سنة وهو في الصحة لم يزلت  
مرحلتا فقط بل كان يمشي في البيت وهو على الفراء بعد أن وجدته حليمه بال  
كتفبها بما يكشف عن بطن فري النيران وأما حديث ثلق الغدير الذي  
جعل الله كقول ليتي كثر رواياته ضعيفا ساقها السيول ولم يورث في كتابه  
« حياة محمد » وروى عنه « سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت  
الروايات المتباينة التي اعتمد عليها في مسوق تصحيحه على إصاحبه محمد  
بالصريح : أنه سوا ما أنه فكر بها وتلك كتب في نفس الوقت

كدوى النحل عند رأسه .

هذه هى الأعراض التى استند إليها لينوكس لتأكيد أن محمدا — ﷺ — كان مصابا بالصرع ، ولم يأت بجديد فى عام ١٩٦٠ فكل شائى محمد — عليه السلام — من الغربين قالوا هذا الافتراء . أما أن محمد — صلوات الله عليه وسلامه — فكر فى الانتحار لما فتر عنه الوحي وأنه كلما هم بأن يتردى من شواهد الجبال ظهر له جبريل وقال له : أنت رسول الله حقا ، فالحديث الذى روى ذلك منك ، وقول لينوكس بأن محمدا كان يسمع دوى النحل عند رأسه قول غير صحيح ، فالذين كانوا يسمعون دوى النحل هم الذين كانوا عند الرسول عندما ينزل عليه الوحي . فقد قال عمر رضى الله عنه : « إذا برل على رسول الله — ﷺ — الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل » فهل من أعراض الصرع أن يسمع من حول المريض أصوات كدوى النحل ؟!

وقال — ﷺ — إن الوحي يأتيه فى صوت كصلصلة الحرس أحيانا ، فصلصلة الحرس صفة للصوت الذى يوحى إليه ، فيا ترى كيف كان الله يوحى إلى موسى ؟ ألم يكن الصوت من صور الوحي الذى نزل على كليم الله ؟! وبماذا يريد الدكتور لينوكس أن يوحى الله إلى أنبيائه إن لم يكن بصوت من الأصوات أو بإلهام من الإلهامات أو بنفث فى الروح ؟ لو أن الدكتور لينوكس قد أنكر الوحي كلية لما فكرنا فى عتابه ، ولكنه عندما كان يذكر العظماء المصابين بالصرع لم يذكر موسى عليه السلام مع أن التوراة تؤكد أن موسى خر صعقا لما سأل الله أن يتجلى



عليه ، فإن كان الدكتور قد أقر بنزول الوحي على موسى فلماذا ينكر نزوله على محمد — ﷺ — ؟ لو كان الدكتور عالماً مجرداً عن الهوى وسلم بنزول الوحي على موسى — عليه السلام — ، أو أى من الرسل الذين يؤمن بهم لوجب عليه أن يسلم بنزول الوحي على محمد — ﷺ — . فالحقيقة لا يمكن تجزئتها ولا يعقل أن نعترف بها مرة ونسكرها مرة أخرى .

إننا أمام حالة من حالتين : فإما أن الدكتور لينوكس يؤمن بالوحي وينزوله على موسى — عليه السلام — وفي هذه الحالة لا مفر من اعترافه بنزوله على نبي الإسلام ، وإما أنه لا يؤمن بالوحي ولم يذكر موسى — عليه السلام — بين المصابين بالصرع خشية من يهود أمريكا ، فهو في كلتا الحالتين أهدر نראה العلم وكرامة العلماء .

وأحب أن أسأل الدكتور لينوكس : لماذا لم يتعرض لصور الوحي الأخرى التي ذكرها محمد — ﷺ — ؟ ألا أنها لا تخدم غرضه ، وهل من الأمانة العلمية سرد بعض صور الوحي دون بعض ؟ قال — ﷺ — : وإن جبريل ليأتيني فيكلمني كما يأتي أحدكم صاحبه . إنه كان يكلمه ويصمره بغير حجاب ولا غيبوبة ، وكان يأتيه على صورة دحية الكلبي أو على صورة غيره ، وإن ظهور جبريل بصورة رجل كان تأنيساً لمن يخاطبه .

قال عمر رضي الله عنه : بيأخى عند رسول الله — ﷺ — ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ... وقد عُرف بعد انصراف الرجل أنه

جبريل بفعل كانا كل الخالسين مصابين بالصرع ؟  
 ويقولون بوجه : ٤ وقد أميت كل كلمة من كلمات القرآن عقب  
 صفاء ذهنه من أثر الوحى ، ويؤكد الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفقد  
 فيه وقد يجر عقله بأفكار رائعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل  
 الصبغة التي يمتص بها محمد صلى الله عليه وسلم .  
 لاند عمداً عليه السلام في جميع عزوانه كان القوي الذي يقهر  
 الخطوب لا الهاتفت الذي يحفظه على الأرض موضعاً عليه ، وأنه قد عزوة  
 تيوك وقد تجاوز الخمسين وكانت في الحر الشديد تحمل متاعها الطريق  
 والخبر والعطش وكان أكثر حيوية منه كثير من الشباب الذين كانوا في  
 الجيش ، فهل يحتمل أن يكون ذلك الذي تحقق الصبغة بغير نجاسة ومصابة  
 بالصرع ؟  
 ويقولون بوجه : ٥ ، كان الصرع عليه السلام من أحد جهات أو مشرق على أنه  
 وما رفع الخبر أحد إلى صدق التقرير في الصباح يوماً ، وكان من قضاة  
 مثل هذه الحالات في الأزمنة القليلة يعتبر مجنوناً أو بلا من من الجنون وإن  
 كان هذا من عصب العقل ودرجاته فهو محكم عليه السلام .  
 ويقولون الأتباع عياض محمود العقاد ، تلك لغة ، مات محمد صلى الله عليه وسلم آمنة  
 ولما تجاوز الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت في هذه السن إلا علة مقبلة  
 على الضعف عليه السلام لم يكن من مرض يستغل الأجل في مرضه من  
 الشيطان عليه السلام .  
 فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم على الخلافة — سليل الأنبياء — هو الذي ؟



الكراديس — أى ملتقى العظام — ولم يكن بالمطهّم ولا بالملكثم<sup>(١)</sup> ،  
أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، إذا مشى تقلع كأنما يحط من صلب ،  
ذريع الخطوة سائل الأطراف .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف  
منطق النبی بشيء ينم على اضطراب في عصب أو عضل أو نبض عن  
عرض من الأعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع الفم يتكلم بكلام بين  
فصل مفسر ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث  
اتصل بها — أى صاحب كلامه بما يوافقه من حركتها — وإذا غضب  
أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه . جل ضحكته التيسم ، ليس  
بصخاب ولا يرتفع له صوت في غير دعاء .

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا جمعها أبو عيسى  
الترمذی صاحب الشماثل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مسامح اشتباه في  
عرض من أعراض حثل الصرع والاضطراب ، بل هي كلها تأكيد  
للمنطق السليم والخلق القويم .

وفرة انقطاع الوحى عن رسول الله — ﷺ — خير دليل على صدق  
الرجل ، فلو كان الرسول الكريم غير صادق مع نفسه لأحصى عن الناس  
جميعا هذه الحقيقة ، ولو كان القرآن من عنده فما الذى جعله يمزع لغياب  
جبريل عنه ! ولماذا احتمل سخرية شائتيه ؟ لو كان الأمر بالبساطة التى

---

(١) المطهّم : استفتح الوجه ، والملكثم : المدور ، والأهدب : طویل أهداب  
العين مع انعطاف .

بصورها الكتاب الغريون لعكف محمد — عليه السلام — في داره ليلة أو بعض ليلة وألف قرآنة ، ولو فرغ على نفسه المحنة التي احتملها لما غاب عنه الوحي .

وقيل إن مدة فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل اثني عشر يوما ، وجزم ابن إسحاق بأنها ثلاث سنين ، وقال السهيلي : إن مدة هذه الفترة كانت ستين ونصف سنة . وقد أخذت بالقول الذي حددها بأربعين يوما لا لأن ذلك هو المشهور وحسب بل لأن أبا سفيان قد خرج إلى اليمن في تجارة فريش قبل البعثة وعاد منها بعد خمسة أشهر فوجد أصحاب محمد — ﷺ — يعذبون ، فلو كان حديث أبي سفيان صحيحا فلا يجوز أن تطول مدة انقطاع الوحي عن المدة التي استغرقها أبو سفيان في دهايه إلى اليمن وعودته منها .

وتعود بعض المؤرخين الغربيين الذين يقرعون التوراة فلا يجدون فيها ذكرا للجنة والنار أن يسخروا من اللجنة التي وعد الله بها المتقين في الإسلام ومن النار التي أعدت للمجرمين ، ونسوا أن التوراة التي بين أيديهم قد كتبها اليهود في المنفى بعد أن أحرق بمختصر جميع نسخ التوراة الأصلية . وكانوا متأثرين بالديانة البابلية التي تقول إن الذين يموتون يذهبون إلى الأرض التي لا رجعة منها .

قالوا إن النعيم السماوي كما وصفه القرآن من النقائص التي تفدح في العبادة التزيهة ، متناسين أنه ما من دين سماوي خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، بل وما من دين من أديان الوثنيين إلا وقد وعد المؤمنين براحة





« الشعراء » بعد والشمس ، البروح ، التين ، قريش ، الفارعة ،  
القيامة ، الهزرة ، والمرسلات ، ق ، البلد ، الطارق ، القمر ، ص ،  
الأعراف ، الجن ، يس ، الفرقان ، الملائكة ، مريم ، طه ، الشعراء ،  
فأكدت أن ترتيب السور حسب الروول في المصحف أو في مصحف  
ابن عباس لن يفيدنى في ترتيب أحداث السيرة ، فإن أردت أن يكون نزول  
القرآن مرشدى في سرد وقائع السيرة العطرة ، فعلى أن أرتب الآيات  
حسب نزولها ولكن ذلك شئ عسير ، فالقرآن نزل منجما ولم يزل جملة  
واحدة ، يشرع للناس وينابيع الأحداث : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك  
بالحق وأحسن نصيرا ﴾ (١) . ﴿ وقرآنا فرقاه لتقرأه على الناس على  
مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ (٢) .

وقد استنكر أعداء الإسلام أن يتزل القرآن منجما وقالوا : « لولا نزل  
عليه القرآن جملة واحدة » وكان جواب الله تبارك وتعالى : ﴿ كذلك  
لنثبت به فؤادك ورتناه تنزيلا ﴾ (٣) أى جعلناه بعضه في إثر بعض .

وكان النضر بن الحارث يستهزئ القرآن ، وكلما جاء فيه ذكر عاد  
وتمود قال : أساطير الأولين ، قاصدا بذلك أن ما يروى عن عاد وتمد إنما  
هو حديث خرافة كالأحاديث التي يرويها عن رسم واسفنديار التي جاء  
بها من الحيرة وبلاد الفرس . وعدم تصديق ما جاء به القرآن عن عاد وتمد  
قد يعود إلى أن التوراة التي بين أيدي الناس سكنت عن الحديث عن هؤلاء



الأقوام ، وسبب سكوتها قد يرجع إلى المنافسة الشديدة التي كانت بين  
بنى إسرائيل وبنى إسماعيل في الوقت الذي أعاد اليهود فيه كتابة التوراة في  
المنفى ، فاليهود كانوا مشردين بينما كانت دولة بنى إسماعيل مزدهرة في  
أرض النبط . وكانت عاصمتهم البتراء تنافس بابل ودمشق ومنف بل  
وروما ، فلا يعقل أن اليهود لم يعرفوا العرب قوم عاد وحمود . وقد ذكر  
بطليموس في أطلسه مواقع عاد وحمود . إن الحاقدين على الإسلام حاولوا  
بكل ما وسعهم الجهد أن ينكروا أن عاداً وحموداً كانتا حقيقة واقعة لتجريح  
القرآن والتشكيك فيه ، ولكن عاداً وحموداً قد أقر بوجودهما التاريخ القديم  
والتاريخ الحديث على السواء والأطالس التي وضعت قبل الإسلام بمئات  
السنين ، وإن كل المحاولات التي بذلت والتي ستبذل لأهون من أن تنال  
من الكتاب المبين .

القاهرة في ١٩٦٨/٣/٥



إبراهيم الإيباري  
الزبير بن بكار

معاوية  
أخبار قريش  
تفسير سورة العلق  
مقدمة ابن خلدون

Epilepsy, by William G. Lonnox.

A Theological Word Book of the Bible, by Richardson.

Islam and Theory of Interest, by Anwar Eqbal Quershi.

٢٥٥٦ والديكوري محمد جمال الدين عباد

٧٧٨ — ٢١٦ — ٨٤١ — X لولدا جيتا

رقم الإيداع ٣٥٥٩

الترقيم السولى X - ١٤٨ - ٣١٦ - ٩٧٧